مجاني الغرر

لكتاب القرن التاسع عشر

وهو يشتمل على كل ماراق من المقالات المفيدة الشائقة · والخطب النفيسة الرائقة · التي يستفيد منها الطالب و يستعين بها كل كاتب · مدبجة بيراع اشهر كتاب العصر · الذين لهم علينا الفضل ويحق لنا بهم الفخر

﴿ جمعه ﴾

يوسف صفير

المجلد الاول من القسم النثري

وهو يباع في مكتبته المسماة

مكتبة المدارس

« الكائنة شرقي ساحة البرج على طريق النهر »

في بيروت

طبع ثانية بالمطبعة العثمانية في بعبدا (لبنان) سنة ١٩٠٦

مقدمة

لما كان روح العصر يحدو بشبانه الادباء الى تصفح نفثات بلغاء الكتّاب والمترسلين لانها سفر يحدّث عن حاجيات العلم ويبحث عن اسباب العمران وكانت مكتبتنا « المدارس » قد آلت على نفسها ان تتحف بيوت العلم بما يثقف عقول بنيها ويفي بحاجاتهم المدرسية مما اوقفنا النفس له حسرنا عن عضد الهمة بعد ان استأذنا كثيرًا من كتّابنا الافاضل وجمعنا من بنات افكارهم ونفثات اقلامهم مـا دبجنا به صفحات كتابنا الذي دعوناه :

﴿ مجالي الغرر لكتّاب القرن التاسع عشر ﴾

بيد اننا لم نستطع الى تبويبه سبيلاً نظرًا لتلون المواضيع وتنوّعها واختلاف العبارات وطبقات الانشاء فيها . وذلك لا يغض من قدر الكتاب ولا يكون مدرجةً للانتقاد عليه . اذ المقصود نظم شذرات النثر في سلك سطور الطروس اغتنامًا للفوائد المتنوعة على اختلاف طبقاتها . — ولعدم مقدرتنا على الحكم بترتيب طبقات البلاغة والانشاء تركنا الامر على علاّته مع الاشارة الى كاتب المقالة مصرحًا باسمه

اما الالقاب فمحفوظة

وقـد عقدنا النية على توسيع نطاقه الى اجزاء متعددة ولا سيما

اذا حاز القبول لدى ارباب الفضل من رؤساء المدارس ونخبة آل العلم الكرام

ولا يخفى ان عضد مثل هذا يدفع الى الاقدام والسعي وراء تعزيز العلم ومعاهده مما يحمل الطلبة على التقاط فرائده وادّخار منافعه في خزائن عقولهم اشارة الى القول المشهور « لكل عصر رجال » ولدينا من مجموعات الاقدمين كثير . اهمه الكتاب المزدان بمجموع افكارهم نظماً ونثراً المشهور بين الادباء ألا وهو « مجاني الادب » الذي اغنانا جامعه الفاضل عن ان نطرق هذا الباب من التاليف اذ جمع فاوعى من المطالب الادبية على اختلافها مما لا يحيط به وصف فصرفنا همنا الى جمع آثار فضلاء القرن التاسع عشر الحافل بانواع العلوم والاختراعات والفنون على اختلافها فتكون الفائدة متنوعة اذ يستفيد المطالع ابحاثاً عصرية تاريخية ادبية فنية الخ الخ

فالمرجو من ادبائنا اصحاب النهضة العلمية ان يوازونا بافاداتهم بهذا الصدد وما يرتأونه في مجموعتنا من الافكار لتكون في الطبعة الآتية وافية بالغرض . ومن لم نذكر من قلمه شيئاً في هذا الجزء فلا يفوتنا تدبيج صفحاته بمقالاته الشائقة في الاجزاء التالية . والله ولي التوفيق

يوسف صفير

صناعة الكتابة

« لاديب بك اسحق »

الدرس الاول

حد الكتابة واقسامها

الكتابة صناعة موضوعها التعبير عن الخاطر برسوم معلومة . وفي اللغة الجمع وهي مصدر قولهم كتب يكتب كتابة وكتاباً ومنه قيل لجماعة الخيل كتيبة . ووجه المناسبة بين المعنيين ان الكاتب يكتب اي يجمع الحروف والالفاظ لتأدية ما يمرُّ بباله من المعاني وما يشعر به من الانفعالات

وقد جعلها المتقدمون اقساماً شتى بقدر مواضيعها والخطط الدائرة عليها في ايامهم فقالوا كتابة الحسبة وكتابة المال وكتابة الانشاء وهلمَّ جرّاً وجعلوا تحت كل من هذه الاقسام فروعاً كثيرة يتيه الذهن في حدودها على انهم توسعوا في معنى الانشاء حتى اطلقه الكثير على مجمل تلك الاقسام فقالوا صناعة الانشاء وهم يريدون الكتابة على الاطلاق

والانشاء في اللغة مصدر قولهم انشأ الشيء ينشئه اذا ابتدأ واخترعه فلعل السبب في اطلاق لفظه على الكتابة ان اختراع المعاني هو الشرط الاول في اتقان هذه الصناعة كما سيجيء في بابه . وهو اي الانشاء عند كتاب لغتنا الشريفة نوعان مختلفان وهما النثر والسجع ولكل منهما اصول معلومة وقواعد محدودة وصفات مميزات تذكر في مواضعها تفصيلاً

الدرس الثاني

النثر والسجع

النثر هو الكلام المطلق المرسل عفو القريحة بلا كلفة ولا صنعة الا ما يكون من وضع الكلام في مواضعه وايثار ما يألفه السمع والطبع منه فهو من هذا الوجه مقدم على سائر انواع الكلام بل هو الاصل في الانشاء وما سواه فرعٌ منه فانه طبيعيٌّ اصيلٌ وما دونه صناعيٌّ حادث والاصل في الطبيعة لا محالة . يدلُّ على

ذلك ان هذا الكلام المقفى الذي يسمونه سجعاً لا يكاد يوجد في غير اللسان العربي فلو كان طبيعياً لوجب ان يكون في جميع اللغات او في المعدودة منها اصولاً لا اقل

اما السجع فهو الكلام المقفى على حد الارجوزة من الشعر الا انه غير موزون ولقد سمي بذلك استعارة من قولهم سجع الحمام اذا هدر وسجعت الناقة اذا مدت حنينها على جهة واحدة · وهو وان حسن في بعض الاماكن كصدور الخطب ومقاطع الكلام بما فيه من تناسب الالفاظ وتماثل الفواصل التي يحسن وقعها في الاسماع الا انه في الجملة دون المرسل البليغ بهجة وصفاءً وموافقة لمقتضى الحال لقيد الكاتب فيه بلفظ لا بد منه او من اخيه فلا ينبغي استعماله في بيان الحقائق العلمية ولا في ايضاح الاصول الادبية ولا في غير ذلك من مواضع النقد والسرد الا اذا جاءَ عفواً غير مقصود بالذات

الدرس الثالث

لابن خلدون فيما نحن بصدده كلامٌ جدير بالنظر والتأمل والاعتبار وهو قوله · السجع هو الكلام الذي يؤتى به قطعاً ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة والمرسل هو الذي يطلق الكلام فيه اطلاقاً ولا يقطع اجزاءً بل يرسل ارسالاً من غير تقييد بقافية ولا غيرها وقد استعمل المتأخرون اساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الاسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدي الاغراض وصار هذا المنثور اذا تأملته من باب الشعر وفنه ولم يفترقا الا في الوزن · واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال في المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وخلطوا الاساليب فيه وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصاً اهل المشرق وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الاسلوب الذي اشرنا اليه وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من احوال المخاطب والمخاطب · وهذا الفن المنثور المقفى ادخل المتأخرون فيه اساليب الشعر فوجب ان تنزه المخاطبات السلطانية عنه اذ اساليب الشعر تنافيها اللوذعية وخلط الجد بالهزل والاطناب في الاوصاف وضرب الامثال وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث لا تدعو ضرورة الى ذلك في الخطاب والتزام

التقفية ايضاً من اللوذعة والتزيين وجلال الملك والسلطان وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ينافي ذلك ويباين والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسل وهو اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع الا في الاقل النادر وحيث ترسله الملكة ارسالاً من غير تكلف له اما اجراؤها على هذا النحو الذي هو من اساليب الشعر فمذموم وما حمل عليه اهل العصر الا استيلاء العجمة على السنتهم وقصورهم لذلك عن اعطاء الكلام حقه من مطابقته لمقتضى الحال فعجزوا عن الكلام المرسل واولعوا بهذا السجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالاسجاع والالقاب حتى انهم يخلون بالاعراب والتصريف في الكلمات اذا دخلت لهم في تجنيس او مطابقة لا يجتمعان مع صحتها · اه

الدرس الرابع

هذه نموذجات من الكلام المرسل والسجع نوردها تذكرة وبياناً · فمن اطائب ذاك قول ابن خلدون · « ان الامة اذا غلبت وصارت في ملك غيرها اسرع اليها الفناء والسبب في ذلك والله اعلم ما يحصل في النفوس من التكاسل اذا ملك امرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم فيقصر الامل ويضعف التناسل · والاعتمار انما هو عن جدة الامل وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية فاذا ذهب الامل بالتكاسل وذهب ما يدعو اليه من الاحوال وكانت العصبية ذاهبة بالقلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم وعجزوا عن المدافعة عن انفسهم بما خضد الغلب من شوكتهم فاصبحوا مغلبين لكل متغلب طعمة لكل آكل » · اه

وجل كلام ابن خلدون ولا سيما في مقدمة تاريخه على هذا النحو من السلامة ومناعة التركيب · ومن تبلغ الكلام المرسل قول علي ابن الرماني في وصف البلاغة « البلاغة ما حط التكلف عنه وبني على التبيين وكانت الفائدة اغلب عليه من القافية وجمع سهولة المخرج مع قرب المتناول وعذوبة اللفظ مع رشاقة المعنى »

ومن مستكمل البلاغة قول الفرزدق لحسين بن علي رضي الله عنهما وقد سأله عن الناس في العراق عند المسير اليه فقال : القلوب معك والسيوف عليك والنصر في السماء

ومن جيد السجع مقامات الامام الحريري ورسائل بديع الزمان الهمذاني وقطع

كثيرة للقاضي الفاضل وجملة غير يسيرة لكتاب مصر من بعدهم الى انقراض الدولة الفاطمية

ولم يدخل هذا السجع كلام القدماء في الجاهلية وصدر الاسلام الا ما كان منه عفو القريحة فواصل غير مقفاة او ما يعزى الى الكهان والمشعوذين مما يراد به الايهام والابهام فلما استولت العجمة على الالسن وضعفت قوة الاختراع في الاذهان سرى داؤه في المكاتبة الى هذا العهد فعدل الكتاب عن الكلام الفحل واللفظ الساذج والاسلوب الطبيعي الى هذه الاسجاع الملفقة البالية يتناقلونها خلفاً عن سلف ويطيلون بها الكلام بلا طائل ستراً لقصورهم في ابتداء المعاني وايضاح وقائع الحال من طريق البلاغة والايجاز حتى صارت من العادات. وحصلت بين الملكات فدخلت في المراسلات الاخوانية والمكاتبات عن الملوك والامراء في عظائم الامور وسقط من ورائها الكلام المرسل الى غاية السفالة والركاكة فصار ما يكتب منه رطانة يفهمها بعض الجهلاء وتغمض عن الراسخين في العلم

قال ابن الاصبع لا تجعل كلامك كله مبنياً على السجع فتظهر عليه الكلفة ويتبين فيه اثر المشقة وتتكلف لاجل السجع ارتكاب المعنى الساقط واللفظ النازل وربما استدعيت كلمة للقطع رغبة في السجع فجاءت نافرة من اخوانها قلقة في مكانها بل اصرف كل النظر الى تجويد الالفاظ وصحة المعاني واجهد في تقويم المباني فان جاء الكلام مسجوعاً عفواً من غير قصد وتشابهت مقاطعه من غير كسب كان وان عز ذلك فاتركه وان اختلفت اسجاعه وتباينت في التقفية مقاطعه فقد كان المتقدمون لا يحتفلون بسجع جملة ولا يتقصدونه الا ما اتت به الفصاحة في اثناء الكلام واتفق من غير قصد ولا اكتساب وانما كانت كلماتهم متوازنة والفاظهم متساوية ومعانيهم لاصقة وعباراتهم رائقة وفصولهم متقابلة وجمل كلامهم متماثلة . اه

الدرس الخامس

صفات الكاتب وما يحتاج اليه

قد اشترط بعض المتقدمين في الكاتب شروطاً كثيرة منها مـا يلزم في كل انسان على الاطلاق وفي كل ذي خدمة عمومية بالجملة ومنها يخصُّ بالكاتب ولكن على ذلك العهد فالضرب الاول خارج عن موضوعنا لدخوله في علم الاخلاق والثاني من مطالب التاريخ اما شرطنا على الكاتب فهو من جهة الادب الاجتهاد والثبات

والاستقامة ورعاية الحقوق وحفظ الواجبات ومؤدى قول الحكيم الفرنسوي الموجه الى كل اناسي

ذاتك احفظ وتفقه واعتدل واحيَ للناس ليحيى الناس لك

ومن جهة الكتابة بالذات ان يعلم اصول اللغة ليعصم لسانه عن الخطاء ما امكنت العصمة لانسان ويحفظ قطعة كافية من العلوم والاداب خصوصاً ما يتعلق توًّا بخطة الكتابة ليكون على بينة من الامر فيما يقول اما الكتابة العالية البالغة حد العالمية فلا تقف عند حد ولا يحصرها شرط فانها في العلم الذي يعرف اوله ولا يعرف اخره. وليست في شيء مما نحن بصدده وانما شأننا بيان صناعة الكتابة وما يشترط فيها من حيث ادخال المعاني في الافهام من اقرب واصح وجوه الكلام وهذا اوان الشروع في ذلك بعون الله

الدرس السادس

الكتابة كما تقدم في التعريف صناعة يراد بها التعبير عن الخواطر والمحسوسات بوضع صحيح واسلوب صريح فهي ذات ثلاثة اركان: الخاطر المراد ايضاحه وهو الانشاء والوضع الذي يبدو به ذلك الايضاح وهو البيان والكيفية التي يحصل بها ذلك هي الاسلوب

فالانشاء او الاختراع هو الخاطر الذي يجده الكاتب ويقف فكره عليه فيجعله موضوع كتابته فهو من هذا الوجه قوة من الفكر بايجاد الخاطر والموضوع والفصاحة هي الحكاية او التاثير او الاقناع ولا بد في كل مكتوب من احدى هذه الثلاث وقد يجتمعن به والحكاية تحصل ببيان الواقعيات والتاثير بالصور المؤثرة والاقناع بالبراهين

والوضع هو تنسيق اقسام الموضوع فانه لا يكفي ان يكون هناك خاطر بل لا بد من ملاحظة النظام في كيفية ايضاحه فانه لا جلاء بلا تنسيق ويفقد الغرض وعوضاً من الافادة والاعجاب والتأثير والاقناع يتعب القارئ عبثًا وقبل الكتابة لا بد من وضع رسم ولو رؤوس اقلام فانه اذا لم يوضع الرسم يرتبك الذكي ولا يعرف كيف يبتدئ وكذلك يدخل في تفاصيل مملة ويضيع المسألة المهمة المقصودة بالذات ويصير مظلمًا كلما اجتهد في الايضاح ومن اين له ان قارئيه يصبرون الى ان يعود ليهتدي سبيله وفي الكتابة القصيرة لا يستغنى البتة عن هذا الرسم ولكن العادة تجعله

مصدراً في الذهن على الفور بحيث ان الكاتب يسلك سبيله المعلوم بلا دليل وكيف كان ففي التنسيق ثلاثة امور ضرورية وحدة الموضوع وتلاحم الاجزاء واستقلالها التدريجي

والاسلوب هو العبارة التي توضح بها الفكر ولذلك يقال لكل انسان اسلوب وهي تتعلق بانتقاء اللفظ وكيفية سرده . قال فولتير: الاشياء التي تقال تؤثر اقل من كيفية ادائها فان جميع الناس يتقاربون في الافكار التي هي بمدرك كل انسان والفرق في كيفية التعبير فانها تجعل الاشياء معتادة غريبة وتقوي الضعيفة وتجسم البسيط وبلا حسن الاسلوب لا يمكن ان يوجد كتاب جيد في اي موضوع

ويقول غيره : حسن الكتابة فيه حسن الفكر وحسن الشعور وحسن التعبير فيقتضي الذكاء والذوق . والاسلوب يتضمن استعمال القوى العقلية جميعاً ولا يبقى من الكتب الا ما كتب جيداً فان الاختراعات والاكتشافات لا يخلد بها الكتاب ما لم يكن حسن العبارة مكتوباً بذوق ونبالة

والاسلوب وهو النفس هو الدال بالعقل على صفة الكاتب حتى قيل انه مظهر الكاتب لتعلقه بقوى العقل والنفس وحيث ان لكل انسان صفات تميزه عن غيره فلذلك اختلفت الاساليب والانفاس

الانشآء

«للشيخ خليل اليازجي»

الانشآء ملكةٌ راسخة في النفس يعين عليها سلامة الذوق وطول المزاولة . والناس فيها طبقات متفاوتة مرجعها في الاكثر الى بداهة الخاطر وذكآء البصيرة وغزارة المادة . وله احكام اذا راعاها المجيد نبغ فيه واذا راعاها الضعيف استأنس بها فاعانته على الجري فيه . وقبل البحث في تلك الاحكام يحسن ان نمهد لها بما تجمل به مفصلاتها او تشرح متونها فنقول

لا يخفى ان كل مجموع انما يتألف من مفردات . وان بين كل مفرد وآخر في ذلك المجموع نسبةً ما . وتلك النسبة لا بد ان تكون اما موافقةً او مخالفةً . وعلى هاتين النسبتين تترتب حالة المجموع من حيث حسنه وقبحه وتلاؤمه وتنافره ونحو ذلك

من حالاته . واظهر ما يمثل به على ذلك الالوان فانه قد يكون بين يديك رقعتان ملوّنتان بالوان واحدة فتستحسن احداهما على الاخرى وليس ثمّ من سبب الّا التلاؤم بين الوان الاولى . والتنافر بين الوان الثانية . ولقد ترى رقعة اخرى فتقول لو وضع مكان هذا اللون منها اللون الفلاني لكان اليق او لزال عيبها . وقس على ذلك الاصوات الموسيقية والطعوم وسائر المركبات على الاطلاق . اذن فآية الاحكام في كل مركب انما هي الملاءمة بين مفرداته وانما ذلك من قبيل وضع الشيء في محله

ثم ان لكل مفرد في المركب فضلاً عما له من الاعتبار النسبي اعتبارًا آخر ذاتيًا من حيث حسنه وقبحه ينظر فيه اليه مجردًا . فمتى استوفى المفرد حسنه الذاتي ثم قرن بما يتلاءم واياه فهناك غاية الكمال في المركب وتمام الاحكام

اذا عرفت هذا وعرفت ان العبارة انما هي مجموع مفردات الكلمات عرفت ان حسن العبارة وطلاوتها مترتبان على التلاؤم بين كلماتها بعد استيفاء تلك الكلمات حقها من الفصاحة على ما هو مقرر في علم البيان . وتبين لك وجه حسن الانشاء من اين يتاتي وهان عليك ان تعرف سبب ضعفه وقوته وصحته وفساده . ولكن يبقى عليك ان تعرف موضع الحسن والقبح منه وتعين محل الصحة والفساد فيه وما يتلاءم وما يتنافر من الكلمات . وهي غاية بعيدة المنال صعبة المسلك موكولة الى الذوق . واحسن وسيلة لاقتباس هذه المعرفة دراسة اسفار الكتبة المجيدين ومطالعة انفاس البلغاء والاقتداء بهم والتحدي لهم على ما سياتي ذكره

فاذا وضع الكاتب نفسه من الكتابة موضع المصور من التصوير علم ان اول ما ينبغي له ان يراعيه في كلامه انما هو حسن اختيار المفردات على ما رسمه علماء البيان بان تكون سلسةً على السمع سهلة على اللسان مستوفية احكامها اللغوية والنحوية والبيانية وغيرها . وان لا ينحو نحو الكلم المهجورة الغريبة الا اذا اضطر الى ذلك للافتقار اليها ويترتب عليه حينئذٍ ان يضعها موضعًا لا يشكل جولها فيه بالمعنى ولا يقف دونه . وذلك يتم بان تشفع بمرادف لها او تنصب قرينة في العبارة تدل عليها وتكون كالمفسرة لها . وهو استعمال يتخيره بعض الكتبة يقصد به ادراج كلمة ضمن الكلام المستعمل للاحتياج اليها او لحسن وقعها فيشفعها بما ذكرنا من الدلائل على معناها فلا يحتاج قارئها الى التفتيش عنها لتفسيرها فيستفيدها في اثناء العبارة غنيمة

باردة ويكون في المقالة المدرجة تلك الكلمات فيها فائدة اخرى لغوية غير المقصود من المقالة وردت عفواً في عرض الكلام · وهي طريقة حسنة في الكتابة ووسيلة قوية لنقل مفردات اللغة المفتقر اليها من بطون الصحف الى رؤوس الاقلام واطراف الالسنة توسيعاً لنطاق اللغة المستعملة عند الكتاب وتحسيناً للكلام وتزييناً له بما في تلك الالفاظ من الطلاوة التي اقلها طلاوة الجديد وترفعاً عن الرطانة بالكلم الاعجمية لمعانٍ ومسميات حديثة او قديمة يظن ان اللغة قد خلت عن الفاظٍ لها وهي مشحونة بها

كالبحر يقذف بالرِّمال وانما أبقى اللآلئ ضمنه للغائصِ

ومتى اعد الكاتب لديه من المفردات ما يعده الباني من الحجارة المنتقاة للبناء مما استوفى هذه الشرائط اخذ في الجمع بين تلك المفردات والملاءمة لها بحيث لا يقع بينها ما يقع بين حروف في الكلمة من التنافر او غيره مما مرَّ لان منزلة الكلمات من العبارة منزلة الحروف من الكلمة فلا بد ان يراعى هنا ما يراعى هناك

ومتى انتهى الى العبارات عمد لها فتدبرها تدبر المفردات بأن ميز بين ضعيفها وقويها ومبتذلها وغريبها فلم يتخير الوجوه المرجوحة من التراكيب ولا الضعيفة من الاساليب · وتجنب اعادة الكلمة المفردة بعينها في العبارة المتجاورة الا لنكتة كالتاكيد وتكرار صورة واحدة من التعبير في اثناء الكلام على ما مرّ · فلا بد له حينئذٍ من حفظ كثير من مترادفات التعبيرات ومتشابهات الصور مع تغاير اللفظ والتركيب نظير حفظه من المفردات ولكي يستخدمها فضلاً عن ذلك فيما تقتضيه بعض مقاماته عند الاطناب والاسهاب وتعزيز الكلام وتقويته

ومن الاحكام اللفظية ان يعتمد الكاتب السهولة في التعبير ولا يميل فيه الى جهة الاغراب والتعقيد اعتقاداً انه انما يترفع بنفسه عن اتباع الوجوه المألوفة والاساليب المتعارفة ارادة ان يبتدع طرزاً من الكلام يحدثها لنفسه لان السهولة مع الاجادة خير من الاغراب وبينه وبين الاحسان مراحل · وافضل طريقة لتسهيل العبارات واسلوب الكلام ان يتصور الكاتب نفسه يتحدث بما يريد ان يكتبه ويتبع نسق حديثه الطبيعي واسلوبه لا يحيد عنه الا عند ما تدعو الى ذلك اداب اللغة الفصحى فقط · فيأتي الكلام حينئذٍ طبيعياً مالوفاً لا تمجه الاسماع ولا تنفر منه الطباع · وهذا الامر شديد الاهمية كثير الوقوع فانا كثيراً ما نقرأ لبعض الكتبة قصة او

حديثاً نكون قد سمعناه منه يتحدث به فتنبى لو كتبه كما نطق به ولو كان باللغة العامة طمعاً في حسن اسلوبه وطلاوته وفراراً من التعقيد والتشويش حتى يحول ذلك بعض الاحيان دون فهم المعنى

ولا بد للكاتب قبل بري قلمه والاقة دواته من ان يترشح للكتابة زمناً طويلاً يصرفه في مطالعة كتب المنشئين البلغاء كالجاحظ وابن المقفع والبديع والخوارزمي وابن خلدون وغيرهم ويكثر من هذه المطالعات وامثالها حتى تنطبع فيه ملكتهم ويقوى على تحذيهم ومحاكاتهم فيتعمد حفظ اساليبهم في ضروب التعبير ارادة ان يستخدم نسق عباراتهم فيما لديه من الكلام لا ان يستخدمها هي بعينها كما يتوهم البعض . ولا يحسب ان في ذلك وضعاً منه او حطاً لمقامه فان الكاتب مهما ارتفعت منزلته من البلاغة واتسع صدره في مجال الكلام ليعجز عن اختلاق التراكيب الجديدة واستنباط الاساليب المبتكرة آتياً بغير ما اتى به الاولون من ارباب الاقلام الذين تناهبوا البلاغة وضربوا بها والبراعة وطرقها فلم يغادروا ثمَّ من متردَّم . ولا يعد اتباعهم في هذا والائتمام بهم سرقة والاَّ كان اكثر الكتبة لصوصاً خطافين . لان الكلام كاللباس للمعاني والصور مهما كثرت لا تزال قليلة بازآء المعاني . ولا بد للكاتب ايضاً من حفظ الكثير من الشعر ولا سيما ما يجري منه مجرى المثل وما يحتاج اليه في مواطن الكلام فان لذلك منافع جمة للكاتب من تزيين كلامه وتقويته حتى لقد يبقى الكلام ناقصاً ضعيفاً مهما اجتهدت في اتمامه وتقويته حتى تشفعه ببيت من الشعر يجمل به مفصله ويفصل مجمله او يضرب مثلاً عليه او شاهداً له ونحو ذلك . ومن الكتاب من كان اذا بلغ من الكلام الى حيث يحتاج فيه الى ايراد شيء من الشعر على سبيل الاستشهاد او غيره مما مرَّ ولم يجد في محفوظه ما يناسب المقام ينظم له من عنده ما يتمثل به مخرجاً اياه اخراج كلام مقول . ولذلك فائدة اخرى وهي ما يسمى عندهم بحل المنظوم وهو ان يعتمد الكاتب الى البيت من الشعر فيحله الى نثر ويدمجه في كلامه تفنناً في الكلام وتزييناً له وهي طريقة كثيرٍ من كبراء فحول الكتاب كابن زيدون والبديع وغيرهما

وبقي امرٌ ينظر فيه الى الكلام على العموم وهو ان يكون طباق قولهم لكل مقام مقال فمن المعلوم ان الكلام طبقات بعضها فوق بعض فينبغي ان يخاطب كلٌّ بالطبقة التي تليق به وان يختار لكل معنى من الكلام طبقة كذلك . ففي خوطب

العلماء من اهل العربية والمتأنقون من ارباب الترسل وفحول الانشاء وجب ان يختار في خطابهم الكلام الجزل والاساليب البليغة واللفظ المنمق بالاستعارات والكنايات وسائر فنون المجاز . وكذلك اذا كان الكلام في معنى شريف يقصد فيه المبالغة والتزيين كالمدح والتأبين ووصف العظمة والابهة والنصر وغير ذلك مما يذهب فيه مذهب الشعر . ومن هذا القبيل الخطب التي تصدر بها بعض التصانيف الانيقة وانشاء المقامات واشباهها . ومتى خوطب عامة الناس والاميون منهم خاصة وجب ان تختار الالفاظ المأنوسة والاساليب السهلة والتراكيب المشهورة وذلك كما في المواعظ والخطب العمومية والاخبار السياسية واشباهها ولا بد في مثل هذا من اجتناب الايجاز والتعقيد والتزام الحقيقة دون المجاز والاستعارة الا في ما اشتهر امره وصار بديهي الفهم واذا لم يمكن الافهام الا باللفظ المبتذل فهو خير في مثل هذه الحال من الفصيح والا فالفصيح اولى

ومما يلحق بذلك ان يطابق المكاتب بين المعاني والالفاظ من حيث الاطناب والايجاز والحقيقة والمجاز ويتخير الالفاظ الرقيقة والجزلة فيعطي لكل معنى ما يصلح له من ذلك على ما نص عليه علماء البيان وجرت عليه فحول الكلام الى غير ذلك مما لا تحيط به قاعدة ولا يقع تحت قانون لتشعب مسالكه وتفاوت وجوهه ومرجعه اخيرًا الى الذوق السليم وهو الحاكم في اكثر القضايا والله اعلم

الخطابة

وهو الخطاب الذي القاه عزتلو ابرهيم بك الاسود مساء الثلاثا في ٢٤ نيسان سنة ١٨٩٤ في منتدى مدرسة البنات الاميركية في بيروت اجابة لطلب عمدة المدرسة

قال بعد المقدمة :

الخطابة في اللغة مصدر خطب وعند المنطيقيين والحكماء هي القياس المؤلف من المظنونات التي يحكم بها حكمًا راجحًا اتباعًا لغالب الظن مع تجويز بطلانه . او من المقبولات وهي الآراء التي يوقع التصديق الجازم صدورها عمن لا شبهة في صدقه مع كونها قابلة الانكار بنفسها ويسمى قياسًا خطابيًا والغرض منه ترغيب الناس فيما

ينفعهم . وقد جعل احد المتقدمين رأس الخطابة الطبع وعمودها الدراية وحليها الاعراب وبهاءها تحبير اللفظ

اما اركانها فاهمها الافكار والاساليب وهي كما لا يخفى كالكتابة وصحف الاخبار اذ تفيد السامعين علم ما جهله بعضهم وتزيل شك ما علمه البعض الآخر بما يقوم بها من الادلة الساطعة . وترشدنا البديهة الى ان المرء مهما اتسع نطاق معارفه وتسامت مداركه وتعالت قواه العقلية لا يستطيع ان يحيط بكل الامور علماً بل يظلّ مفتقراً الى من يرشده الى بعض الحقائق . ولم تقتصر فوائدها على ما مر بسطه بل انها تفيد ايضاً ما هي السياسة والعلوم والفنون والتجارة والزراعة والصناعة وتبسط تاريخ المتقدمين وسير مشاهير الرجال وما اتوا من الاعمال الجليلة ولكنها تمتاز عنهما بكونها تتناول حاستي النظر والسمع وهما تقتصران على الحاسة الاولى منهما ولهذا تكون اشد تقريراً للمعاني في الافهام لدخولها فيها من بابين واسرع تنبيهاً للخواطر لان السامع مهما كان خاملاً لا بد ان يقع صوت الخطيب منه موقع التاثير و يفعل اللسان ما لا يفعل السنان . وهي على اختلاف اساليب الخطباء وتفاوت درجات معارفهم وافكارهم تعود الى غاية واحدة كالعزف بآلات الطرب التي لا تخرج عن مقصد واحد على اختلاف نغماتها وتفاوت درجاتها

اما غايتها فهي اطلاق عنان المتروضين وكبح شكيمة الجامحين وتقويم ما تأوّد من الصفات وخضد ما نفذ من الاشواك . ولهذا قد امتدت بواسق مجدها وارتفع شأنها واحلها ذوو الفضل منهم محلاً مذكوراً فاتخذوها في المعابد مشكاةً للهداية ومصباحاً للفضيلة وفي المدارس سراجاً ينير الالباب ومروّضاً للاخلاق وفي الهيئات الاجتماعية مهمازاً لذوي الاظافر الخادشة ومحرّكاً للجد وراء ما يرفع شأن الوطنية و يعلي كلمة الانسانية الى غير ذلك من الغايات السامية . ولو لم تكن اكثر تأثيراً في الاذهان واثبت للخواطر من اقرب الطرق بما يتصل اليه الخطيب من حسن التعبير والاسلوب الصحيح لاكتفوا عنها بما وعته صدور الاوراق وكفوا الخطباء مؤنة المشاق العظيمة . لانه مهما كان الخطيب جسوراً ومدججاً باسلحة الخطابة العلمية والعقلية والنقلية لا بد ان تحف به صعوبات خارج دفعها عن حد امكانه . فما من خطيب سوى النزر اليسير يقوى على دفع الاضطراب الذي يستولي عليه عند نهوضه للخطابة حيث يكون بتمثله لدى الالوف المؤلفة من الناس السائد بينهم المدوّ

والسكينة عرضةً يتهددها من المخاوف خشية التقصير والسقوط وجمود القريحة وهدفاً لاسهم انتقادات سامعيه الذين يتعذر عليه ان يرضيهم جميعاً لما هنالك من تباين الافكار والغايات

وهنا يليق بنا ان نلقي على مسامعكم ايها الذوات الكرام الاسئلة الآتية وهي

ما هو الباعث ياترى على هذه الصعوبات

ولماذا لا يكون مركز الخطيب امام المئة مثلاً مركزه امام الواحد ومقامه لدى لفيف الاصدقاء مقامه لدى سواهم

ولماذا يروعه اجتماعه بلفيف لا يروعه الاجتماع بكل واحد منهم على حدة

ولماذا يتلعثم بعض الخطباء بالخطابة وهم ممن يجرون ذيل الفصاحة على سحبان وائل

ولماذا يستطيع البعض ان يستفيضوا بالاحاديث الطويلة العريضة وهم جالسون و يفقدون هذه المزية اذا انتصبوا على اقدامهم

ولماذا يؤثر بعض الخطباء الانحناء في اثناء الخطابة على الوقوف عمودياً

فكأني بكم تجيبون ما من احد يعلم سبباً لهذه الصفات غير ذويها لاختبارهم انفسهم

قيل ان احد الخطباء خانته الذاكرة بعد انتصابه في منبر الخطابة فجلس قليلاً ثم نهض قائلاً اقسم بالسماء ان امرَّ عذاب أُريد الحاقه بالد اعدائي هو وقوفه حيث انا واقف الان

وحكي ان طبيباً بعد ان خطب في المعرّقات وفوائدها و بين انواعها بحسب تعريف الكتب الطبية قال وقد فات المؤلفين الافاضل ان يجعلوا من جملتها بل اهمها الوقوف بمثل هذا الموقف الرهيب (وهذا العلاج لا تستفيد منه الصيدليات شيئاً) وكلاهما قد قال حقاً ونطق صدقاً لصعوبة مسالك الخطابة على ما ذكر

اما الشروط التي لا يتم عقد انتظام الخطابة الا بالتزامها فبعضها تتعلق بسامعيها والبعض الاخر بالخطيب نفسه

فالشروط المتعلقة بالسامعين هي ان لا ينظروا الى من يقول بل الى ما يقال وان يعيروا الخطيب جانب الاصغاء كي لا تتشوش افكاره · وتبقى جداولها صافية وان لا يبخسوا الخطيب حقوقه اذا حل قوله محل الحقيقة والقبول

والشروط المتعلقة بالخطيب هي ان يكون قوي التصور والذاكرة رابط الجأش

فصيح اللهجة واضح الصوت ملآنه (لانه اهم سلاح له) قادراً ان يكفيه بحسب كل عاطفة وفكر لتدل درجاته على كل غاية يضطر الى الدلالة عليها ملتمساً لكل مقام مقالاً لا ينطق عن هوى ولا يلتوي مع الغاية بعيداً عن القول الهراء صادعاً بما يامره الحق ضاماً شتات المعاني بفقرات مستحكمة العرى ومفرغة بقالب من الحكمة يجعلها حرية بالقبول سارداً المواد بترتيب قويم كاشفاً حجاب الفهم برائق لفظه وشائق ابتكاراته مثبتاً المعاني المقصودة بما تهيء له الحقيقة من الادلة الواضحة بالفاظ ينزل تلك المعاني منها منزلة العرف الطيب من نضير الازهار منادياً بديمومة الاتحاد الذي ينشأ عنه العمران شأن الوطني الحر ناطقاً بالشكر ولكن لمستحقيه بما تجمع عليه الاراء من السجايا الحسنة والمناقب الجليلة التي يرتاح للثناء عليها كل حازم حاذق لان السمع ينبو من وضع الشيء في غير محله متجنباً الاسهاب الممل والتسجيع الذي يقع على المسامع احياناً ضيفاً ثقيلاً غير متخذ منبر الخطابة مقاماً يتصدر فيه ليعلن ان صدره مستودع العلوم والفنون وانه واقف موقف بديع الزمان (لان مادح نفسه يقريك السلام) وان لا يجعل الخطابة اسمى من الاذهان ولا يلتزم الكلمات اللغوية التي تضطر اكثر سامعيها ان يتأبطوا معجمات اللغة لحل رموزها . لانه ليس القصد بالخطابة ارسال اصوات تلج ابواب الاذان ولوج تصدية الاكف بل القصد بسط معانٍ تحرك الاكف للتصدية استحساناً وبالجملة لا يعد الخطيب خطيباً الا اذا تطاولت اليه اعناق سامعيه وشخصت فيه ابصارهم واستطاع الاستيلاء على افكارهم والحكم على عواطفهم

قال احد الحكماء اذا اردت الخطابة فاياك والتوعر فانه يقودك الى التعقيد الذي يشين المعاني ويستهلك الالفاظ وان اردت اذاعة معنى كريم فالتمس له لفظاً كريماً وان امكنك ان تبلغ من بيان لسانك العامة معنى الخاصة بالالفاظ المتوسطة فانت البليغ ولا تجعل كلامك كله مبنياً على السجع فتظهر عليه الكلفة وتلتزم لارتكاب المعنى الساقط والكلمات القلقة في مكانها فقد كان الاقدمون لا يقصدون الا ما اتت به الفصاحة في اثناء الكلام واتفق من غير قصد

علوم العرب

« للشيخ ناصيف اليازجي »

لا يخفى ان العرب كانوا قوماً اميين لا يعرفون القرآءة ولا الكتابة الا قليل منهم. ولم تكن عندهم علوم الا قليلاً في النجوم والطب عملاً بالاستقراء والتجربة. غير انهم كانوا في اعلى طبقةٍ من نباهة الفكر وفصاحة اللسان وسرعة الخاطر حتى كانوا ينظمون الشعر ارتجالاً فياتون فيه بما لا يقدر عليه غيرهم بعد التروية والاستعداد. وهو امرٌ عظيمٌ لا يعرف مقداره الا من كلف نفسه الهجوم عليه. ولم يكن لهؤلاء القوم اعمال يشتغلون بها فكانوا يصرفون همتهم الى تهذيب لغتهم والتفنن فيها حتى ذهبوا في ذلك كل مذهب. وساعدهم على التصرف فيها ما عندهم من الحذاقة فكانوا يجعلون لكل حكم من احكامها وجهاً سديداً يحكم العقل بصحته. فكانت باعتبار الفاظها منقولة وباعتبار احكامها معقولة. وما زالوا كذلك حتى ظهر الاسلام ودخلت فيه شعوب من الاعاجم فاختلطت اللغات وخيف الفساد على العربية فجعل لها روابط وضوابط تحفظها على اصلها عند ما يقف عليهنَّ. فمن ذلك ما تعرف به مباني الفاظها بحسب الوضع وهو علم متن اللغة ولعل واضعه احمد بن المستنير الملقب بقطرب. ومنه ما تعرف به احكام ابنية الالفاظ المتداولة في المعاني المختلفة وهو علم الصرف وواضعه معاذ الهرَّاء فيما قيل. ومنه ما يعرف به تركيب الالفاظ الدال على اصل المعنى المراد وهو علم النحو وقيل واضعه علي بن ابي طالب وقيل ابو الاسود الدؤلي. ونسبه بعضهم الى حماد بن سلمة. وهو اجلُّ علوم هذه اللغة لاشتماله على الاعراب الذي هو دليل القاري ومصباح الساري وعليه مدار المعاني واختلاف المباني كما في نحو لا تاكل السمك وتشرب اللبن. فان رفع تشرب يدل على النهي عن الاول واباحة الثاني ونصبه يدل على النهي عن الجمع بينهما دون انفراد كل منهما على حدته وجزمه يدل على النهي عنهما جميعاً. والواو على الرفع للاستئناف وعلى النصب للصرف وعلى الجزم للعطف. فقد تلاعب الاعراب بالمعاني والالفاظ جميعاً كما تلاعب في قولهم ما احسن زيداً. فان النصب يدل على التعجب من حسن زيد والرفع على نفي الاحسان عنه والخفض على الاستفهام عن احسن ما فيه. فتكون ما على الاول تعجبية واحسن فعلاً جامداً وعلى الثاني نافية واحسن فعلاً متصرفاً وعلى الثالث استفهامية واحسنُ

اسم تفضيل ولو اردنا الاتساع في ذلك لاوردنا كثيرًا من الصور المختلفة ولعل هذا لا يوجد في غير هذه اللغة · ومن علوم العربية ما تعرف به مطابقة الفاظها للمعاني المقصودة بها في التركيب وهو علم المعاني وما يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة وهو علم البيان · وواضعهما الشيخ عبد القاهر الجرجاني · ومنها ما تعرف به وجوه تحسين الكلام وهو علم البديع · وواضعه عبدالله بن المعتز · ومنها ما تعرف به احكام موازين الشعر وهو علم العروض · وما تعرف به احكام الاجزاء الملتزمة في اواخر الابيات وهو علم القوافي · وواضعهما الخليل بن احمد · ويتصل بذلك فنون شتى كعلم الاشتقاق واصول النحو وقرض الشعر وانشاء النثر والفصاحة والمحاضرة والخط ومقاطع الحروف والاحكام المتعلقة بها مما يطول بيانه حتى يكون من لم يدرك منها غير المتعارف بين العامة كمن اصاب سقطًا قد ضربته الريح الى خارج البستان وفاته ما في داخله من الثمار الصالحة الكثيرة المختلفة الانواع · ثم اتسعوا في العلوم الشايعة فتداولوا علم المنطق وكان اسبقهم اليه الشيخ الرئيس الحسن بن عبدالله بن سينا البخاري وهو الذي استوفى حق الصناعة الطبية غير انه كان قد سبقه الى شيء من ذلك الشيخ محمد بن زكريا الرازي · وكثيرًا ما تشتمل مؤلفاتهم على فنون من هذه الصناعة كالبيطرة وهي طب الخيل والزردقة وهي طب الطيور · وقد يتعرضون لشيء من البزردة وهي صناعة الغرس واوقاته والفلاحة وهي صناعة الاغراس ومغارسها وكان كثيرٌ من الاطباء المحققين يضمون الى علم الطب علم الطبيعيات لعلاقة بينهما في الاحكام المزاجية وغيرها وعلم النجوم لتاثير الاجرام العلوية في الابدان وعلم الموسيقى لمعاضدته في احكام النبض · ولهم في ذلك مؤلفات لا تحصى · ومما افرغوا كنانة الجهد فيه علم الفقه وهو ثلاثة اطراف · اولها العبادات وهي ما حق لله على الناس والثاني البيوع وهي ما حق للناس على الناس في المعاملات · والثالث الفرايض وهي ما حق للاحياء من الاموات · ومن علومهم ايضًا علم الحساب وهو لازم للفقيه المحقق لاستخراج السهام المجهولة وقسمة السهام المعلومة ويتصل به علم الهندسة والمساحة · ومن علومهم علم الالهيات وعلم الاداب وعلم الانساب والتواريخ · وبين ذلك فنون قد تعللوا بها كالكهانة والفراسة وضرب الرمل وزجر الطير وقيافة الاثر ونحو ذلك · وكان الملوك ومن يليهم في الايام القديمة يعرفون كثيرًا من العلوم ويتمكنون منها حتى كان منهم من يخطيء العلماء في بعض المسائل · ولذلك كانوا يعتنون بشان العلم

والعلماء ويعرفون حقهم. وكانوا يقيمون مدارس في علوم شتى حيثما وجدوا لها موضعاً. ويغمرون المشايخ والطلبة بالعطايا والاحسان. فكان الناس يدخلون فيها افواجاً وينعكفون على تحصيل ما يستطيعون من العلوم حتى اذا استتمَّ الرجل علمه خرج الى منصب او وظيفة عند السلطان متمتعاً ببسطة الجاه والمال ومستغنياً عن جميع المهمات والاعمال. فيتفرغ للتوسع في العلوم وانشاء المصنفات فيها وبذلك يكون مثالاً لغيره في طلب العلم والتجرد له. وما زال ذلك كذلك حتى سقطت رغبة الملوك في العلم فانقطعت اسباب الطلب وتعطل السعي في تحصيله ودثرت مصنفاته وافنى الدهر اهله حتى فقد كثيرٌ من هذه العلوم فلم يعرف لها عين ولا اثر وجرت بقيتها على آثاره لولا ان يتداركها الله بهذه الدولة المجيدة السعيدة التي احيت ما مات من آداب الاولين والحمد لله رب العالمين

انتهى

خطبة

في اداب العرب

«للمعلم بطرس البستاني»

ايها السادة

الموضوع آداب العرب وان شئتم فقولوا علوم العرب او فنون العرب او معارف العرب. ولكن قبل الشروع في الكلام على هذا الموضوع الذي ينبغي ان يكون لذيذاً ومفيداً لكل من له رغبة في الوقوف مدققاً على حقائق الامور يلزمنا ان نذكر بعض قضايا نظير مقدمات له وذلك على وجه الاختصار فنقول

اولاً ان العلوم من شأنها النمو بالتدريج كالحيوان والنبات. ومع ان هذا النمو قد يكون جزئياً في عقلٍ واحد لا بد من اجتماع عقول كثيرة للحصول على المطلوب على احسن منوال بحيث تكون نتائج بحث وجهاد العقل الواحد في امر ما ميسورة الحصول لعقل آخر او اكثر. وهذا الاجتماع لا يتيسر الحصول عليه من دون اجتماع القبائل والشعوب وامتزاجهم معاً بحيث لا يفوت قوماً فوائد قوم آخرين وكذلك من شأن العلوم ان لا تورث خلافاً للاملاك والنقود بل انما تستلزم اجتهاداً شخصياً. وهي كالضيوف لا تثبت الا عند من قام بحق ضيافتها

ثانياً ان العقل البشري انما يحصل العلوم بواسطة الحواس على سبيل التعلم والاستقراء ومن شأنه ان لا يسع اموراً متضادة في وقت واحد . ومن ثم كان لا يمكن اجتماع العلم والرذيلة معاً . وبما ان العقل لا يجدّ في تحصيل شيء الا لغاية ولا يحتمل مشقة الا اذا كانت لذة ما يطلبه اقوى منها قلما تطلب العلوم لذاتها . والعقل قد يكون في حالة السبات او الانتباه من هذا القبيل . ولا يخفى ان المناخ والعادات الخصوصية لها تاثير شديد في العقل من هذا القبيل وانه يوجد تفاوت في العقول من جهة الاستعداد للعلوم بين قوم وقوم كما يوجد بين الافراد . وما اشد تاثير الميل والحكم السابق في العقل من جهة تحصيل العلوم ومعرفة الحقائق

ثالثاً لا بد للعقل من وسايط اسعافية خارجة عنه لاكتساب العلوم فمن اعظم هذه الوسايط الانتقال والسياحة من مكان الى مكان ومطالعة الكتب ووجود الآلات التي لا يمكن الحواس التوصل الى المطلوب بدونها والاسباب المحركة التي تنبه العقل وترغبه في ذلك والمثال والحماسة المنغرسة طبعاً في الانسان . ولا يخفى ان حرية الفكر هي من اكبر المطلوبات لادراك الحقائق وتحصيل العلوم لان الفكر المستعبد لا يمكن ان يكون فيه استعداد كما يجب للعلوم . وبما ان الخطب تحسب وقد وجدت في البلدان المتمدنة من اكبر الوسايط واحسنها لنشر المعارف بين العموم قد تحرك البعض من الذوات المعتبرين من سكان هذه البلدة من افرنج وابناء عرب الى الانتظام في عمدة تعرف بعمدة الخطابات لاجل تمكين الطلبة الراغبين من الحصول على هذه الواسطة . وباستدعاء وطلب هذه العمدة قد وقفت الآن امام سيادتكم لاجل صرف حصة من الوقت في البحث عن الموضوع المتقدم ذكره وهو اداب العرب فاقول

اننا كثيراً ما نسمع ابناء العرب يتباهون متفاخرين بكون اجدادهم الاقدمين هم الذين انعموا على العالم بالعلوم والفنون مع ان الاكثرين منهم لم يتيسر لهم الوقوف على الحقيقة . ونحن شديدوا الاعتقاد بصحة قول بعض الافاضل

لا تقل اصلي وفصلي ابداً   انما اصل الفتى ما قد حصل

وبان وصول اجدادنا الى اعلى طبقة من العلوم لا يجعلنا علماء ولا يوجب لنا حق الافتخار اذا لم نكن نحن انفسنا كذلك . فقد رأينا ان نذكر بعض قضايا تاريخية من هذا القبيل يتبين منها مقدار جهاد المتقدمين ودرجة فضلهم في هذا الامر ويستعين بها المتأخرون من ابناء هذا الزمان على الوقوف على الحقيقة وعسى ان تكون وسيلة لحثهم

وترغيبهم في اقتفاء آثار اسلافهم . وقد قسمنا خطابنا هذا الى ثلاثة اقسام:

القسم الاول في حالة العلوم بين العرب قبل ظهور الاسلام

ان العرب قبل ظهور الاسلام اي في ايام الجاهلية كانوا قوماً امين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة الا القليل منهم . والعلوم التي كانوا يتفاخرون بها فهي علم لسانهم واحكام لغتهم ونظم الاشعار وتاليف الخطب وكان لهم مع هذا معرفة باوقات مطالع النجوم ومغاربها وعلم بانواء الكواكب وامطارها على حسب ما ادركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم الى معرفة ذلك في اسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقايق . ومع ان الله لم يمنحهم شيئاً من علم الفلسفة ولا هيأ طبايعهم للعناية به كانوا في اعلى طبقة من نباهة الفكر وفصاحة اللسان وسرعة الخاطر حتى انهم كانوا ياتون ارتجالاً بما لا يقدر عليه غيرهم بعد التروية والاستعداد . والذي ساعدهم على ذلك شدة محبتهم للغزو والغارات والمفاخرة في الكلام نظماً ونثراً مع حسن البلاد التي قطنوها . وقد كانوا اذ ذاك اهل مدر وهم سكان المدن والقرى وكانوا يحاولون المعيشة من الزرع والنخيل والماشية والضرب في الارض للتجارة واهل وبر وهم سكان الصحارى وكانوا يعيشون من البان الابل ولحومها منتجعين لمنابت الكلأ مرتادين لمواقع القطر فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وامكنهم الرعي ثم يتوجهون من هناك في طلب العشب وابتغاء المياه فلا يزالون في حل وترحال كما قال بعضهم عن ناقته

تقول اذا ذرأت لها وضيني   اهذا دينه ابداً وديني
أكلَّ الدهر حلٌّ وارتحالٌ   اما يبقي عليَّ ولا يقيني

وكان ذلك دأبهم زمان الصيف والربيع فاذا جاء الشتاء واقشعرَّت الارض انكمشوا الى ارياف العراق واطراف الشام فشتوا هناك مقاسين جهد الزمان ومصطبرين على بؤس العيش

قيل وكان العرب في تلك الايام يجتمعون في كل سنة في سوقي مكة وعكاظ يقيمون هناك شهراً وقيل عشرين يوماً يتبايعون ويتناشدون الاشعار ويتفاخرون فيها . وكانوا اذا انتهوا من ذلك يكتبون اشعار الفيئة الظافرة باحرف ذهبية على نسيج من الحرير المصري ويعلقون ذلك على الحجر الاسود في الكعبة . ومن ثم سميت تلك الاشعار بالمذهبات والمعلقات . ومما وصل الينا من اشعارهم المعلقات

السبع المشهورة وهي اشهرها · ولم يزل ذلك دأب العرب حتى ظهر الاسلام في اوائل القرن السابع للمسيح فآمن قوم منهم وحدثت بين من آمن ومن لم يؤمن حروب ومنازعات كثيرة لا محل لذكرها هنا · والتاريخ لا يساعدنا كثيرًا على الوقوف جليًا على حقيقة حالهم من هذا القبيل لتقادم عهدهم وعدم اعتنائهم في هذا الفن اللطيف

القسم الثاني في حالة العلوم بين العرب بعد ظهور الاسلام

قال القاضي صاعد بن احمد الاندلسي ان العرب في صدر الاسلام لم تعتنِ بشيءٍ من العلوم الا بلغتها ومعرفة احكام شريعتها حاشا صناعة الطب فانها كانت موجودة عند افراد منهم غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طرًّا اليها · ولا يخفى ان اشتغال العرب في تلك الايام بالحروب وفتح الاقاليم والبلدان وشدة ميلهم الى الغزو والغارات وفرط عنايتهم في توسيع دايرة حكمهم الهتهم عن الالتفات الى امر الآداب والعلوم · قيل انه لما فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية سنة ٦٤٠ للمسيح في خلافة عمر بن الخطاب وذلك بعد محاصرتها مدة مستطيلة تقدم اليه يحيي الاسكندري اليعقوبيُّ المعروف بالنحوي وقال له يومًا بعد ملازمته اياه وتقربه اليه انك قد احطت بحواصل الاسكندرية وختمت على كل الاصناف الموجودة بها · فما لك به انتفاع لا اعارضك فيه وما لا انتفاع لك به فنحن اولى به · فقال له عمرو وما الذي تحتاج اليه قال كتب الحكمة التي في الخزائن الملوكية فقال له عمرو لا يمكنني ان امرَ بها الا بعد استئذان امير المؤمنين عمر ابن الخطاب وكتب عمرو الى عمر وعرَّفه قول يحيي فورد عليه كتاب عمر يقول فيه :

واما الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله غنىً عنه وان كان ما فيها يخالف كتاب الله فلا حاجة اليه فتقدم باعدامها · فلما وصله كتاب امير المؤمنين شرع في تفريقها على حمامات الاسكندرية لاحراقها في مواقدها فاستوقدت بها مدة طويلة · قيل وكان عدد كتبها اربعماية الف كتاب · قال احد المؤرخين عند روايته هذه القصة فاسمع ما جرى واعجب · واذا صح ان هذه الخزانة المسماة بتحف خانة سرابيون كانت تشتمل على كتب علوم الهند ومصر واليونان كان احراقها خسارة عظيمة لا يمكن تعويضها · ولا بد من ان العرب عندما استفاقوا من غفلة الجهل والغباوة بعد تلك الحادثة بقليل يكونون قد شاركوا بقية العالم في حاسات

الحزن والاسف على فقد هذه الخزنة المعتبرة التي بذل البطليموسية والقياصرة اموالاً جسيمة في جمعها . وذلك برهان على صحة ما ذكرناه من كلام القاضي المذكور من ان العرب في صدر الاسلام لم تعتنِ بشيءٍ من العلوم وانهم لم يكونوا يعتبرون شيئاً من الكتب الا القرآن . ولكن نفورهم من الامور العلمية كان يتناقص بالتدريج بقدر امتداد ديانتهم وملكهم . ولا ريب ان امتلاكهم للبلدان السعيدة التي كانت مُقرًّا للذوق والرونق القديم ولدت فيهم روح لطف وتمدن فكان تقدمهم في هذا الامر سريعاً وعجيباً كما كان في ميادين الحرب . ولما كان الجهل والتبربر مستولِيين بسطوة شديدة على كل قسم من البلدان الافرنجية وذلك بسبب الحروب الثائرة والمنازعات المتمكنة بين ملوكها ورعاياها بحيث لم يبقَ للعلوم والاداب سوق ولا محامٍ وجدت العلوم والفنون في مدارس العرب ملجاءً تستظل فيه مرتاعةً من غدر تلك الازمان وغباوة تلك الاجيال المظلمة . ومع ان آداب اليونان اقتضى لها اتعاب متوالية مدة ثمانماية سنة حتى وصلت الى ما وصلت اليه في ايام باركليس نرى ان رغبة العرب ونشاطهم في اكتساب العلوم ونجاحها كانا شديدين بهذا المقدار حتى انه لم يمضِ الا ماية سنة او اكثر قليلاً بين اعمق توحشهم وبربريتهم و بين امتداد العلوم وانتشارها في ممالكهم المتسعة . فان عمر بن الخطاب امر باحراق مكتبة الاسكندرية سنة ٦٤١ للمسيح وسنة ٧٥٠ ارتقى العباسيون المحامون عن العلوم الى تخت السلطنة . وذلك من اغرب واعجب الحوادث التاريخية حتى ان اوروبا نفسها صارت مديونة لمخالفي ديانتها وحريتها باثمن مثالاتها في العلوم والفنون

فهذه كانت حالة العرب في الدولة الاموية وفي ايام هولاءِ الخلفاءِ كانت حكمة اليونان قد احدثت شيئاً من التاثير في عقول العرب ولكن جيل العلوم العربية الذهبي لم يبتدىء في الشرق الا بعد قسمة المملكة الاسلامية وقيام بغداد . وذلك عندما تبوَّأ الخلفاء بنو العباس تخت السلطنة العربية سنة ٧٥٠ كما تقدم فحينئذٍ ثابت الهمم من غفلتها وهبت الفطن من ميتتها فكان اول من اعتنى منهم بالعلوم الخليفة الثاني ابو جعفر المنصور باني مدينة بغداد والمشهور بالفتوحات العظيمة وكان مع براعته في الفقه كفأً في علم الفلسفة وعلى الخصوص في علم النجوم . قيل وكان المنصور في اول امره ادركه ضعف في معدته وسوء استمراءٍ وقلة شهوة وكان كلما عالجه الاطباء ازداد مرضه فقيل له عن جورجيوس بن بختيشوع النيسابوري انه افضل الاطباء

فاستحضره الى بغداد فاخذ الطبيب المذكور يتلطف به ويعالجه حتى برئ من مرضه وفرح به فرحاً شديداً وكان قد احضر معه تلميذه عيسى بن شهلاتا واقام عند المنصور حتى مرض ولما اشتد مرضه طلب الانصراف الى بلده فقال له امير المؤمنين انني منذ رأيتك وجدت راحة من الامراض فقال انا اخلف بين يدي امير المؤمنين عيسى تلميذي فهو ماهر فامر له بعشرة آلاف دينار واذن له بالانصراف وامر باحضار عيسى بن شهلاتا فلما مثل بين يديه ساله عن اشياء فوجده ماهراً فاتخذه طبيباً . فصارت العرب بهذا الاتفاق مديونة لبختيشوع الطبيب اليوناني المذكور في دخول صناعة الطب الشريفة بينهم

وكان هرون الرشيد شهرة عظيمة في الرغبة والهمة والنشاط في احياء العلوم والاداب ونشرها في مملكته المتسعة . وكان هو نفسه ماهراً في الشعر والمسيقى ومغرماً بهذين الفنين المستظرفين . وقد كتب في ايامه تصانيف كثيرة في علوم المملكة الاسلامية وقد جمع في بلاطه جمعاً غفيراً من اكابر وفحول العلماء فكان اقرب الناس منه واحبهم اليه العلماء . فكان يحسن مثواهم ويجزل عطاءهم ويرفع منزلتهم . فاضحت العرب مديونين كثيراً له في امر تقدمهم السريع في الآداب لانه سنّ شريعة انه حيثما بني جامع في مملكته يبني بجانبه مدرسة للآداب . وكان كلما سافر الى مكان او قصد الحج يستصحب معه مائة من علماء زمانه . وكان يعتبر العلم اينما وجد والعلماء مهما كان مذهبهم . فلم يكن يزدري بمعرفة من يخالفه في امر المذهب فان رئيس مدارسه واول مدير للعلوم في المدارس العالية في مملكته كان رجلاً نصرانياً نسطورياً دمشقياً اسمه يوحنا بن ماسويه وقد اقتدى بمثاله هذا الذي يدل على جودة عقله وكرم اخلاقه خلفاؤه . وهكذا لم يمض الا قليل حتى امتدت الاداب التي كانت تعلم في العاصمة منتشرة الى اقصاء الخلافة

ولكن اوغسطوس الآداب العربية هو الخليفة عبدالله المأمون بن هرون الرشيد . فانه لما افضت الخلافة اليه تمم ما بدا به جده المنصور فاقبل على طلب العلم في مواضعه وكان منذ نعومة اظفاره مولعاً بالمطالعة والدرس وقد اتخذ في حيوة والده صحابة له من مشاهير علماء اليونان والعجم والكلدان ولما تبوأ تخت السلطنة لم تلهه مهماتها وعظمتها عن الاعتناء بالعلوم والقيام بحقها وحق اربابها . فكانت الشعراء والفلاسفة والمهندسون تتوارد اليه الى بغداد من كل بلاد وملة . وقد امر سفراءه

ونوابه في ارمينية وسوريا ومصر ان يجمعوا ما يمكن وجوده فيها من الكتب الاكثر اعتبارًا و يبعثوا بها اليه · فكانت ذخاير آداب الاقاليم التي تغلب عليها تجمع بكل اعتناء وتوضع امام عرشه كاعظم جزية وافخر التحف والهدايا عنده · فكنت ترى ميئات من الجمال داخلة بغداد حاملة كتبًا من اداب اليونانيين والعبرانيين والعجم · وقد داخل ملوك الروم وسالهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا اليه منها ما حضرهم فاستجاد لها مهرة التراجمة وكلفهم احكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما امكن ثم حرّض الناس على قرآتها ورغبهم في تعليمها وهكذا كان بلاطه ببغداد مؤلفًا من المعلمين والشرّاح والمترجمين فكانت بغداد مدرسة علمية كما كانت عاصمة مملكة · وكان يحلو بالحكماء ويانس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكراتهم علمًا منه بان اهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده وقد صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة وزهقوا في ما يرغب فيه اهل الصين والترك ومن نزع منزعهم من التنافس في دقة الصنائع العملية والتباهي باخلاق النفس الغضبية والتفاخر بالقوى الشهوانية اذ علموا ان البهايم تشاركهم فيها وتفضلهم في كثير منها · ولهذا السبب كان اهل العلم مصابيح الدجى وسادة البشر توحش الدنيا لفقدهم · قيل ان المأمون اذ كان يعلم بوجود خزاين متسعة من التصانيف العلمية في مكتبة القسطنطينية فلما عقد الصلح مع ميخائيل الثالث ملك الروم جعل احد شروط الصلح والمعاهدة ان الملك ميخائيل يبعث اليه مجموعًا من التصانيف المعتبرة النادرة الوجود الموجودة في المكتبة المذكورة وما صدق ان وصل ذلك اليه حتى امر احذق علماء بلاطه بترجمته الى لغته العربية المشرفة · قيل و بعد تتميم ترجمة تلك الكتب المعتبرة فبغيرة مفرطة على شرف لغته امر باحراق النسخ الاصلية · وفي ايام المأمون أنشئت مدارس كثيرة كلية في بغداد والبصرة واماكن اخرى وجمعت مكاتب شتى في مواضيع مختلفة · قيل ان المأمون عرض مبلغًا وافرًا على ملك الروم ووعده بالصلح الدايم والمصادقة اذا بعث اليه بليو الفيلسوف اليوناني الشهير

وهو من الخلفاء الذين حاموا عن العلم والعلماء وصرفوا الهمة في اكتساب الاداب واتقانها الواثق · وكان ماهرًا في فني الشعر والموسيقى وكان له ميل زائد الى التنجيم قيل انه لما اشتدّ مرضه احضر المنجمين فنظروا في مولده فقدروا له انه يعيش خمسين سنة مستانفة من ذلك اليوم الا انه لم يعش بعد قولهم الا عشرة ايام · واخر خليفة

التي اخر نور على ابناء بلاده هو المستنصر فانه زين بغداد بمدرسة عظيمة سماها بالمستنصرية قيل ولم يكن في الممالك الاسلامية نظير لتلك المدرسة في صورتها وآلاتها واتساعها وزخرفها وكثرة فقهائها واوقافها وقد رتب فيها جمعاً غفيراً من المدرسين والفقهاء وبنى لهم داخل المدرسة حماماً خاصاً ورتب للفقهاء طبيباً خاصاً يفتقدهم كل يوم واقام لهم من المشاهرات والخبز والطعام ما يكفيهم ويفضل عنهم

هذا وان كثيراً من الوزراء والنواب حذوا حذو ملوكهم في تقوية العلوم وامتدادها في الاماكن البعيدة عن العاصمة · فان مصر مثلاً بقيت اجيالاً كثيرة مزينة بالعلم والعلماء حتى كنت ترى فيها مدارس للعلوم في كل مدينة وبلدة وقرية قيل ان احمد بن طولون نايب مصر كان يوزع كل شهر على مشايخ بلاده الف دينار وكان يرسل الى بغداد لاجل التوزيع على علمائها وفقرائها نحو ٢٢٠٠٠٠ دينار · وكانت فوايد التعليم في هذه المدينة تمتد في اوقات مختلفة الى ستة الاف تلميذ من كل رتبة من ابن الشريف الى ابن الصناعي · وحسن مدارسها يظهر من كثرة عدد الشعراء والمؤرخين والاطباء والمنجمين الذين خرجوا منها · فقد كانت تنشأ مدارس صغيرة وكبيرة ومكاتب في كل بلدة · والبصرة والكوفة كادتا تساويان العاصمة نفسها في الشهرة نظراً الى عدد المعلمين المشهورين الذين خرجوا منهما وكثرة التصانيف المعتبرة التي الفها علماؤها · وكذلك دمشق وحلب وبلخ واصفهان وسمرقند كان بها كثير من المدارس والمكاتب المعتبرة وقد خرج منها جمع غفير من فحول العلماء المدققين الذين لا يسعنا الوقت لذكرهم · ولا ينبغي ان نغفل عن ذكر القيروان وفاس ومراكش من اعمال المغرب التي كانت مزينة بمدارس سامية ومكاتب معتبرة لاجل تعليم المغاربة الذين كانوا قديماً ولم يزالوا الى الان في اعلى طبقة من الحذق والنباهة وبواسطة مدارس المغاربة ومكاتبهم المشهورة قد حفظ للغيرة الافرنجية في القرون المتاخرة ذخاير ثمينة وكنوز فاخرة من العلوم والفنون

غير ان البلاد التي تلالأت فيها الاداب العربية باكثر لمعان واشراق وبقيت فيها مدة طويلة بعد ان درست في البلدان المشرقية هي بلاد اسبانيا · فان كردوفا وسيفيلي وغرناطه كانت تفاخر احداها الاخرى في عظمة مدارسها ومكاتبها · وقد كان في مدينة كردوفا وحدها نحو ماية وسبعين رجلاً من فحول العلماء من اهاليها · وكان فيها مكتبة عظيمة تحتوي على نحو اربعماية الف كتاب · وكان في حوزة المتوكل

الذي تسلم زمام الحكومة في الجيل الثاني عشر مكتبة معتبرة تحتوي على كتب نفيسة كان منها مائة وعشرون مؤلفاً في الالهيات والتاريخ والفلسفة ولم تزل نسخ منها محفوظة الى الان في مكاتب اوربا المعتبرة · وكان في مملكة الاندلس وحدها سبعون مكتبة وسبع عشرة مدرسة كلية

فمما تقدم بيانه يتضح لنا شدة حرص العرب في تلك الايام على اكتساب العلوم والاداب واجتهادهم في نموها وانتشارها · واذا حققنا النظر في ما وصل الينا من فضلات علومهم وآثار جهادهم نرى انهم وان كانوا قد اخذوا علوماً وفنوناً كثيرة من اليونان والعجم والكلدان بواسطة الترجمة والاقتباس لا يمكن ان نسلم بانهم انما كانوا متقلدين لا مخترعين كما يزعم بعضهم · لاننا نرى ان نفس العلوم التي سبقت الاشارة الى انهم ترجموها من لغات اجنبية قد اخترعوا فيها وزادوا عليها اموراً كثيرة جداً · فان فن الطب مثلاً الذي وجد قبل انتباه العرب الى العلوم باجيال كثيرة وينسب اختراعه الى ابقراط اليوناني وتوسيعه الى جالينوس كان لم يزل ناقصاً حتى كمله ابن سينا بعد ان كان الرازي قد جمع ابوابه المتفرقة في كتاب سماه بالحاوي · وصناعة الكيميا فانها كانت قبل العرب فناً قد سرت اليه الاوهام الفاسدة وداخلته الشعبذيات الكاسدة فاخذته العرب واخترعت فيه اموراً كثيرة حقيقية وادخلته في علم الطب مع انه كان قبل ايامهم من ابواب السحر يستخدم لاجل تحويل المعادن الى ذهب بواسطة حجر الفلاسفة الذي كان الاقدمون يظنون انه ذو خاصية لسحر الارواح الخبيثة وشفاء الامراض واطالة الحيوة الى ما شاء الله وهكذا القول في اكثر العلوم الاخر التي اخذتها العرب عن الاجانب · واما العلوم التي لا يشك في كونها من اختراعات العرب فهي كثيرة يحتاج الى وقت مستطيل لتعداد مفرداتها وتصانيفها · فاننا اذا امعنا النظر في العلوم المتعلقة باللغة العربية التي كانت قبل الاسلام لغة عديمة الضوابط والقوانين ومتفرقة على السنة قوم لم يكن لهم التفات الى العلوم والفنون ولا حظ في صناعة الحروف والتاليف نرى ان العرب قد صرفوا الهمة في ايجادها · فوضعوا لهذه اللغة العجمية ضوابط وقوانين لاجل صيانتها من الفساد ورتبوا لها كتب لغة مشهورة قد جمعوها عن السنة العرب لاجل حفظها وجعلوا لها فنوناً كثيرة مستظرفة كالمعاني والبيان والبديع والعروض وهلم جراً لاجل تهذيبها وتحسينها · وكذلك الاشعار التي وجد عند العرب منها اكثر مما وجد عند باقي شعوب العالم جميعاً لم تكن الا من نتائج اجتهادهم

وجودة قريحتهم . ومن الغريب انه مع وجود اشعار هوميروس وورجيلوس وغيرهما من شعراء اليونان واللاتينيين المشهورين لا يوجد في اشعار العرب شيء مقتبس منها . وقد الفوا كتباً شتى في علم الفلك والتاريخ ورسم الارض والفلسفة والادبيات والطبيعيات والحساب والجبر والمساحة والخطب والزراعة والنباتات والموسيقى والفقه وبين ذلك فنون قد تعالوا بها كالكهانة والعرافة وضرب الرمل وزجر الطير وقيافة الاثر والسحر والطوالع ونحو ذلك وقد كثرت في جميع ذلك تصانيفهم ومحاوراتهم كما يتضح لمن وقف على فهرست التآليف العربية التي بقيت مع مرور الايام وتقلب الازمان محفوظة لتكون دستوراً ومنحساً للمتاخرين . قيل انه يوجد في مكتبة باريز الملكية اكثر من مايتي مؤلف في صناعة النحو وحده . وممن كان فرد زمانه في فنه ابو بكر الصديق في النسب وابن ابي طالب في القضاء وابن كعب في القراءة وابن ثابت في الفرايض وابن عباس في التفسير ووهب في القصص وابن سيرين في التعبير وابو حنيفة في الفقه ومقاتل في التاويل والخليل في العروض والمتنبي في الشعر والاشعري في الكلام والحريري في المقامات والرازي في الطب وابن حنبل في السنة وابو مشعر في النجوم وابن نباتة في الخطب والقاضي الفاضل في الانشآء والاصمعي في النوادر وابن سينا في الفلسفة وابن جابر في الكيميا وابو الفدا في التاريخ والفارابي في الطبيعيات والادريسي في الجغرافيا والغزالي في الالهيات وغيرهم في غيرها . هذا ولا ينبغي ان ننسى اخوتنا الاعجام الذين تعلموا لغتنا العربية وزينوها بتصانيفهم المدققة ومع ان الافرنج قد اخذوا تلالاً لا بل جبالاً من الكتب العربية مما لم يبقَ له عين ولا اثر عند العرب نرى ان التصانيف التي ابقتها لنا صروف الايام هي وحدها كافية لان تبرهن لمن وقف عليها الامور الآتية وهي

اولاً جودة العقل العربي وحسن استعداده لتحصيل العلوم ولا سيما ثلثة انواع منها وهي العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية والعلوم اللغوية حتى انه لا يوجد في العالم قوم يقدرون ان يفوقوا العرب حتى لا نقول ان يدركوا طبقاتهم فيها

ثانياً ثبات العرب وتجلدهم في مقاساة المشقات والمصاعب المقترنة طبعاً بتحصيل العلوم وذلك لدى وجود الاسباب المحركة اليها . ويزيد ذلك وضوحاً اذا اعتبرنا قلة الوسايط وضعفها في تلك الايام . فان البخار والسيال الكهربائي كانا حينئذٍ غير خاضعين للانسان وكانت المطبعة التي تحسب من اكبر قوات العالم والنظارة المكبرة

التي قبلت كثيراً من مبادي الاولين من اساساتها لم تزل مستورةً تحت ظل الغوامض وكانوا مع فقد صناعة الطبع يلتزمون ان يوجدوا كل ما اوجدوه من هذا القبيل بواسطة راس قناة صغير الجرم ضعيف العزم . وكذلك قوة الانثى التي هي اكبر قوة في الدنيا كانت في تلك الاعصار محصورة في لجج بحار الجهل العميق والغباوة الشديدة وكثيراً ما كانت هذه القوة تستخدم لاجل الضرب على راس العلم في نعومة اظفاره . وعدم تحزب هذه القوة للعلم والعلماء كان من اكبر الاسباب لفقد العرب العلوم بهذا المقدار من السرعة

ثالثاً فضل العرب على العالم في هذا الامر وذلك من اوجه عديدة . منها انه فيما كانت العلوم والاداب في خطر الفقد والتلاشي بسبب الحروب والمنازعات والفتن الاهلية في العالم الغربي وجدت لنفسها في مدارس العرب ملجأً تأوي اليه فحافظ العرب على الحلقة المتوسطة من سلسلة العلوم التي تربط العلوم القديمة بالعلوم الجديدة ولولا وجود هذه الحلقة لكنت ترى خلاءً متسعاً بين العلوم القديمة والحديثة لم يكن سبيل الى ملئه . ومنها انه فيما كانت اوربا غايصة في لجج الجهل والغباوة في اجيالها المظلمة فتح العرب مدارسهم لقبول شبان الافرنج عندما استفاقوا من غفلتهم ووصلت العلوم تحت ظل وحماية العلم الاسلامي الى حدود بلادهم . وهناك ناولتهم الاسلام اليد اليسرى اضعاف ما كانوا قد تناولوه منهم منذ نحو خمسماية سنة باليد اليمنى . وهكذا شربت شبان فرنسا وايطاليا وجرمانيا وانكلترا في مدارس اسبانيا من ينابيع آداب العرب المتدفقة . وفي سالرنو ومنتبلر وقفت تلاميذ النصارى المتواردة الى هناك من جميع اقسام اوربا لاجل تعلم الطب على تصانيف ابقراط وجالينوس حتى ان اليهود واليونان لم يانفوا من تعلم صناعة الشفاء من العرب . ومن ذلك ان العرب هم الذين بواسطة قدوتهم وحسن صنايعهم نبهوا الافرنج في اجيالهم المظلمة من سباتهم الثقيل الى طلب العلوم والصنايع وذلك يسلم به الافرنج انفسهم ولا ينكرونه

رابعاً فضل اللغة العربية وطوعيتها في قبول العلوم من دون احتياج الى استخدام لغات اجنبية الا في ما ندر . وبما ان اللغة هي من اقوى الوسايط لوجود الاداب وانتشارها بين اهلها لا باس اذا توسعنا قليلاً في الكلام على اللغة العربية وما يتعلق بها على وجه الاستطراد فنقول

لا سبيل الى الشك بان اللغة العربية هي من اقدم لغات العالم واكملها واشرفها

ولولا الخوف من ان تطلب مني البينة لكنت ادعي لها بانها هي اللغة التي انزلت على قلب ابينا ادم في الفردوس الارضي · واقل ما ارغب ان ادعي لها به هو انها مع اختيها اللغة السريانية واللغة العبرانية اغصان متفرعة او فضلات باقية من تلك اللغة الآدمية المنزلة · والباين من تاريخ هذه اللغة ان الله قد حفظها بنوع عجيب لغايات لا تدرك من تقلبات الايام وصروف الدهر · ومع ان اصحاب هذه اللغة وصلوا الى احط درجة من الجهل والبربرية بقيت اللغة محفوظة عندهم بواسطة التقليد والنقل مصونة من من الفساد والتشعب الى لغات شتى بخلاف لغات اوربا · وبعد ان خضعت لسلطان القلم الاسلامي صار بذل العناية وصرف الهمة باختراع وسائط قوية لحفظها سالمةً صحيحة · واتساع قاموسها وغناها في الالفاظ والمعاني يجعلانها في الرتبة الاولى بين اللغات حية كانت او ميتة · وكثرة عدد المتكلمين بهذه اللغة وكون الاراضي والاقاليم والبلدان التي هي منتشرة فيها من اوسع واحسن ما يوجد لاي لغة كانت يجعلان مستقبلها اهم واعظم من باقي اللغات في العالم · واعتبار اهلها لها واحترامهم لقدميتها وفضلها صيراها غير قابلة للتغيير كعادات اهلها · ومع ما نراه من شدة ميل ابناء العرب ولا سيما في هذه الايام الى اللغات الاجنبية وعدم التفاتهم الى لغتهم الشريفة لا نخشى عليها من حوادث الدهر لان ذلك وقتي ناتج عن اسباب توجب زهدًا في اللغة العربية ورغبة في اللغات الافرنجية · وهذه الاسباب سلبية كانت ام ايجابية لا بد من زوالها وبذلك يزول ما تسبب عنها · وما دام القرآن من الجهة الواحدة والكتب العربية في فنون مختلفة من الجهة الاخرى مظللة على هذه اللغة يغلب الظن بانها تثبت غير منحصرة في دائرتها الحالية وهي الهند وجزيرة العرب وشمالي افريقية بل ستمتد شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالاً بين اقوام آخرين ممن يقرون لها بالفضل وان كانوا لا يستطيعون التكلم بها ومع اننا نرى العجم والتتر والافرنج من الجهة الواحدة آخذين في توسيع دائرة لغاتهم وادخالها بين العرب والمتفرنجين من الجهة الاخرى آخذين في افساد واماتة لغة امهم بواسطة ابدالهم كلماتها المانوسة بكلمات اجنبية نافرة لا تليق للغة العربية كما ان ملبوس اهلها لا يليق للعرب لا بد من قيام اناس من ابناء العرب الغيورين على لغتهم يسقون مقدارًا كافيًا من الافيون الكومسيون والسيكورته وسكوزي وافنده وما ضاهاها فيغمى عليها بحيث لا يبقى امل في صحوها ويضعون قنينة من روح النشادر امام انف العمالة والضمانة ولا تواخذني وياسيدي وهلمّ جرًا من الكلمات

العربية التي تدل على المعاني المدلول عليها بالالفاظ المذكورة فتستفيق من سباتها . وبهذه الوسيلة يزول الفساد الطاريء على اللغة العربية والذوق العربي من هذا القبيل . على انه كما ان الناس تحتاج الى الناس كذلك اللغات تحتاج الى غيرها ولكن يجب الاقتصار على ما لا وجود له في اصل تلك اللغة مما يزيدها قوةً وحسناً لا تنافراً وثقلاً

هذا ولا ينبغي ان نغفل عن تلك الكلمات النافرة الميتة الموجودة في قواميس اللغة العربية مما لا فائدة منه للعرب الا التثقيل على الذهن العربي والقلم الشرقي . فهذه الكلمات يجب الحاقها بالكلمات الاجنبية المار ذكرها او استخدامها لمعانٍ او مواد جديدة لم يصل اليها العقل العربي ولا الصناعة العربية او ابدالها بكلمات من اللغة الدارجة مما جعل له الاستعمال قوة لا يمكن تحصيلها بغيره

ومما لا يشك به ان منبع الكلمات المترادفة الكثيرة الوجود في اللغة العربية المكتتبة هو اختلاف القبايل التي تكلمت بهذه اللغة . ولا يصدق ان بني قريش اصحاب اللغة الفصحى كان عندهم خمسماية اسم للاسد . والظاهر ان الذين جمعوا متفرقات هذه اللغة عن السنة العرب فلاجل شدة اهتمامهم وحرصهم على حفظها كاملة دون من ان يفقد منها شيء جمعوا كل ما وجدوه من موادها بين العرب الذين كان لكل قبيلة منهم لغة خاصة واصطلاحات جارية عندها دون غيرها . والبعض يحسبون ان كثرة المترادفات في العربية غنى لها والحال ان ذلك لا يجب ان يحسب غنى لانه لا يفيد زيادة في المعاني التي هي المقصود الاصلي من اللغات . واللغة التي يوجد فيها الفاظ كثيرة لمعنى واحد مع انه يوجد معان كثيرة لا يوجد لها فيها الفاظ للتعبير بها عنها هي في الحقيقة فقيرة لا غنية واهلها فقراء لا اغنياء . وينتج مقصودنا في ما تقدم مما يأتي

قيل مرَّ ذات يوم ابو علقمة ببعض طرق البصرة وهاجت به دابته مرة فوقع الى الارض فوثب عليه قوم يعصرون ابهامه ويؤذنون في اذنه فافلت منهم وقال ما بالكم تكأكأتم عليَّ تكأكؤكم على ذي جنة افرنقعوا عني (اي ما بالكم اجتمعتم عليَّ اجتماعكم على مجنون اعتزلوا عني) فقال بعضهم دعوه فان جنيته تتكلم بالهندية

قيل ان اعرابياً اصطاد ذات يوم سنوراً ولم يعلم ما هو فلقيه رجل فقال ما هذا السنور ثم لقيه آخر فقال ما هذا القط ثم لقيه آخر فقال ما هذا الهر ثم لقيه آخر فقال ما هذا الضيون ثم لقيه آخر فقال ما هذا الخيدع ثم لقيه آخر فقال ما هذا الخيطل ثم لقيه آخر فقال ما هذا الدم ولو لقيه آخر في هذه الايام لقال ما هذا البسين .

فقال الاعرابي في نفسه احمله الى السوق وابيعه فسيجعل الله لي فيه مالاً كثيراً . فلما اتى السوق قيل له بكم هذا قال تبايني دينار فقيل له انما يساوي نصف درهم فاحتمى الاعرابي غضباً ورمى به الى الارض وقال تباً له ما اكثر اسماءه واقل ثمنه

وبما ان العرب كانوا يكرمون الابل ويعظمونها لانهم كانوا يكتسبون بوبرها ويغتذون بلحومها ولبنها وكانت هي تقوم بكامل خدمتهم الارتحالية بمنزلة عربات برية او مراكب بحرية ترى لغتهم مشحونة من الالفاظ المتعلقة بهذا الحيوان الهائل الجسم العظيم القدر فلا يوجد عضو للناقة الا وله اسم خاص ولا توجد لها حالة او معنى الا وقد اوجدوا لها كلمة تدل عليها حتى صرنا اذا راجعنا قاموس العربية نجد فيه الوفاً من الكلمات التي تنبعث منها رائحة النوق والجمال ويمكننا ان نقول على سبيل المبالغة انه يوجد في اللغة العربية عبارات للناقة تكاد تساوي وبرها عدداً . فما هي الفائدة للحضر من هذه العبارات مع استغنائهم بالعربات عن خدمة الابل وبقرقعة دواليب المراكب النارية عن عجيجها وبرائحة الفحم الحجري عن رايحتها فهنا محلٌ واسعٌ للاصلاح ونقل ما يمكن نقله من تلك العبارات البدوية الى موضوعات حضرية يضطر الى وسائط التعبير عنها كل من القاه الدهر في وسط جماعة متمدنة

هذا وان حالة العلوم المتعلقة باللغة العربية كالصرف والنحو مثلاً ليست باقل احتياجاً من اللغة نفسها الى الاصلاح من هذا القبيل . فانها في حالتها الحاضرة لا توافق الذين يقصدون العلوم طلباً لنوال ما يترتب عليها من امر المعيشة . وذلك لان كامل حياتهم بالكد يكفي لتحصيلها على حقها وهذا من جملة الاسباب التي تجعل اهلها يهملونها بالكلية او يتخذون لغة او لغات اجنبية ضرائر لها . وهل يليق بالانسان الذي انما جعلت له اللغة واسطة وباباً للعلوم ان يجعلها غاية ويصرف حياته كلها واقفاً امام ذلك الباب يتفرج على نقشه وزخرفه الخارجي مع ايقانه بانه يوجد وراءه تحف قديمة وحديثة تسلب القلب وتخلب الالباب . وصاحب العقل السليم لا يسعه الجهل بان منهج الاقدمين في وضع قواعد هذه اللغة ونظامها وادخالهم بين تلك القواعد ابواباً من كل العلوم والفنون وتعليلاتهم المستطيلة التي يحسبها البعض منزلة مع انها ليست الا مناسبات حصلت بعد الوقوع تلهي ابناء هذا الزمان عن الالتفات الى الامور الحقيقية وتشغل وقتهم عن الوصول الى الفنون المفيدة . ولا شك ان ذلك هو من جملة الاسباب التي اوجبت فقد العلوم من بين العرب . ومما لا ريب فيه بانه يجب وضع قاموس اللغة

العربية والعلوم المختصة بها بالذات في قالب يجمل تحصيلها في ظرف سنة ميسوراً لاهلها الذين نباهتهم في اكتساب اللغات الغريبة في المدة المذكورة يشهد بانه لا يجب ان يصرفوا اكثر منها في تعلم اصول لغة قد رضعوها مع اللبن . ولكن اذا وجد قوم من اصحاب الغنى والخطر يلذُّ لهم الفحص عن الامور القديمة والتفتيش على المواد السالفة ويقصدون ذلك بالذات فلنترك لهم الحرية التامة في هذا الامر ونكفلهم بالمحافظة على اللغة القديمة ولندع تكأكؤ الاعرابي واشاجيع الحريري وفيروزابادیات الفيروزابادي موضوعات لتاملاتهم الدائمة ودرسهم الابدي . والظاهر ان هذا الاصلاح محفوظ للاجيال المستقبلة

وهو مستغن عن البيان ان اللغة من شأنها ان تنمو بنمو معارف اهلها وفنونهم وصنايعهم ومتاجرهم واختراعاتهم ومن ثم كان وضع حد للالفاظ والمعاني في لغة قوم مما لا تجوز محاولته ولا يمكن اجراؤه . لانه اذا وضع حد معلوم لالفاظ لغةٍ ما كما هو الحال في اللغة العربية التي منذ اجيال كثيرة قد دخل فيها ما دخل ولم يبقَ باب لدخول غيره يلتزم اصحاب تلك اللغة عن امتداد المعارف والصنايع عندهم لاجل التمكن من استخدام الفاظ للتعبير عما هو في انفسهم ولقضاء مصالحهم ان يلتجئوا الى لغة اجنبية او يخترعوا كلمات جديدة حوشية . وهكذا تولدت عند العرب لغة دارجة بينهم تختلف كثيراً عن لغة الكتب . وهذه اللغة الدارجة تراها تتهدد دائماً اللغة الاصلية . واذا طال الحال عليها هكذا تميت كثيراً من الفاظها فوق ما اماتته فيلتزم العرب في اخر الامر ان يفعلوا باللغة العربية كما فعل اليونان والارمن بلغاتهم الاصلية ويعطوا اللغة الدارجة محل اللغة الاصلية . فتصير اللغة الاصلية لغة العلماء واصحاب التفتيش فقط كاللغة اللاتينية عند الافرنج . ولا يمكن ان يتصور حصول خسارة للعرب اعظم من هذه . ولكن ازدياد عدد المدارس والمكاتب والمطابع في هذه الايام واملنا بالزيادة على زيادتها في ما ياتي يجعلان لنا شيئاً من الطمأنينة من هذا القبيل

لقد تقدم القول ان ابا علي الحسين بن عبدالله الشيخ الرئيس المشهور بابن سينا كان فرد زمانه في الفلسفة ومما حكاه الشيخ المذكور عن نفسه يظهر لطلبة العلم لزوم الاجتهاد في تحصيله . قال: ان ابي كان من اهل بلخ وانتقل منها الى بخارا في ايام نوح بن منصور واشتغل بالصرف في قرية خزمتين وتزوج امي من قرية يقال لها افشنة وولدت منها بها وولد اخي . ثم انتقلنا الى بخارا واحضرت معلم القرآن والادب

وكملت العشر من العمر وقد اتيت على القرآن وعلى كثير من الادب حتى كان يقضى مني العجب . واخذ والدي يوجهني الى رجل كان يبيع البقل ويقوم بحساب الهند حتى اتعلم منه . ثم جاء الى بخارا ابو عبدالله الناتلي وكان يدعي الفلسفة وانزله ابي دارنا رجاء تعلمي منه فقرأت ظواهر المنطق عليه واما دقايقه فلم يكن عنده منها خبر ثم اخذت اقرا الكتب على نفسي واطالع الشروح وكذلك كتاب اقليدس فقرأت من اوله خمسة اشكال او ستة عليه ثم توليت حل الكتاب باسره . ثم انتقلت الى المجسطي وفارقني الناتلي . ثم رغبت في علم الطب وصرت اقرا الكتب المصنفة فيه وتعهدت المرضى فانفتح عليّ ابواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف وانا في هذا الوقت مناهز ست عشرة سنة ولم ازل كذلك حتى احكمت علم المنطق والطبيعي والرياضي . ثم عدت الى العلم الاهلي وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة فما كنت افهم ما فيه والتبس عليّ غرض واضعه حتى اعدت قرآته اربعين مرة وصار لي محفوظاً وانا مع ذلك لا افهمه وايست من نفسي وقلت هذا كتاب لا سبيل الى فهمه . وفي ذات يوم حضرت وقت العصر في سوق الورّاقين وبيد دلاّل مجلد ينادي عليه فعرضه علي فرددته ردّ متبرم معتقداً ان لا فائدة في هذا العلم فقال لي اشتر مني هذا فانه رخيص ابيعكه بثلثة دراهم وصاحبه محتاج الى ثمنه فاشتريته فاذا هو كتاب لابي نصر الفارابي في اغراض كتاب ما بعد الطبيعة فرجعت الى بيتي واسرعت قرآته فانفتح عليّ في الوقت اغراض ذلك الكتاب بسبب انه قد صار لي على ظهر القلب وفرحت بذلك فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري فرغت من هذه العلوم كلها . وكنت اذ ذاك للعلم احفظ ولكنه اليوم معي انضج . الى هنا ملخص ما حكاه الرئيس ابن سينا عن نفسه . ولنرجع الى ما كنا بصدده من تاريخ اداب العرب فنقول

وما زالت العرب كذلك حتى سقطت رغبة الملوك والاكابر في العلم فانقطعت اسباب الطلب وتعطل السعي في تحصيله ودرست مصنفاته حتى فقد كثير منها فلم يبقَ لها عين ولا اثر وكسدت بضاعة العلم وافنى الدهر اهله واستولى الجهل بسطوة عظيمة على الناس حتى صاروا يظنون ان تحصيل العلوم امر فاسد وسعي باطل . فلما رأت العلوم كساد بضاعتها وعدم رواج سوقها بين العرب اكتست بثياب الحداد وسارت كاسفة البال قاصدة بلاد اوروبا عن طريق المغرب واسبانيا تلتجيء هناك تحت الالوية الغربية . واذ كان الافرنج قد زاروا البلدان المشرقية واختلطوا بالعرب

مدة مستطيلة وهناك استفادوا ذوقاً جديداً ورغبة جديدة في المعارف والعلوم واطلعوا على فوائد التمدن فتحوا لها ابوابهم وقلوبهم مترحبين بذلك الصديق القديم الذي كان قد فارقهم منذ اجيال كثيرة لعدم قيامهم بحقه. ففعل كرلوس الكبير ملك فرنسا بالعلوم العربية كما فعل المامون بالعلوم اليونانية . فامر بترجمة اطايب تصانيف العرب الى اللغة اللاتينية محافظاً على نسختها الاصلية خلاف لما رُوي عن المامون . وهكذا العلوم التي انتقلت من الغرب الى الشرق من جهة القطبة الشمالية رجعت بارباحها الوافرة من الشرق الى الغرب من جهة القطبة الجنوبية واخذت تنتشر في البلدان الغربية حتى وصلت الى اقصى اطرافها . وهكذا اخذ نورها يتناقص في الشرق ويتزايد في الغرب منذ الجيل الثاني عشر حتى وصل الى ما وصل اليه الان عند العرب والافرنج . ولا يخفى ان للافرنج فضلاً عظيماً على العرب في امر المحافظة على كثير من التصانيف العربية الاصلية ولولا ذلك لكانت فقدت بالكلية

فاين كان العرب واين هم الان قد مضى جيل ادابهم الذهبي وخيم عليهم جيلها المظلم . وكان ابتداء جيلها المظلم اواخر الجيل الرابع عشر وما زال ينمو ويتزايد حتى عم البلاد والعباد . اين الشعراء اين الاطباء اين الخطباء اين المدارس اين المكاتب اين الفلاسفة اين المهندسون اين المؤرخون اين الفلكيون اين كتب هذه الفنون اين العلماء المحققون والادباء المدققون . نعم انه قد بقي في كل ملة ومذهب علوم بالكد تكفي لبقاء نوعها والمدافعة عنها عند الاقتضاء ولكن ماذا ذلك بالنظر الى محيط العلوم الحقيقية . اين مجد بغداد اين فخر حلب اين زينة الاسكندرية ورونق الاندلس وبهاء دمشق . اين المامون اين المستنصر اين المتنبي اين ابو الفدا ولكن اما تذكر هذه العلوم الالفة القديمة وترجع فتزور ديارنا وتخفف شقاء العرب وتصلح بلادهم واحوالهم . اننا اذا نظرنا الى الجيل التاسع عشر ينفتح لنا باب للامال . فلتبشر بنو سام لان اولاد عمهم بني يافث قد ابتدأوا يرجعون لهم ما اخذوه منهم مطبوعاً وعلى ظهره اكتشافاتهم المتاخرة نظير فائدة لارباء عن مدة اربعماية سنة وان يكن في اكثر الاوقات منغصاً ومعاقاً بما يظهره البعض من اولاد عمنا المذكورين من العتو والاستكبار على جنسنا الشرقي والاستهانة به . نحن سلمناهم العلوم من يدنا اليسرى عن طريق واحد واما هم فآخذون في ارجاعها لنا بيدهم اليمنى عن طرق شتى . ويجب ان نضع المرسلين الامركان والرهبان والراهبات اللاتينية وعلى الخصوص اليسوعية منهم

والعازارية في الرتبة الاولى من هذا القبيل لان حسن قدوتهم وفضل مساعيهم في هذا الامر بواسطة مدارسهم ومطابعهم ظاهران لا ينكرهما الا من كان منكرًا الجميل او من اصحاب الغرض والتعصب · وقد فعل المخلد الذكر محمد علي باشا في هذا الجيل بكتب الافرنج ما فعله كرلوس الكبير بكتب العرب فامر بترجمة اطايبها الى اللغة العربية وسلمها مع كثير من الكتب العربية القديمة لمطبعة المعتبرة الموجودة في بولاق من الاقليم المصري فخرج منها كتب شتى في اللغة والطب والطبيعيات والتاريخ وهلمَّ جرًّا فزين لغته العربية بكامل الفنون والصنايع من العربية والافرنجية وعسى ان يحذو انجاله وحفدته حذوه في هذا الامر · وهكذا ترى العلوم والفنون الافرنجية المبنية على مبادىء حقيقية قادمة الينا من كل فج عميق · وما مكث فيه الافرنج السنين العديدة والمدد المديدة يمكن العرب ان يكتسبوه في اقرب زمان مع غاية الاتقان والاحكام · فالعلوم اذًا قد اكملت دورتها بوصولها الى العرب عن طريق الاسكندرية واسلامبول والهند وبيروت · وكما ان الافرنج لم يستخفوا بآداب العرب في ايام جهلهم لاجل مجرد كونها منسوبة الى العرب كذلك لا يليق بالعرب ان يستخفوا بعلوم الافرنج لاجل مجرد كونها افرنجية · بل يليق بنا ان نترحب بالعلوم من دون نظر الى من يعطينا اياها سواء كانت آتية من الصين او الهند او العجم او اوروبا · وادعاء البعض بان العرب يوجد عندهم كل شيء يحتاج اليه من العلوم والفنون لا يوجد برهان اقوى منه على عمق جهلهم · وكما ان العرب لا يانفون ان يكتسبوا الصنايع من الافرنج وياخذون عنهم العادات من الحسنة والمستهجنة لا ينبغي ان يستنكفوا من ان يكتسبوا منهم العلوم التي هي واحدة عند الجميع

ان الافرنج يشهدون للعرب بالذكاء وسرعة الفهم ويمدحون قدماءهم ويعترفون لهم بالعلوم والمعارف ولكن شتان بين علومنا التي كنا نعرفها وبين علومهم الان كما هو مشاهدًا حسًّا · مثلاً علم الحساب فان ما نمكث في حسابه ساعتين وثلاثًا هم يحسبونه في دقيقة واحدة بحساب اخترعوه يسمى بالانساب اي اوقاف الاعداد · ونحن لا نعرف الا سبعة كواكب سيارة واليوم عندهم تنيف على الاربعين ولا نعرف الا اربعة عناصر واليوم عندهم نحو خمسة وستين والهواء الذي نحسبه بسيطًا عندهم مركب من بسيطين ويفرقونها بالمشاهدة بالآت اخترعوها لذلك وكذلك الماء عندهم مركب من عنصرين وقد كشفوا كثيرًا من المعادن التي لم تعرف سابقًا وما كشفوه

في هذا القرن من نتائج الكيميا والعلم الطبيعي والهندسة وجر الاثقال والمناظر لم يعهد سابقًا ولا اطلع احد من قدماء اليونان وغيرهم على اقله وذلك كسفينة البخار وطريق الحديد ونواعير المعامل والزبد الفحمي لوقد المصابيح والموصل البرقي الذي يوصل الخبر في دقيقة واحدة الى مكان بعيد بينهم وبينه صحارى وبحور وغير ذلك من المنافع التي لا تحصى والاكتشافات العجيبة التي بواسطتها انقلبت عناصر الاقدمين وانتقضت مبادىء علومهم الطبيعية · وذلك لان العلوم كانت قديمًا في سن الطفولية واما الان فقد ادركت · وستفعل الاجيال الاتية بكثير من فنون هذه الايام ما فعله ابناء الزمان بفنون المتقدمين وذلك لانهم سيستفيدون منها ويبتدئون من النقطة التي وصل اليها اسلافهم بعد جهاد طويل كما يكون غالبًا في كل شيء ابتدائي

ولا يخفى ان آداب الاقدمين كان بها شوائب كثيرة وطريقة الانشاء عندهم كانت غير تامة وقد اعتمدوا على التعقيد في كل تصانيفهم وداخلت الخرافات اكثر فنونهم وبنوا اشياء كثيرة على مبادىء فلسفة اليونان التي جعلت اصحابها في عالم الوهم وكانوا يدعون بانهم يعرفون كل شيء بعلله ولهذا كثرت سفسطاتهم وتزايدت اغلاطهم واوهامهم واذا قابلنا علومهم وادابهم وطبهم وطبيعياتهم وهلمّ جرًّا بما يوجد عند ابناء هذا الزمان يظهر لنا الفرق ظهور الشمس في رابعة النهار والذين لم يتيسر لهم الوقوف على علوم الافرنج وتصانيفهم يقرون لهم بانهم الهة الصنايع زاعمين ان عقولهم في ايديهم ولكن من وقف على الحقيقة لا يسعه الانكار بان الافرنج هم الهة العلوم ايضًا وبان عقولهم في رؤوسهم كعقولنا

القسم الثالث في اداب العرب في هذه الايام

لو كلفت الوقوف امام سيادتكم لاجل الكلام عن هذا الموضوع نحو ثلثين سنة قبل الان لكنت اخجل نظير ابن وطن من فتح هذا البحث الذي كشف مكنوناته يوجب عارًا وخزيًا على ابناء بلادي عند الاجانب لانني حينئذٍ كنت التزم ان اجول في اسواق هذه المدينة (حتى لا اقول في كامل البلاد التي كانت في الازمان السالفة مرضعة للاداب وسريرًا للتمدن) وافتش باجتهاد على من يقدر ان يقرا مكتوبًا او كما يقال يفك الاسم · واما الان فانه يوجد امور كثيرة تقوي آمالنا في المستقبل ومع اننا مديونون في اكثر هذه الامور للغرباء يمكننا ان نرفع رؤوسنا بما وجد منها

عندنا مع قطع النظر عن مصدرها لا على سبيل عدم الشكر وانكار الجميل بل لاجل التقوية والتشجيع · وبما ان هذه الامور هي طارئة ونادرة الوجود لا يجب ان نغفل عن تبيين الحق والاحوال الحقيقية لان الحكم على الاغلب والافراد لا تعتبر · وفي الكلام عن هذا البحث يلزمنا اجتناب التطويل والتفصيل والاكتفاء بالاختصار والاجمال بقدر الامكان اعتماداً على ما تقدم وعلى معلوميات سيادتكم

انه يمكننا النظر الى البحث الذي امامنا من اوجه عديدة نقتصر على اربعة منها وهي حالة العرب بالنظر الى الاداب وحالة الاداب نفسها عند العرب وحالة الوسائط لاكتساب الاداب وامالنا في المستقبل فنقول

اولاً ان العرب في ايامنا هذه قنوعون جداً في امر الاداب · فانهم يكتفون باقلها ويحسبون انفسهم انهم قد وصلوا الى اعلى طبقات العلم مع انهم لم يقرعوا بابه ومن تعلم منهم كتاب الزبور والقرآن يقال انه قد ختم علمه واذ تعلم شيئاً من اصول الصرف والنحو يقال فيه انه قد صار علامة زمانه واذ نطق بالشعر فلا يبقى عندهم لقب يصفونه به · وما ذلك الا لان ظهور النور قليل في العاقل كافٍ لان يغشى على عيني الجاهل ولانهم الى الآن لم يقفوا على شاطئ اوقيانوس العلوم ويروا عظمته واتساعه · ومع اننا نعتقد بان عرب هذه الايام هم من نسل العرب القدماء لا نرى فيهم ما رأيناه في اولائك المجاهدين من الثبات والجهاد في ميدان العلوم · ولا نقدر ان نسلم بان النسل قد فسد وذلك لان جودة عقول العرب وحسن استعدادها في هذه الايام لتحصيل العلوم يبرهنان النقيض ولكن ذلك ناتج من احوال كثيرة واسباب متنوعة نود لو سمحت لنا الاوقات لبيانها كي نخفف عمن هم من لحمنا ودمنا اللوم الواقع عليهم من الاجانب الذين لا نشك بانهم كانوا وصلوا الى حالة اردأ من حالتنا لو القاهم الدهر في ظروف كظروفنا · ولكن مهما كانت الاسباب فلا سبيل الى انكار كساد بضاعة العلم عند العرب وعدم رواج سوقها بين جماهيرهم وعلى الخصوص اكابرهم

ثانياً ان الآداب عند العرب في هذه الايام هي في حالة انحطاط كلي · اما العلوم اللغوية فاننا قلما نجد احداً من ابناء العرب يمكن ان يشار اليه بالبنان بانه يعرف لغته وقواعدها حق المعرفة · فانهم في الاكثر يكتفون من علم اللغة بحفظ بعض كلمات غريبة ميتة يدرجونها في كتاباتهم واشعارهم بقصد اظهار معرفتهم والتمويه

على الجمهور وما تلك الا حصىً صغيرة يتلاعب بها الجيل في ايام طفوليته · ومن قال منهم سلسلة والزي وهزا ومنهي وفيهو (اي ثانه والذي وهذا ومنه وفيه) وما اشبه من افساد اللغة فهو ناجٍ · واما المعاني والبيان وما يتعلق بهما فمتروك حل مسائلها وفهم مؤلفاتها النفيسة التي لم تفقد من الهجر الى همة ونشاط اجيال مستقبلة ما علم لمنطق فيكتفيه اعتبارًا وحفظًا عند اكثرهم قولهم فيه من تمنطق فقد تزندق · واما العلوم التعليمية كالحساب والهندسة ومتعلقاتهما فهذه يكتفون منها بالجمع والطرح ومن زاد عليهما الضرب والقسمة وحفظ بعض مسائل باجوبتها مما اوجده لهم الاقدمون يذيع اسمه في الافاق انه من فحول العلماء · ويستغنون بالمقومين عن المساحين وبالبنائين عن المهندسين · واما علم الفلك فلا يوجد له من محام ولا حافظ وكانه علم لا فائدة به للعرب لانهم يعلمون ان الشمس تغطس في البحر وان الكواكب فوق رؤوسهم من دون افتقار الى اجتهاد ولا درس ولا عناء · واما علم الطب فهو صناعة قد فتحت ابوابها عفوًا لمن اراد ان يدعيها لنفسه وان كان لا يعرف القراءة بشرط ان يكون في حوزته ريشة ماضية لتقطيع اوصال العباد · وهي الصناعة الوحيدة التي يمكن الانسان ان يتعاطاها من دون ان يتعلمها من استاذ · والحق بالطب علم الكيميا فانه قد تقهقر عند العرب الى حالته التي كانت له قبل ان مدوا اليه ايديهم كما سبق القول · واما صناعة الانشاء فهذه منحصرة في نقل بعض كتابات قد ورثناها من المرحومين · واما الخطب فهذا ميدان الديني منها المنابر وميدان الدنيوي القهاوي ولا يدخل في هذا الميدان الا من كان خشن الصوت حسن الذاكرة بحفظ بعض حكايات من قصص السندباد البحري وبني هلال وما اشبه ذلك من الحكايات الموجودة في كتاب الف ليلة وليلة وغيره ويحكيها على من حضر في القهاوي تكملة للكيف على حقه ولكي تكون دليلاً على اصل متروك · واما علم النبات فهذا متروك لرعاة المواشي والفلاحين · واما علم الزراعة الذي وصل الى اعلى طبقاته عند اجدادنا فهو الان متروك لرحمة النقل والتقليد · واما علم التاريخ فهذا مفقود ليس من يعتني به · واما علم الجغرافيا فيكتفي الواحد منهم بمعرفة اسم بلدته وطريق بيته ويخشى ان يصيبه دوار اذا تعلم ان الشمس ثابتة والارض تدور واما الشعر الذي من شانه ان يتقدم جنازة الآداب او يبشر بولادتها فبابه مفتوح عفوًا لمن اراد الدخول وكل من حافظ على القوافي وألبس معاني الاقدمين اخلاق ثياب فهو شاعر ولكن

اذا ابدع بانه اتى بكلمات غير مفهومة واظهر مهارة وبراعة في التضمين والاقتباس حتى لا اقول في السرقة من الاقدمين فهو خنذيذ . وهكذا القول في باقي العلوم . وما دام العرب يكتفون بالتقليد والنقل ولا يريدون ان يتعبوا انفسهم بالفحص والتحقيق لا يؤمل تقدمهم في العلوم والفنون . لا تهج ايها الدم العربي ولا تغتظ من الحق عندما تسمع واحداً مشتركاً فيك يبين لك حقيقة حالك لا على سبيل التقريع والطعن بل لاجل ايقافك على الحقيقة عسى ان يكون ذلك واسطة لانتباهك وتقويتك في طلب العلم والتجلد في ميدانه . وسوف تسمع مني كلاماً لطيفاً يستر شيئاً مما تقدم كما ان حالك الحاضرة تبطل حقك في الافتخار بما سبق ذكره من فضل اجدادك

ثالثاً ان الوسائط لاكتساب الاداب كثيرة نقتصر منها على ما ياتي ومما سيرد بيانه تتضح حالة هذه الوسائط بين العرب

فمن الوسائط التي قصدنا ذكرها المطابع ولا يخفى ان عدد المطابع وقوتها قد زاد كثيراً في هذا الجيل الا ان كثيراً منها طائفي مشتغل في طبع كتب دينية . والبعض منها الى الان لم يعطِ الجمهور برهان وجوده . فانه في نفس هذه البلدة توجد خمس او ست مطابع يخرج منها كتب واوراق متنوعة ولا ريب ان هذه المطابع لو اشتغلت حق الشغل واعتنت في طبع ما من شانه ان يفيد الجمهور بوجه العموم اداباً وتمدناً لكانت في مدة قصيرة تغني ابناء العرب بالكتب والمكاتب . ولا ينبغي ان نغفل عن القوة العظيمة الموجودة فوق رؤوسنا التي استخدم لها المرسلون الامركان البخار ولا شك في انها قادرة على نشر المعارف والتمدن في هذه البلاد في برهة قصيرة . وقد خرج منها كتب نفيسة في العلوم الرياضية والتاريخية فضلاً عن الكتب الكثيرة المتعلقة بالمذهب ولو اطلق لها العنان وجرت بكامل قوتها في ميدان الآداب والعلوم لاغنت هذه البلاد في التصانيف المفيدة . ولا عن المطبعة السورية التي خصصت بحديقة الاخبار . ومما لا يشوبه ريب ان الجرنالات من اكبر الوسايط لتمدن الجمهور وزيادة عدد القراء اذا استعملت على حقها والامل ان هذه الفتاة التي هي اول مطبعة عربية خصصت بالجرنالات تتقوى وان اتعاب مالكها ومديرها العزيز خليل افندي الخوري تكالل بالنجاح فيخلد ذكره عند ابناء الوطن كفاتح لهذا الحصن الحصين الذي اغفل المتقدمون عن فوائده . وكاني به واقفاً على شاطي البحر الكبير الفاصل بين العالم القديم والعالم الجديد يستشرف تارة على الجديد ويلحظ اخرى على القديم

ولدى انتشار ديوانه الموسوم بالعصر الجديد الذي افرغ فيه الشعر القديم في قالب جديد يتضح المعنى المقصود · وتوجد مطابع اخرى كثيرة عربية في قزحيا والشوير وحلب والقدس وبلاد المغرب ولكن المطبعة التي تستحق الذكر وقد اغنت الجنس العربي بالكتب المتفننة هي مطبعة بولاق · ونستدل على حسن نظام هذه المطبعة وعظم فائدتها من الكتب الكثيرة التي خرجت منها من اصلية ومترجمة · وقد ابتدأ مترجموا ونظار هذه المطبعة يتجنبون بقدر الامكان استعمال الفاظ اجنبية في ما يترجمونه من اللغات الافرنجية مع انهم في ابتداء الامر عندما كانت المطبعة في سن الطفولية كانوا يكثرون من الالفاظ الغريبة مع وجود الفاظ في العربية تقابلها · ولا يخفى ان المطابع العربية في اوربا وامركا اكثر منها في هذه البلاد وانه لولا عناية هذه المطابع لما بقي عين ولا اثر لكثير من تصانيف الغرب النفيسة وهكذا نرى كثيرًا من كتبنا العربية راجعًا الينا بعد غربته الطويلة مطبوعًا باحرف جميلة ويا ليتنا نقدر ان نقول بالضبط التام والصحة الواجبة

ومنها المكاتب · ومع انه يوجد مكاتب كثيرة خصوصية في هذه البلاد ترى بخل مقتنيها او متوليها من الجهة الواحدة وعدم امانة مستعيري الكتب من الجهة الاخرى يقفلان عليها ابوابًا حديدية ويتركانها لرحمة العث وماوًى للغبار · ولكن ما الفائدة من تكثير الكتب اذا لم يكن من يقرأُها وهذا يقتادنا الى ذكر واسطة اخرى من وسائط اكتساب الاداب وهي المدارس

لا يخفى ان عدد المدارس قد زاد كثيرًا في هذا الجيل · فانه يوجد في هذه المدينة مدارس كثيرة لكل ملة ومذهب منها لتعليم اللغات ومنها لتعليم القرآءة البسيطة وهل هي في حالة مناسبة لنوال الغاية المقصودة منها · فان من نظر الى نظامها ومعلميها واكثر كتبها واماكنها لا يشكل عليه الجواب واستخفاف الاهالي بالمدارس البسيطة وتسليم اولادهم لمعلمين غير مقتدرين على تعليمهم كما يجب هو مما يوجب فسادًا في اداب الجيل ومعارفه منذ طفوليته · وتوجد مدارس بسيطة في اكثر المدن والقرى وكثير منها بسعي الاجانب لان اكثر اهالي بلادنا الى الان متغافلون عن اعتبار قيمة العلم فلا يشاؤُون ان يفتحوا له بابًا في دفاتر مصاريفهم وكم تكون قليلة عند الوالدين والاولاد قيمة العلم الذي يكتسب مجانًا من دون ان يكلف الوالدين شيئًا · واما المدارس العالية فهي قليلة تقتصر في الغالب على علوم تتعلق بالمذهب حتى انه لا

يمكننا ان نقول بالصحة انه توجد مدرسة كلية ينظر فيها الى العلوم باعتبار ذاتها . ومن المدارس العالية الوطنية النصرانية مدرسة عين ورقة المشهورة التي يسوغ لنا ان نقول بحق انها ام المدارس الوطنية في هذه البلاد وقد انشئت في اواخر الجيل الماضي . ومن اطلع على شدة غباوة الازمان التي انشئت فيها وافتقار الاهالي قاطبةً في تلك الايام الى العلوم يتبين له فضل المطران يوسف اسطفان منشئها ويزيد اعتبار فضله عند ما يقف على المقاومات التي حصلت له عندما رفع الراهبات من دير عين ورقة ووزعهنَّ على الاديرة ووضع مكانهنَّ فتياناً يتعلمون بنية الافادة والتعليم ولا ينبغي ان ننسى فضل مساعي سيادة المطران يوسف رزق رئيس المدرسة المذكورة حالاً فانه قد زادها قوةً بواسطة زيادته اوقافاً على اوقافها ورونقاً بواسطة الابنية الجديدة والاصلاحات العديدة التي احدثتها همته ونشاطه فيها وقد امتد فضله الى الواقف امام سيادتكم اذ قد صرفت عشر سنين في المدرسة المذكورة اتعلم واعلم محفوفاً بمزيد غيرته الخصوصية عليَّ ومشمولاً بانظاره وعنايته . وقد اقتدى بالمطران يوسف اسطفان غيره فاخلت عايلة بيت صفير دير الرومية وعايلة بيت آصاف دير مار عبدا هرهريا من الراهبات اللواتي من شأن طريقتهنَّ ان يقتصرنَ على ما به افادة انفسهنَّ ووضعتا مكانهنَّ اولاداً يتعلمون هناك ما من شأنه ان يقوي اركان الطائفة المارونية ويهذب شعبها . ولهذه الطائفة فضل الاسبقية في هذا الامر . ولها غير المدارس الطائفية العمومية المذكورة مدارس اخرى عالية ابرشية توجد في اكثر الابرشيات لتعليم اولادها . وكذلك الروم الكاثوليكيون قد اقاموا في هذا الجيل مدرستين عاليتين الواحدة في دير المخلص وهي مختصة بالرهبان المخلصية والاخرى في عين تراز لاجل تعليم العوام انشاتها غيرة البطرك مكسيموس المشهور . وهذه الاخيرة لم تبقَ الا سنين قليلة . واملنا ان هذه الطائفة التي هي مع قلة عددها بالنظر الى باقي الطوائف طائفة معتبرة في غناها ووجاهتها وتمدنها تنتبه الى هذا الامر بقدر ما تقتضيه حالتها . واما الروم الارثوذكسيون فقد انتبهوا في هذه السنين الاخيرة وهم الان باذلون الهمة في تكثير المدارس وتوسيع دائرتها خلافاً لما نعهده من سلفائهم . وممن يستحق الذكر منهم نظراً الى عالي همته وشدة غيرته في هذا الامر المرحوم نعمة الله طراد الذي بقي سنين كثيرة وكيلاً على مدارس هذه الطائفة وتسلم الطائفة المذكورة ادارة مدارسها في هذه الايام لعمدة من معتبري ابناء الطائفة في الغنى والوجاهة والمعرفة كالخواجا حبيب

جرجس بسترس وارفاقه الوكلاء يفتح لنا بابًا للامل بان هذه الطائفة التي عدد اعضائها في هذه البلاد يساوي عدد باقي الطوائف النصرانية جميعًا ستكون في مقدمة جيش طلبة العلم ومدخلي التمدن بين اهالي بلادنا · ولا ينبغي ان نغفل عن مدرسة السريان الكاثوليكيين في دير الشرفة ومدارس الارمن ومدرسة الرهبان العازارية في عين طوره ومدرسة الامركان في عبيه ومدرسة الرهبان اليسوعية في غزير فان فوائدهن لا تنكر · ولكن في جميع المدارس المذكورة محل متسع للاصلاح ولا بد ان الاصلاح سيدخل رويدًا رويدًا مع تقدم الجيل

واما الاسلام فمن مدارسهم الشهيرة المدرسة التي انشأها مامون الجيل التاسع عشر محمد علي باشا في بولاق من الاقليم المصري ونرجو انها تبقى محفوفة بعطايا الخديوي سعيد باشا والي مصر حالاً ومشمولة بانظاره · وقد خرج منها تلاميذ معتبرون وجهابذة مدققون اشتهر فضلهم بواسطة التآليف والترجمات العديدة الدالة على جيادهم ودقة عقولهم وزيادة تحقيقهم · ولهم مدارس اخرى لا يسعنا الوقت لذكرها غير ان الاكثرين منهم الآن يقتدون بابن سينا في طريقة اكتساب الاداب كما علمت من روايته السابق ذكرها عن نفسه · وعسى ان يتحول كثير من المزارات والخلوات الى مدارس لان احوال هذا الجيل تعلن ان القلم قد تقدم على السيف خلافًا لقول المتنبي

حتى رجعت واقلامي قوائل لي … المجد للسيف ليس المجد للقلم
فاكتب بنا ابدًا بعد الكتاب به … فانما نحن للاسياف كالخدم

وبذلك حصل التقدم لاصحاب المعارف والعلوم على اصحاب الشجاعة والسيوف لان دولاب العالم يدور على رأس القلم وما احسن ما قاله الامام علي في هذا المعنى

ما الفضل الا لاهل العلم انهم … على الهدى لمن استهدى ادلاء
فقم بعلم ولا تبغي به بدلاً … فالناس موتى واهل العلم احياء

فيا ابناء الوطن يا ذرية اولئك الافاضل وحفدة معاشر السريان واليونان الممتطين سنام الجيل التاسع عشر جيل المعرفة والنور جيل الاختراعات والاكتشافات جيل الآداب والمعارف جيل الصنائع والفنون هبوا استفيقوا انتبهوا استيقظوا شمروا عن ساعد العزم ها الاداب واقفة من كل جهة على ابوابكم تقرع طالبة الدخول الى جبالكم الشامخة البهية واوديتكم وسهولكم وصحاريكم التي زينتها الطبيعة بحلاها الفاخرة فانبذوا عنكم تعصباتكم وتحزباتكم واغراضكم النفسانية وقدموا لها يدًا واحدة لمصافحتها وافتحوا

الابواب لهذا الصديق القديم الاتي اليكم بعد غربة مستطيلة وترحبوا به وتقبلوه بكل فرح وحبور فيملا بلادكم راحة ورفاهية و يكسوها رونقاً وفخراً

ولا ريب ان التقدم المتصل الذي حصل في هذه البلاد في السنين القليلة المتاخرة مما يقوي عزائم كل من له رغبة وغيرة على انهاض الجنس العربي من حالته الساقطة وان اتعاب الذين صرفوا السنين الكثيرة في ادخال الاداب والتمدن بين العرب من ابناء الوطن والاجانب ستكلل بالنجاح . وسامي همة حضرة الذات الشاهانية حضرة سلطاننا الاعظم السلطان عبد المجيد خان ذي النية الخيرية نحو راحة ورفاهية وامنية ونجاح وتقدم كامل اصناف تبعته وارادته الصالحة نحو اعطاء الحرية وانشاء المدارس وتوسيع دائرتها في ممالكه المحروسة مما يجب ان يحرك عواطف كامل رعاياه الى محبته والى رفع الدعاء الى الله سبحانه وتعالى ان يطيل بقاءه و يوطد اركان دولته . ولا يخفى ان ذلك مع امتداد المتجر بين العرب واختلاطهم بشعوب متمدنة وازدياد عدد المطابع والمدارس وانتظام حالة المجالس والمحافل وتقدم رجال الدولة في المعارف وفتح باب ميدان الانشاء والخطب والمحاورات الادبية والدينية والسياسية واطلاق زمام العقل وعنان الارادة والانتباه الى تعليم النساء وعلى الخصوص في هذه المدينة التي كانت في الازمان السالفة مرضعة للفقه ويؤمل انها ستكون في ما ياتي مرضعة للآداب كل ذلك يقوي عزائمنا واملنا بان العلوم ستمتد بين ابناء العرب وتملا ديارهم وترجع الى رونقها القديم وبان هلال الآداب الذي ولد في اوسط الجيل التاسع عشر سيصير بدراً . انتهى

قدم ملخص هذه الخطبة ارتجالاً بحضور عمدة الخطب واما محفل حافل من افرنج وابناء عرب في بيروت وذلك في اليوم الخامس عشر من شهر شباط سنة ١٨٥٩

العربية والعرب

« للمعلم عبدالله البستاني »

لا بد للمرء من احد ادلة يستظهر بها على ابراز سرائره وهي الاشارة والكتابة والكلمة ومحور كلامنا مقصور على الكلمة وهي ما يعلن للمخاطب مراد المتكلم تلازم النوع الانساني من لدن درجه الى آن احتضاره وبها يستميز عن سائر الحيوان .

وليس من لازم الامر ان تستمر كما نشأت بداءة بل قد تتهذب وتسطلح كلما استوسعت دائرة الهيئه الاجتماعية لانها الذريعة الكبرى التي يستخدمها الانسان في تصوره وتصديقه وهي عنوان عقله وقلبه تدل على ما يسره ان علماً وان جهالة . وهذه الكلمة انما هي اللغة التي بها تتوثق الالفة وتنتشب في بعضها وهي مفردة في البديئة يتعسر على مبدوع ان يبدعها لانها شريكة الفكر هبطت على ابينا الاول فانطلق بها لسانه وتناقلها اخلافه . الا انها لم تثبت واحدة بل تنوعت وتشعبت لا لفساد عرض لها لان القوم اذا ما اطالوا الثبار على المعاني التي تدل عليها الالفاظ الوضعية فلا حذو على اللغة ان يبادهها فساد او تضمحل لكنما ذلك من فساد طرا على افكار متكلميها فغيروا المعاني وصحفوا الالفاظ وحرفوها والبواعث على ذلك شتى منها تشعث الشعوب وتباينهم واختلاف القرائن واسباب المعاش والملاذ وغير ذلك فبعد ان انهلت على البسيطة شآبيب الطوفان واقتسم اولاد نوح بينهم الارض اجزاء قطن سام سوريا فتكلم بنوه لغته لكنها تشعبت بتشعب متكلميها وقصوهم عن بعضهم وتفرعت فكانت فروعها العربية والسريانية والعبرانية والفينيقية والكلدانية . وذهب الاكثرون الى ان العربية اصل هذه الفروع وقيل ان اول من نطق بها يعرب بن قحطان وهو الذي ذكره حسان بن ثابت الانصاري بقوله

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب ... ابينا فصرتم معربين ذوي نفر
وكنتم قديماً ما لكم غير عجمة ... كلام وكنتم كالبهائم في القفر

واختلفت الناس على تسمية العرب فقيل انهم شقوا اسمهم من يعرب نسبة اليه وقيل من عربة جزيرتهم وسميت بذلك لكثرة الامم التي مرحت عليها قديماً او لما فيها من البوادي والصحارى الشاسعة ويستدل على ذلك من ان معناها الكثرة والفيضان مشتقة من عرب النهر اي فاض وكثر ماؤه واول من قطنها قريش وذكرها شاعرهم ساكنة الراء ضرورة بقوله

وعربة ارض لا يحل حرامها ... من الناس الا اللوذعي الحلاحل

ومهما كان من الامر فان هذه اللغة التي عليها مدار كلامنا كانت بداءة بدء لهجة اقوام حصونهم صهوات خيولهم ومهاذهم الارض وسقوفهم السماء لا يعتري السنتهم لكنة او لثغة بل كان الواحد منهم فتيق اللسان كلمانياً وبنات افكاره غير موئودة كلهم يفقهون لحمة اللغة وسدادها وتعصيبهم السنتهم اذا تعمدوا ان يتكلموا خطاء

ومع ذلك فكانوا اميين الا النادر منهم يدركون كل ذلك بالسليقة · فلبثت اللغة في عهدهم روضة جنية الازهار يفخر العربي القحاح بقلائد قريضها · ولقد طالما تماهر الشعراء بذلك فاقاموا بين نخلة والطائف سوقًا دعوها عكاظ كانت القبائل تتداعى اليها من كل قطر ومصر و يتبايعون ثمة الشعر علمًا بان ذلك يكسبهم حسن الاحدوثة وطيب الذكر · فكانت اللغة وقتئذٍ تختال في بحبوحة العز يهرع المنافسون اليها سرابات و يأتونها بما يزيدها رونقًا وكمالاً واستمروا يكبون على الافتنان فيها يجعلون لكل حكم من احكامها وجهًا سديدًا يضافرهم على ذلك الزكن والحصافة · فكانت باعتبار الالفاظ منقولة و باعتبار الاحكام معقولة ولبثت على هذه الحال الى ان تزيل الاسلام عن الحجاز وخالطوا الاعاجم ففسدت اللغة وكاد السمع يزيل تلك الملكة الراسخة في السنة متكلميها · فتولد اللحن والامالة في غير محلها فشق ذلك على ذوي النهى والحذق وخشوا من ان تنقلب هدفًا للتهجين والتنقص فاستنبطوا لها روابط وضوابط تتكفل برعاية اصلها وذلك باستقراء كلام العرب والاشعار المروية عن قدماء القوم وجاهليتهم وجعلوها صناعة اصطلحوا على تسميتها بعلم النحو · ومع هذا فلم يقص ذلك اللجلجة عن بعض الالسنة لان العرب لفطرتهم على الفصاحة كان النطق بالاعراب سجية فيهم من غير تطبع كما قال الشاعر

فلست بنحوي يلوك لسانه ولكن سليقيٌّ اقول فاعربُ

واول من انتبه لهذا الفن في صدر الاسلام ابو الاسود الدئليُّ واصدق الروايات في سبب انتباهه لوضعه انه دخل يومًا داره فقالت له احدى بناته يا ابتِ ما احسن السماء فقال يابنية نجومها فقالت اني لم ارد اي شيء منها احسن بل انني اتعجب من حسنها فقال فقولي اذًا ما احسن السماء ووضع حينئذٍ النحو · فلا يذهب عنكم ايها السادة ان النحو من اجل علوم اللغة لان عليه مدار المعاني واختلاف المباني فيتلاعب باللفظ والمعنى كما في ما احسن السماء فلو اقتربنا مثل ذلك سابرين غور اللغة لاوردنا صورًا كثيرة مختلفة كقولهم هذا بسرًا اطيب منه رطبًا وغير ذلك فلعمري ان ذلك ليس له نديدة في لغة غير العربية ومن قاس الامور بمعيار البصيرة رأى ان النحو ذو جداء عميم لكل من رام الخوض في عباب المعارف ولو كانت في لغات الاعاجم · فلكم نري كثيرين من الذين يبيعون هذه اللغة بالغبن والحطيطة يرمون الكلام على اواهنه اذا تحدوا ترجمة قطعة الى العربية او كتابة مقالة فيها · وقد ارتنا

الايام عديداً من الناس يقضمون الانامل ندماً لانهم تركوا الفتور يعلق باذيالهم وقت الصغر ففاتهم فيض هذه المزنة الصيبة . ولا ريب ان من خاض في بحر هذه اللغة وعثر على ما في لجه من الفرائد رأى عجباً عجاباً وافتر افترار الارض بعد القطار ولا سيما من صرف شطراً من الزمان في البحث عن دقائق البيان فانه علم جليل القدر جم الفائدة فان الكاتب العاري منه قاصر عن مدارج الكمال يجيد ولا يدري علة الاجادة فلو سئل عن علة معنى استحسنه او تركيب استجاده لم يقدر على الاتيان بدليل وبينة كما قال بعضهم

يا ابا جعفر أتحكم في الشعرِ — وما فيك آلة الحكام
ان نقد الدينار الا على الصر — في صعب فكيف نقد الكلام
قد رأينا لست تفرق في الاشعار — بين الارواح والاجسام

ولذلك قيل ليس لمنقوص البيان بهاء ولو حك بيافوخه عنان السماء فبه لا يؤتى القائل من سوء فهم السامع ولا يؤتى السامع من سوء بيان فهم القائل لان خير الكلام ما لم يفتقر بعده الى كلام وقيل ان عثار القول انكأ من عثار الوعث . فليس لنا ايها السادة من الوقت سعة تمكننا من ايراد نوادر او قضايا جمة تشهد له بحسن الجودة ورفعة الشان بل نقتصر على سبب وضعه فنقول ان تسمية علم البلاغة بالمعاني والبيان حادثة من المتاخرين وكان الاقدمون يدعونه علم نقد النظم والنثر وفيه الف العسكريُّ كتاباً سماه الصناعتين اي صناعة النظم والنثر والف قدامـة كتاباً سماه نقد الشعر . واول من دونه ابو عبيدة البصري وبعثه على ذلك سؤال اقترح جوابه عليه احد الكتبة وهو طلعها كانه رؤوس الشياطين قائلاً انما يقع الوعد والايعاد بما يعرف مثله وهذا لم يعرف فقال ابو عبيدة انما كلم الله العرب على قدر كلامهم اما سمعت قول امرء القيس . ايقتلني والمشرفيُّ مضاجعي ومسنونـة زرقٌ كانياب اغوال . ولم يروا الغول ولكنه لما كان امره يهولهم اوعدوا به وازمع منذ ذلك الحين ان يضع كتاباً لمثل هذا وعند نجازه دعاه مجاز القرآن وهو عمدة في هذا الفن . فمن نقصى في لآلىء منظومها ومنثورها عثر على كلام يتجدر تجدر النمير على الكبد الحرّى وعلم انها انشأت في الايام الخوالي افاضل لهم السنة تكل عنها الشفار الصقيلة . ولا لبسة انها كانت في عهد الخلفاء عديمة الكفيئة يتهافت عليها جهراء العصر يستورون ازنادهم فياتون بالدرة اليتيمة . فقد لاذت بها الفلسفة القرنَ السابع

في عهد الخليفة هرون الرشيد العباسي وفي عهد ابنه المأمون الذي كان اشد رغبة من ابيه في ذلك فلقد كان يستدرج اليه العلماء فيكرم مثواهم و يجزل عطاءهم رجاء ان تنهل اكاسيب العلوم من السنة اقلامهم فسعى في ترجمة كتب اريسطو واقليدس وهيبوقراط وبنى في بغداد مرصداً يرصد منه الظواهر الفلكية وقال احد المؤرخين ان علماء العرب كانوا يبلغون في عهد الملك المنصور ستة آلاف ونيفاً ولقد كانت مكتبة اسبانيا تحوي ستمائة الف كتاب وبعد ان تخطى العرب الاحياء في القرن الثاني عشر واثخنوا فتوحاتهم في الامصار الشاسعة واقاموا في انحاء متباينة سبعين مكتبة يعز وجود مثلها في ايامنا . واحرقت في طرابلس مكتبة كانت تحوي مائة الف كتاب وكان فيها من النساخ ماية ينسخون كتباً يتنافس فيها . وقد استدعى احد الخلفاء حكيماً عربياً فثبط القدم عن النزوع اليه لافتقاره الى اربعماية من الابل تنقل مكتبته . ولقد طالما قال اهل اسبانيا ان العرب تبوئوا ارضنا واتخذوها غنيمة لكنهم عاضونا من ذلك نضاراً (عنوا بذلك علماً) ولعمري ان كثرة المكاتب العربية كانت في ذلك العصر روضةً خصيبةً تترعرع اغصانها بنضارة وازدهاء . وقد كانت تعتز بابنائها الذين كانوا يعرفون عزتها و يعتقدون صهوة الجهد لتكون وارفة الظلال فاولائك هم الرجال كل الرجال يعضون على جذء الكد بنواجذ الجد وتعقد على اعمالهم الخناصر . فليت شعري علام لا نتسنن بهم تسنناً تهش اليه لغتنا الخطيرة فقد نرى في ايامنا هذه بعضاً من ابنائها اعقةً ينكثون عنها غير حافلين بما كانت ترضعهم من لبن الادراك وهم يدرجون . فانها وايم الله يشق عليها ان تراهم لا يستوكئون ديمة فضلها بل يرون لهم مندوحة عنها و يعتزون بانهم لم يتخذوا درسها ولم يستظهروا من الفاظها طرفاً يسيراً . ورب منتقد يجهر بان يقول اننا طالما رأينا لفيفاً من المتادبين اكبوا على درسها واستمروا يفرغون سواد ليل اليراع في بياض نهار المهارق ومع هذا فلم يملكوا من حطام الدنيا نصيباً وافراً بل نراهم تلهوا بها عن ان يحيط علمهم ببعض لغات الاعاجم التي تسعدهم على ان يحرزوا من الثراء شيئاً كثيراً وان لغة تؤدي الى الانضاء قبل حفظها ليس لنا اربة ان نتقلها خبراً او نتحامل في تقصي اوابد قريضها . اما نحن فاذا اتاح لنا النقاد مجالاً اجبنا مجتنبين الوقيعة قائلين لم يخطر في بالنا ان نغري يوماً احد الطلبة بان يحجم عن كل علم و يعتلق باهداب العربية وحدها لكنما نقول ان من شاء ان يكون خواضاً في لجة المعارف يندبه الى استنضاض

دره وقوفه على كنه لغته ولا سيما لغةً تتباهى في الالسن والبلاغة والا فلا يدرك قمير بغيته ولا تستكين لعقله المعوصات ولو كان احوذياً كبيراً . فبناءً عليه اصبح من لازب الامر ان يتعلم العربي لغته ولو تجشم في المدرسة تلدداً طويلاً فلدن ذلك يتسع عليه نطاق الفهم و ينفسح له مجال الاقتباس والا فيكون كمن يود لو يرتقي الى شرفة شاهقة دفعة واحدة غير متعمد سلماً يتدرج عليه الى متمناه . ولست ايها السادة ازوّق في امتداحها كلاماً او ازلف في اطنابها فانها غنية عن شهادة امثالي . فمثلي في محاولتي تقريظها مثل من يري الناس محاسن البدر فيستظهر بان يوقد نبراساً . ولست ذا نحلةٍ في ادراك اسرارها لاخطب فيكم بما يجعل العيفان لهيف القلب لدرسها بل اتمثل باعرابي قال اني اراني كالمسن اشحذ ولا اقطع . ولذلك اتطفل على ذوي الحصافة والحذق بابراز طرفة صغيرة تشف عن بعض طرائق درسها علماً بان بعض عصابات من التلامذة يباينون المدارس احياناً وقد عرضوا من الصرف والنحو كتباً كثيرة وسلاهب اقلامهم تكبوا في حلبة الانشاء فعلى الدارس ان لا يقصر فكره في معرفة الصرف والنحو فقط وقت تلبثه في المدرسة بل لا بد له من ذرائع يتذرع بها الى الحصول على ملكة الكتابة التي قد تزلف في ما غبر كثيرون من ذويها الى ذرى المجد بسحر بيانهم وتملص غيرهم من حبائل التبريح بحسن التنصل ورقيق الاستعتاب . فيكفي الطالب ان يتفهم من الصرف والنحو والبيان القواعد الراهنة كلها غير عابيء بتنازعات بصريٍ وكوفيٍ وعليه فيلزمه ان يعمد الى اجل كتب نثرية ويستظهر افصح مقالاتها فان ذلك مما يفتق الذهن في الالمعية ويشحذ غرب القرائح ويتريث في خزانة الفكر الى ان ينصب وقت الحاجة على لسان اليراعة . وان يحفظ كثيراً من اشعار العرب مستكشفاً عن عويص الفاظها وكادحاً في حل ازرار معانيها وعاكفاً على ما تخير منها العلماءُ لما في ذلك من صحة الاستشهاد وانتزاع الامثال والاضطلاع من النوادر والشوارد وصقل مرآة البصيرة فمن اطال العكوف على ذلك فلا يلبث ان تعنو له البلاغة فتمسي ثغور الطروس متبسمة من بكاء اقلامه واصداف الاذان رائقةً من جواهر كلامه . وان واظب على ذلك كثيراً فلا يستحيل ان يصير لجبهة العصر غره ولعين الدهر قره . فاليكم يا اولي الالباب درة براقة يتيمة تبلج بها صبح النجاح في العصر الخوالي وافتخر بها قوم ادبتهم نفوسهم ورفعتهم همهم وذهبت ذكرى اعمالهم في الخافقين ومع ذلك كله فلا يفضلونكم ولا يؤثرهم عليكم القرن التاسع

عشر الذي قد اصبح غض المحتم بكل حي الفؤاد وضاءت على صلت جبينه درر المدارس والجرائد

القرن التاسع عشر

« لفرنسيس فتح الله مرّاش الحلبي »

من هذا الفتى المقبل من عالم الانوار · اللابس سربال المجد والاقتدار · المتمنطق بنطاق السطوة والانتصار · من هذا الفتى المتلالي بالبهاء والجمال · الرافل بذيول الوقار والكمال · المختال في السعادة والكرامة والاقبال · من هذا الفتى المتزين بالعلم والادب · المتجمل بالتمدن والتهذيب والذهب · والمتحلى بحلي الوطر والادب · من هذا الفتى البالغ في مرقاة الاجتهاد الى اقصي درجات السمو والارتفاع · الواصل الى اشم قمم الفلاح والانتفاع · هذا هو القرن التاسع عشر الذي اطلع على غرته كل شموس القرون الغابرة · ولبس كل كرامة الاعصار الغابرة · وتمنطق بكل قوة الازمان الدابرة · هذا هو القرن التاسع عشر الذي تلألأ بانوار محاسن الخليقة وجمال اسرارها · ورفل بمهابة الطبيعة وكمال اطوارها · واختال في كل المقدرة والظفر · وتناهى بالغنى والثروة والقدر · هذا هو القرن التاسع عشر الذي تزين بعلم الموجودات ومعرفة الكائنات · وادراك الواجبات · وتجمل بتنظيم النواميس والشرائع · وضم شمل الهيئة والمواقع · ورفع صولجان العقل القاطع · هذا هو القرن التاسع عشر الذي بلغ اعلى مراتب الكمال وارفع درجات المعالي والفخار · وجلس على رؤوس الادهار · فماذا جعل هذا القرن سلطان القرون · والبسه تاج المجد المصون وما الذي اطلعه في هذا الوجه الوسيم · واكسبه ذلك الفوز العظيم · وكيف قد بلغ هذا المحل البازخ · وتبوأ ذياك المقام الشامخ · هو العلم الذي مهد له المسالك · واوصله الى ذلك فهلموا بنا يا بني الوطن الى اكتساب العلم والاجتهاد في فلاحه ونجاحه وتشييد مدارسه وتوطيد مكاتبه ولا نلتفت الى اعدائه واخصامه الذين اما لجهلهم او لبعض اغراض لهم يسعون في تدمير العلم وكل مبانيه لانه وائن كانت انوار العلم والادب في هذا القرن الجديد قد درات غياهب جهالة القرون العتيقة

وحماقتها وانه ولئن كانت رياح التهذيب والتمدن في هذا الجيل الحاضر قد قشعت غيوم خشونة الاجيال الماضية وتوحشها فمع ذلك لم يزل الان يوجد قوم من مردة الفلاح و باغضي الصلاح يسعون في سد سيل الاداب عن البشر وحجب كل نور عن ابصارهم فما كانوا ليخلعوا انسانهم العتيق ذي الطباع الخشنة والسجايا الوحشية حتى ان العامة تخالهم بقيةً من جماعة القرون الوسطى فهولاء القوم لما رأوا ان انتشار العلم وفلاح الاداب ياول الى الضغط على شهواتهم وكشف بهت جهلهم اخذوا يحاربون العلم والعلماء ويقذفون على كل ساعٍ بتعليم الجهلاء وتفتيح بصائرهم وقد بلغ منهم بغض العلم اعلى شاوٍ حتى ما عاد يمكنهم النظر الى عالم او طالب علم بحيث اذا وقع نظرهم على هكذا انسان اخذتهم رجفة الاضطراب وبرقعت وجوههم صفرة الموت وغشاوة الغضب واخذت فرائصهم ترتقص وترتعد ولو امكنهم لوثبوا عليه وثوب المفترس وعاملوه حسب جهلهم وغباوتهم وما ذاك الا لان العلم خصم اغراضهم وعدو احتشارهم فلا بدع انهم يرومون هدم كل مدرسة بفاس الجهل وبخل كل هداية بمنجل الضلالة ولكن السماء والارض تزولان وحرفٌ من ارادتهم لا يتم لان بينهم وبين سعاد قمم الجبال ولجج الاهوال فليحنقوا على العلم حنق الخنافس على النحل وليغضبوا على العلماء غضب الخيل على اللجم وليضربوا في حديد بارد حتى نرى متى يصيب سهمهم الثغرة · وهيهات فالعلم للانسان كالثمر للاغصان والهدى للبصائر كالنور للابصار فاننا اذا نظرنا الى الانسان من حيث فطرته الطبيعية فلا نراه الا حيوانًا محضًا كسائر الحيوان على انه يغتذي وينمو ويعيش ويتحرك نظير كل نوع من الجنس الحيواني وهكذا بالنظر الى وظائفه واعماله الطبيعية · ثم اذا نظرنا الى الانسان من حيث مزيته الادبية نراه يختلف عن سائر الحيوان اختلافًا لا مزيد عليه واذا اخذنا نبحث على سبب هذا الاختلاف العظيم فاننا نجده ناشئًا عن تلك القوة العجيبة المزين هو بها اعني العقل النطقي اما هذا العقل فلا يوجد في الانسان مخلوقًا في نفس فطرته بل يوجد فيه على طريقة الاكتساب المتدرج مع تدرجه في العمر · وجل ما يوجد في الانسان طبعًا اي في نفس فطرته انما هو مزية القبول لهذا العقل وهذه المزية توجد في نفسه الناطقة فينتج مما تحصل ان العقل لا يحصل في الانسان الا بالاكتساب · اما هذا الاكتساب فانه يتم مما يدركه الانسان بحواسه ويتلقنه من اشباهه ويطلع عليه من اثار اسلافه واعماله فاذًا تكون سعة العقل بمقدار سعة الاكتساب وهذا

ما يقال له العلم وهكذا بمقدار زيادة العلم يزيد الفرق بين الحيوان والانسان وبمقدار نقصانه ينقص ذلك الفرق

اما الانسان بدون الاكتساب والعلم فهو حيوان بهيمي ووحش ضارٍ وربما كان افظع حالة من كل البهائم والوحوش الضارية ولنا على ذلك دليل مما يقصه علينا سواح الامصار المنقطعة ومكتشفو قارتي اميركا وهولندا الجديدة عن احوال البشر المتوحشين الذين ياهلون تلك الجهات فهم والوحوش يسكنون غواب عراة ويتضايفون لحوم بعضهم ويتكلمون بلغات تشبه رئم الوحوش ولهم كما للوحوش مع انهم بشرٌ نظيرنا ولا امتياز ما بين طبيعتهم وطبيعتنا ولكن انقطاعهم عن عالم مخالطتنا في شسع بعيدة كان سبباً لعدم تخليق الانسانية فيهم اذ ان المزية الاكتسابية منهم كانت فاقدة كل مهذب ولذلك يوجدون على اصل الفطرة . فكما ان الاكتساب العقلي ينقل الانسان من الحالة الوحشية الى الحالة الانسية هكذا العلم ينقله من حالة الغفلة الى حالة النباهة ومن قيود الجهل الى حرية العقل على ان كلاً من البشر يعود بالعلم حرًّا فلا يتسلط عليه عدوٌّ مغتصب . ونبيهاً فلا يخدعه الغشاشون . وحازماً فلا يميل مع كل ريح . وشجاعاً فلا يخشى تهديد الطاعين وتوعد المتحشدين وقوياً فلا يبالي بصدمات الاعدا وزعازعهم . وفقيهاً فيميز الحق من البطل والصواب من الخطا والعدل من الظلم ويعطي كل ذي حق حقه ويعلم اين مرتبة كل من اشباهه البشر ومدارها هذا وان العلم من شأنه ان يهذب الانسان ويحسن تربيته ويصلح فساد فطرته ويجمل ويزين اعماله ويكبر مقداره ويعظم افكاره ويجعله انساناً لا بهيمة وبشراً لا وحشاً ويفتح بصره وبصيرته ليرى الحقائق ويميز الطرائق

فعلى كلٍّ السعي وراء العلم والجد والجهد به دون اكتراث باعدائه الذين لرعاية اغراضهم يوسوسون في صدور الناس على مقت التعليم لان من هولاء الاعداء من يرى ان العلم يضر بتسلطه وتسوده ومنهم من يرى انه يضر بخرافاته التي يرغب زرعها في حقل الانسانية ليحصد ما يروي شهواته ويشبع مطامعه ومنهم من يرى ان العلم يضر باكاذيبه واضاليله التي يتاجر بها في سوق الجهل لربح الثروة والرفاهية ومنهم من يرى ان العلم يضر بمراياته ومداجاته بحيث اذا اميط هذا القناع عن وجهه لدى البشر تظهر حينئذٍ شوائب نفاقه التي كان ينصبها شراكاً لقنص سذاجة القلوب وسلامة الضمائر فيعود بصفقة المغبون مصفوعاً بالخجل والوجل ومنهم من يرى ان العلم

اذا عم يضر باختصاصه به فيحمله الحسد الجهنمي على كرهه وابعاد الناس عنه · فلا ريب اذًا ان مثل هولاء يبغضون العلم لكي يمكنهم الجهول من تقييد الناس بقيود اغراضهم وخفض الاعناق تحت نير شهواتهم لانهم يرغبون ان البشر تكون كالثيران لحراثة حقول اوطارهم واطماعهم وربما حمل البعض هذا اللؤم والرياء على الضرب والطعن في ابائهم وامهاتهم بدون مراعاة حقوق التربية والاصل · فيكون مثلهم كمثل العفو الذي وهو يرضع لبن امه ينطح ضرعها ويشخبه فحذار ياطلبة العلم حذار وبدارِ يا بني الاوطان بدار

ولنسد السمع عن كل مهذار ولنقطع رباطاتهم ونلق عنا نيرهم واعلموا ان العلم وحده لا يفيد الطالب شيئًا اذا لم يكن مقرونًا بالعمل · لانه يكون عقيمًا كالشجر العديم الثمر · ولما كان الغير مثمر غير مفيد كان العلم بلا عمل غير مفيد وهكذا فيكون صاحبه على هذه القضية المعدلة عقيماً وغير مفيد للناس · ولا ريب ان العمل هو زينة العلم كما ان الثمر هو زينة الغصن وجماله اذ به تحصل الفائدة ويتم المراد · اما العمل فهو يقسم الى ثلاثة اقسام الاول عمل الانسان نظرًا الى ذاته والثاني عمل الانسان نظرًا الى بقية الناس والثالث عمل الانسان نظرًا الى الخالق

فعمل الانسان نظرًا الى ذاته انما يتم بمراعاة خيره الذاتي وما يؤول الى صالح وجوده بين الكثيرين ولا بد ان يكون لهذه المراعاة ناموسٌ تجري عليه وهذا الناموس هو الصواب والفطنة · فالصواب يدعوه الى محبة ذاته وهذه المحبة تدعوه الى الجد في سبيل معيشته لحفظ حياته والى السعي وراء الاتعاب والصعوبات لنوال الراحة والترفه والى الجهاد في سبيل العزائم والعظائم للحصول على الاعتبار والصيت فبما انها تلويه عن الكسل حذرًا من العوز وذل السؤال · وتحيده عن الخمول والفتور فرارًا من ازدراء الجماعة به وعن الضعف والجبانة دفعًا لعدّه هملاً وسقطًا وذليلاً وتنهاه عن الانهماك والافراط خشيةً من هجوم العاهات والافات عليه والفطنة تامره باصلاح سلوكه بين الاخرين وبالمسير في طرق الحق والاستقامة وبحبه القريب وتنهاه عن الفساد والغش والمكر والختل والكذب والنفاق والمراياة والمداجاة والاغتيال والغدر والنهب والسلب والعدوان والعنفوان والصلف والغطرسة والتجبر والشطط وذلك ليكون محبوبًا من الناس ومقبولاً · لا مبغوضًا منهم ومرفوضًا وكل ذلك يكون نتيجة محبة الانسان نفسه على ناموس الصواب والفطنة · ومن لا يعمل هكذا يكون باغضًا ذاته لان من عمل

صالحًا فلنفسه

اما عمل الانسان نظرًا لبقية الناس فهو يتم ببراعاته خير الكثيرين وصالح هيئتهم وذلك بجري على هذا المبدا العام افعل مع الناس ما تريد ان يفعلوا معك . فاذًا يجب صنع المعروف بين الناس اذ على ذلك يقوم هذا القسم الثاني وهذا المعروف الذي يرغبه الانسان لنفسه طبيعيًا انما هو الاحسان الى المحتاج والاخذ بيد المظلوم والبائس ومؤاساة المنكود وعون المنكود ومداراة العميد والمريض وجبر الكسير والمهيض والشفقة على الملهوف والمتلوف وتعليم الجاهل وتثقيف الغافل وارشاد الشديد وغوث الطريد واشهار التصانيف والصحف التي من شأنها ان توالف بين قلوب البشر وتلقي الوفاق عند الشقاق والصلح عن القتال والحب عند البغض والخير عند الشر . اما عمل الانسان نظرًا الى الخالق انما يتوقف على الايمان بعزته تعالى وهذا الايمان لا يصح ما لم يكن مقرونًا بالاعمال المطلوبة منه عزّ وجل على انه بدون الايمان تكون الاعمال مائتة كما ان الايمان بدون اعمال يكون مائتًا ومن شأن العلم والعمل استظهار الحق والصدق بين البشر والانتصار لهما لايجاد العدل والسلامة قال النبي والملك داود

الحق والعدل تلاقيا والصدق والسلامة تلاثما

فلا يصلح العلم والعمل ما لم يكونا مرتبطين بالحق والصدق لايقاع العدل والسلامة فاذا خامرهما الزور والنفاق عادا فاسدين وكان ربهما جائرًا وضائرًا فالحق خليق بان يكون الدعامة الاولى التي يقوم عليها بنيان كل شيء على انه بدون هذه الدعامة الاولية يكون كل بنيان سخيفًا ومقلقلاً . ولا بد من هبوطه ومن عادة الحق الا يختفي ولا يستحي ولا يماري ولا يلوي وجهه ولا يهلع ولا يهجع . فلا يمكن لجميع غيوم الزور والبهتان ان تبرقع محياه مهما تكاثفت وتراكمت اذ لا بد وان يتخللها نوره و يمزقها و يقشعها ليبدو جبينه ضاحيًا صاحيًا فيقتبسه المستهدون . ولا يمكن لجميع التمليق والمداهنات والملاسنات ان تحمر وجهه او تتلاعب به . ولا تستطيع جميع ثروة العالم ان تحوله عن الصواب . ولا تقدر جميع المزعجات ان ترده وتقهقره . ولا تطيق جميع مضارب السيوف ومطاعن الرماح ومواقد النار وسلاسل الحبوس والسياط والقيود ان تذبحه او تعزيه او تحرقه او تعله او تجلده او تقيده . ويستحيل على جميع مسكرات الاغراض او مخدرات الشهوات ان تغمض اجفانه الساهرة . وهكذا فالحق حق هو ويستحيل زواله . ومتى وجد هذا الحق وجد العدل . لان الحق والعدل يلتقيان

ومتى زال الحق زال العدل لان الحق والعدل لا يفترقان . فاذاً عدل الانسان رضي الحق عنه واثابه الفلاح وحسن الرجعي . اما اذا ظلم وتعدى اقر بفساد سيرته وسريرته وكان للحق جحوداً ومن الله مردوداً ومن ضميره مرضوضاً ومن الناس مرفوضاً اما الصدق فهو ابن الحق وهو كابيه يستنكف ان يختفي ويستحي ويترفع ان يماري ويحابي ويانف الملع ويسام الهجوع ولا يمكن للمقاومات والقوامع ان تقاومه او تقمعه وكل قوات الكذب والنفاق توجد امامه كالهباء الذي تذريه الريح على وجه الارض . وهكذا فمتى حصل الصدق حصلت السلامة . ومتى زاغ الصدق زاغت السلامة . لان الصدق والسلامة يتلائمان ولا يتنافران

فاذا لم يضع الانسان في بناء علمه وعمله قاعدتي الحق والصدق كان كل بنيانه وهناً واقل صدمةٍ تهوي به الى الحضيض وهكذا يكون جانياً على نفسه لا يتلف صيته ومقامه . وجانياً على الناس لانه يغشهم ويغري بهم . وجانياً على الله لانه يكون من اولئك الذين يخادعون الله وهو خادعهم ولا يخدعون الا انفسهم

فبالصدق اذا تحصل صيانة المعيشة وراحة الضمير وهدو الصيت . كما انه بالكذب تقلق تلك ويتبلبل هذا ويضطرب ذاك ولنا دليل على ذلك من الذين يرتكبون النفاق والكذب مراعاة لزمانهم واغراضهم بحيث يظهر للناس كذبهم بكل حرف من كلامهم وبكل خطوة من اقدامهم وبكل حركة من وجوههم مهما تظاهروا بالصدق وجروا ذيل العجب والخيلاء . فتكون والحالة هذه معرفة الناس باحوالهم اشد عقاب واعظم قصاص لجرائم سجاياهم وقد قلت —

كذبتُ فاحترتُ في الدليل ومذ صدقتُ كان الدليل في النطقِ
ومن شنار الخطا نجوت ولا بدعُ فانَّ النجاة في الصدق

وقال الحريري في مقاماته

عليك بالصدق ولو انه احرقك الصدق بنار الوعيد
وابغِ رضى الله فاغبى الورى من يسخط المولى ويرضي العبيد

فهبوا من رقادكم يا جميع ابناء الوطن وادخلوا في مراسح العلم ومسارح المعارف والاداب لتكونوا اولاد هذا العصر الجديد وابناء بجدته واخلعوا عنكم اسمال الجهل والغفلة والبسوا سربال الهدى والنباهة لتوجدوا اخصاء ومختارين في عرس هذا الفتى الميمون اي القرن التاسع عشر الذي يزف على عروس الفلاح والنجاح

الكون العاقل

« لفرنسيس مرّاش »

ما كنت ايها الكون العاقل لتجد في الوجود نعيماً وعلى الارض عيشاً سليماً · فقد استحدثت بمزاياك حوادث الضناء · واستوجدت بسجاياك كوارث العناء فكن طريداً بسياط اعمالك وشريداً بزياط افعالك · اني استقبلت واستدبرت وكيفما تاملت وتدبرت · حتى مَ يسرك الغنم وهو اب الغم وعلى ما يسوؤك الغم وهو ابن الغنم فما اقترارك الا عبارة قرب وجومك · وما اسفرارك الا اشارة غرب نجومك · عقلت فكان عقلك جحيم جهلك · وجهلت فكان جهلك نعيم عقلك · وقد استثارتك جوانح الطمع حتى ترويت على الممكن والممتنع · ومذ استطلعت طلع كل حال وعلمت ان الدوام محال رجعت كالعمود المنجود مصروعاً بصراع هذا الوجود · فما الخلد باعمى منك حساً وما الفراش بارمى منك نفساً · تذم مكائد الدهر وانت ابنه وتشين افعاله وفي راسك ذهنه فلا تذمنَّ الا فعلك ولا تشيننَّ الا عقلك · خلقت على الارض سلطان الجميع يسجد لك كل رفيع ووضيع · فترفعت على الخليقة وتبهنست ونوعت ظلمكها وجنست فافسدت وسحرت وعقرت ونحرت واستخدمت وسخرت وتدمت واخرت وامتريت وجزرت وهصدت وهززت · واقتنصت الوحش من الغاب واصطدت الحوت من العباب · ورهقت النسر من السحاب · حتى نسفت الجبال فكانت مهاداً وانشات المهاد فكانت اطواداً · وانضبت وانبعت وسددت وترعت فما راقك كل ذلك وحصحص الكبر في بالك وقلت انّي اعيش والوحوش سويا واكون مثلهن وحشياً فما كنت لاسكن الاوكار الصغائر وما خلقت لاعشو الى المغائر · حيث ترعدني القواصف المنقضة وتفرقني السحب المنفضة · وتصرعني الزوابع الجامحة وتصفعني الرياح الرامحة وتصليني الرمضاء نارها وتكسيني الحصباء شرارها فليَّ بمبيت المضارب لا من كل مضارب · فاكون في عشيرتي اميراً وعلى قومي كبيراً وهكذا فقد نصبت خيامك ورفعت مقامك · ولما قطعت الزعازع تلك الاوتاد والاسباب واودت الانواء بهاتيك القباب · قلت ما هذا البيت الواهي والمقام الداهي · فلابنين مدينة ذات اسوار شماء ولارفعنَّ برجاً ينطح رواقه السماء · فاتمتع السرادق المحسنة واتمنع المعاقل المحصنة · وارتدي الصوف والخز واتوسد الريش والجز · واكل مرياً واشرب هنياً حتى ادرأ صمة

الحيوان واسيم سمة الانسان · فاكون ابن بجدة العادة واخا كل سطوةٍ وسيادة · فلما ابتنيت ايها الكون العاقل ورفعت وتمتعت و تمنعت وارتديت وتوسدت واكلت وشربت وتهذبت وتادبت · وصلت صولاً وطلت طولاً · سالت جوامد نفسك على شفرات اعمالك وجمدت سوائل انفاسك على زفرات اميالك · فاظمأ جوانحك جفاف الفجر وخامرت جوارحك شوائب الضجر · حتي غدوت مرسحًا لملاعب الخُطوب ومسرحًا لدبائب الكروب · ومسقطًا للامراض الوافدة ومهبطًا للاعراض الفاسدة فانرضت راسك وانقبضت نفسك · وقلت بئس التمدن والانضمام ونعمْ الشتات والانفصام · فالى مَ ايها الكون العاقل تروغ في خيمك السقيم وتزيغ عن السراط المستقيم وان فاطرك لربٌ عظيم · بينا تستطيب سؤْلك تستعيبه وتجه وريثما تشكو حرثك تشكوه وتحجه · قل ناشدتك الله ماذا يجديك و يسديك واية حالة ترضيك ولا ترديك · فان تكن في املاق تقل حقًا ان لو اثريت اقذفت العناء بالغنى وخلبت بالاماني مخالب المنى · وقطفت ثمر اللذات من يوانع المال · واستطلعت من شمس الدينار انوار الامال · ولكنت هصرت غصون السعد وعشت كل رغد فانج من لفحة الضرّاء وانعم في ظل السراء حيث لا وصبٌ ولا نصبٌ ولا تسهد ولا وجعٌ ولا حزنٌ ولا تنهد بل طرب وارب وسرور وفرحٌ ومرحٌ وحبور حتى اذا ما بلغت غناك واصبت مناك اخذت تنازعك عوامل الاطماع وتصارعك شواغل المتاع وتخاصمك اخصام المقام وتهبُّ عليك كوامن الاسقام · فيلازمك بلبال البال وتخاصرك اخطار الوبال · ولما رضَّ ثقل النضار رضوى طاقتك وخسف ظليل الغرور شهاب حذاقتك · ولم تذكر ايام وعث نقرك وآلام حرث ففرك · قلت ما اكثر هموم همي واشد غموم نعمي · فقد صرت اسير مقامي وعبد ارقامي وأليف خدم وحليف حشم · وقد ارتبطت بقيود العادة ووقعت تحت حدود السادة · والتزمت برفد المسترفدين · ونجد المستنجدين · وترويج الكاسدين ومداراة الحاسدين وقطع لسان النمام وردع مين الهمام · وحذر الغالب وخوف السالب اه لو كنت سيدًا كبيرًا وعلى قومي اميرًا لكنت اصلحت شأن الامم واهبطت الفساد هاوية العدم ولم ادع للشر من قدم ولكنت رفعت مناقبي على مناكب القدر واثبت كوري على الشمس والقمر واريت كل عين خار الاثر فاكون خلو البال من مكائد الكبير والصغير ومرتاح الفكر من وخز شوكة الضمير · فما لبثت ايها الكون العاقل ان سطوت على القوم باموالك

وسحرت المعوزين بافوالك · ولم تزل تزرع في القلوب مواعيد القضاء حتى حصدت اصوات الرضاء فانتدبك القوم اميرًا واصبحت كما تمنيت كبيرًا · فشرعت تفسد في الارض شر الافساد وتجور على رقاب العباد · وتفترض غرائض الظلم وتعلق راحة السلم · حتى جعل الناس عليك يأتمرون والروس يحركون · فجبن جيشك وتنغص عيشك · فقلت ما اتعس عيش الامير وانحس حظ الكبير · ويحي فمن لي بان استميل كل القلوب واستعطف الدهر المقلوب · فكيف وقد خلق البشر في خلف الطبائع يدخلون في وفق الشرائع · فلا استطيع تغيير فطرتهم وتبديل بشرتهم · حتى يبيض سواد جلد الحبشي ويزول تبقيع النمر الوحشي · ولكنَّ الجهل اذا فشا فعلت بهم ما اشا · واذا سرت البغضاء بينهم اسرت دينهم ودَينهم · وان عضت افاعي الضلال اعقابهم ملكت رقابهم وعقابهم وقلبت اسماءهم والقابهم · فقاتل الله العلم والتمدن انهما اصل العنت والتفون · وهذا عدو السيادة وذاك خصم العبادة فمنهما التمرد والعصيان وعنهما الشغب والعدوان · فويلاه من ضعفي في قوتي وعجزي في سطوتي · وكيف لم يصدق حدسي وحلمي اذا رأيت الناس خلقوا لحكمي · فلا ارتاح من هذا المرض والقرض ما لم اقبض كرة الارض · فاقلب شرعَ البشر وانفذ امري في القدر حتى ارى الانام تحت رجلي والايام تعنو لدي فاكون في حياتي مفراحا وعلى عرشي مرتاحا · فطفقت ايها الكون العافل تشنُّ الغارات الشعواء وتسن الحرب والهيجاء · وتقلق هدوَّ الاكوان وتسقي الارض دم الانسان · حتى ظفرت بوطرك وغلبت بظفرك · وقبضت الصولجان وحكمت الانس والجان ولم تلبث ان تثاقلت على الثقلين ودعيت بذي القرنين · وهكذا فريثما كانت نسور الظفر تخفق عليك وشهد المجد يقدم لديك · واذا النعش يصحصح امامك والعرش يتنحنح مقامك · واسد الموت يزار حولك ليلتقم طولك وصولك والقصر ينفر عنك والقبر يدنو منك ودنياك تمر كالسحاب ونماك تباد كالضباب فاضجعت على فراش الزوال وعلمت ان الخلود محال · وقلت ليتني لم اخلق ولم اذق هذا الحكم المطلق · فما هذي الدنيا الغرور وهذا السرور المشوب بالشرور · فالكل يطحنه تيار الزمان تحت رحى الدوران · اين الغنا والحطام اين السنا والمقام اين المجد والسعادة اين الولاية والسيادة · اين العرش والصولجان · اين الاكاليل والتيجان · اين النهي والامر اين الفوز والقهر فهل كل ذلك قد عبر ومضى وغبر وانمحت العين والاثر · فما اجهل المرء في

الوجود . وما اشقاه في النحوس والسعود . كل يزول ويفر ولا شيء يدوم ويقر . وما جهد الفتى الا نسيم الامل تستلذه النفس في حر الملل . وما الحطام الا ظلال الغرور البهيم ان امتد فالنعيم واذا تقلص فالجحيم . فاعلموا ايها الملوك وتادبوا وافهموا يا قضاة الارض وتهذبوا . وانت ايها الكون العاقل كن صبوراً في محالك وشكوراً في نداك واقنع بما كسبت يداك . ولا تتذمر على الله اذا وطاك ولا تتعالَ عليه اذا علاك . وكن ماضياً بين يديه وراضياً بما انت عليه . ولازم النفع واهجر الضير وحد عن الشر واصنع الخير . واعلم انك زائل ايان ترحل او تحل وما حياتك الدنيا الا دخان يتعالى قليلاً ثم يضمحل

الحقوق والواجبات

« لاديب بك اسحق »

تمهيد

اقدمت على البحث في هذا المطلب والساذج الفطري مقدام اعلم من نفسي العجز ومن ذهني الضعف ولا اجهل صعوبة المبحث واختلاف الطرق وتنوع المذاهب فيه الا انني اجد من النفس ارتياحاً اليه ومن الفكر انبعاثاً عليه واخال ولعلني من المصيبين ان على كل من الناس واجباً من النظر والبحث في كل ما يتعلق بذاتية الانسان والهيئة الاجتماعية بما يأمل منه حصول النفع لهما جميعاً وان وجوب هذا الامر مستلزم لحق القيام به فانا فيما احاول اخطأت فيه او كنت مصيباً ذو واجب ينهض بما وجب عليه وذو حق ياخذ بما حق له

ولا التمس لنفسي عذراً فيما عساه ان يؤخذ عليَّ من ضعف حجة او فساد بيان او ضيق معرفة او التواء معنى اني اعرض لاخواني في الانسانية ما علمت وما علمت وليس الذي علمت وعلمت كثيراً فان اصابوا بين السقط الذي يلفظ شيئاً يحفظ فلا اسف على الجهد والا فلست اول مخطىء في الناس ان اولهم اول ناس

المبحث الاول

في تلازم الحقوق والواجبات

البقاء من لوازم الوجود . فالانسان من حيث انه موجود مكلف بحفظ ذاته

ترشده البداهة الى معرفة النواميس الطبيعة الضامنة لذلك الحفظ

والحيوان الناطق داجن مؤالف بالطبع فالانسان من وجه انه مدني مكلف بحفظ نوعه تهديه القوة العاقلة الى الاحكام الادبية الكافلة لذلك الحفظ

فلذاك هو الواجب الذاتي وهذا هو الواجب النوعي وهما طبيعيان لازم وجودهما في الناس لزوم العلة المبقية للعلة الموجدة

فاذا تبين ذلك علم انه لا بد للانسان من الحرية الطبيعية في القيام بذينك الواجبين فثبت له بذلك حق واضح وهو حق اجراء ما وجب عليه

فالحق والواجب من حيث الطبيعة متلازمان لا يقوم ولا يكون احدهما بدون الاخر فمن استلب ذلك الحق نريد الحرية الطبيعية فقد منع الانسان من قضاء الواجبات واهان النوع البشري وخالف ارادة الخالق الحافظ سبحانه وتعالى اذ كيف يستطيع المرء حفظ ذاته اذا منع مما لا بد منه للبقاء وكيف يحفظ نوعه اذا قطع عما لا ندحة عنه في الاستبقاء

وهذا الحكم وان كان ظاهره مقصوراً على الواجب والحق الطبيعيين في حفظ الوجود الانساني ذاتاً ونوعاً الا انه يتناول لا ريب الواجبات والحقوق في الحالة المدنية فان احتياج الانسان الى هاته الحالة في حفظ الذات والنوع قد اوجب عليه صيانتها بقانون ادبي على مثال الناموس الطبيعي فكانت احكام ذلك القانون كما قال منتسكيو حكيم الفرنسيس بياناً للصلات الضرورية الناتجة من طبائع الاشياء فلزم من ذلك ان يكون على المرء في مدنيته واجب يقضيه بحق يعينه على القضاء

فاتضح من هذا الذي بسطناه ان الواجب غاية واسطتها الحق فمن اوجب الاول لزمه اعطاء الثاني . ان الله تبارك وتعالى لم يمنح الانسان حقاً من حيث انه فرض عليه واجباً فالحق ملزم بالواجب والواجب مستلزم للحق

المبحث الثاني

في اقسام الواجب والحق

تبين مما سلف ان الحق والواجب متلازمان لا يكون احدهما بدون الآخر في حال من الاحوال فكل ما نعينه من واجب يتناول حقا وكل ما نبينه من حق يحتمل واجباً

ومعلوم ان كل موجود عاقل كاف بذاته حريص على حفظها فان اول ما يظهر من عواطف النفس الشاعرة بالوجود انما هو حب الذات ومن احب شيئاً حرص عليه وان حفظ النوع من احكام الطبيعة ٠ فطر الانسان على الرغبة فيه كما هدت البداهة سائر الحيوان اليه ٠ فهذا الحكم الطبيعي منتج بالضرورة للحالة الزوجية التي ينقاد الانسان اليها بالفطرة الحيوانية ثم يراها من حيث انه عاقل فرضاً واجب القضاء فتبث في قلبه ميلاً جديداً يتحد بحب الذات فينشأ عنه في النفس لذة لا تنال ولا تدرك في العزلة نريد الحب الجامع بين الجنسين الواصل بين الزوجين الذي تنوعت مظاهره في عالم الوجود والمّ على اختلاف تجلياته بكل موجود فهو في الزوج عشق وفي الوالد حنو وفي الولد بر وفي الاخ وداد وهو هو في كل حال يفعل في النفس الطاهرة ويؤثر في القلب السليم الى حد ان يلتبس امره على الانسان فلا يدري اكان قائماً بواجب من الطبيعة ومتوليّاً من ذلك الواجب حقّاً ام كان مائلاً مع الشهوة ساكناً الى اللذة آخذاً بما يجلب له الرضى والسعادة

فهذا الحفظ النوعي وذلك الحفظ الذاتي يتعلقان بالانسان من حيث هو اي من النوع البشري ٠ فهما منشأ الحق والواجب الطبيعيين وهذا هو القسم الاول من الحقوق والواجبات

وظاهر ان للانسان في الحالة الاجتماعية شاناً جديداً ينتقل فيه من الزواج الى الاسرة وهي العائلة ومن الاسرة الى الامة ومن الامة الى الانسانية فانه له من هذا الوجود حقوق معينة وعليه منها واجبات معلومة ٠ فما يختص بالعائلة من هذه الحقوق والواجبات من وجه المعاملة الشخصية والحدود المالكية ٠ وما يمس الامة من حيث اقامة الامور وصيانة الاستقلال ووجود المساواة ٠ وما يتعلق منها بالانسانية من حيث تقريب الصلات وتأمين الوفود وتيسير التجارات وتمكين السلم وحفظ المصالح العمومية ٠ كل ذلك يعرف بالواجبات والحقوق السياسية

وما كان من هذه الحقوق والواجبات متعلقاً بالمعاملة بين الافراد من وجه كف الظلم ومنع الاعتداء وحفظ الحق وصيانة الضعيف من القوي ووقاية الفقير من الغني ورد المال المسلوب ومعاقبة الظالم وارضاء المظلوم واجراء سائر انواع المعاملة على محور الاستقامة والعدل ٠ وكل هذا يسمى بالحقوق والواجبات المدنية

ولهذه الاقسام الكلية فروع كثيرة نذكرها في عرض ما يجيء تفصيلاً او تحصيلاً

المبحث الثالث

في الحقوق والواجبات الطبيعية

وهي احكام الشرائع الطبيعية النافذه في النوع الانساني مستقلة ومنفصلة عن كل شريعة دينية وكل سياسة مدنية

وقد وجد لهذه الاحكام في كل زمان ومكان اعداء الداء من اهل القوة الحسية والقوة المعنوية ممن يتسلطون بايديهم على الابدان وممن يستولون بالسنتهم على الاذهان . اولئك لم يعترفوا بغير الاحكام التي هم اربابها وهولاء لم ياخذوا بغير القوانين التي هم اصحابها . وما بين الفريقين معظم النوع الانساني حاشية يتبعون او عبيد يطيعون حتى استنارت الافهام ونشطت من ربق الاوهام فصار او كاد يصير لكل من الناس حد لا يتعداه وخط لا يتخطاه

ومن المعلوم ان الخالق الحكيم القادر العليم منزه عما يخالف الحكمة ويغاير القدرة ويناقض العلم الحق فالاحكام الطبيعية الناشئة عن عنايته الازلية ان هي الا كلمته الحق المعروفة من ازل الباقية الى ما لا يزال الكافلة لحفظ الوجود بوقاية كل موجود ولذلك عرفت في كل زمان ومكان وما اختلف فيها اثنان . فقد بدت لارسطو كما ظهرت لبسكال ورآها افلاطون كما شهدها نيوتن وتبينت لشيشرون كما علمها فولتي وانجلت لسائر المتبصرين فائقة على القدرة الانسانية غير متغيرة في حال من الاحوال حيةً في قلب كل انسان منقوشة على الواح الصدور واحدة في كل الازمنة والامكنة والاشخاص بقدرة الذي اوجد الازمنة والامكنة والاشخاص

فهذه الاحكام الطبيعية المقدسة تصل الانسان بذاته صلة قوية ينشأ عنها واجب الحفظ الذاتي فتصدر عنه العاطفة المسماة بحب الذات وتصل بين جنسيه فينشأ عن هاته الصلة واجب حفظ الجنس فتصدر منه العاطفة التي اذا كان موضوعها الزوجين سميت حباً وان كان موضوعها المولود سميت حنوًّا او حباً والديًا وان كان موضوعها الوالدين سميت برًّا او حباً ولديًا . وتصل بينه وبين ابناء نوعه فينشأ عن هذه الصلة واجب حفظ النوع فتحصل منه العاطفة المسماة حب الانسانية

فما اعظم حكم خالقه وما اعمّ العناية الرحمانية ان الله سبحانه وتعالى ما فرض علينا الواجب الا من حيث تميل النفس وتنعطف الارادة ويسكن الطبع فقد كانت شرائعه الطبيعية عواطف نفوس وشهوات قلوب قبل ان تكون احكام فكر وعقل فهي الحب

الجاذب الواصل الحافظ الذي ذكره الشاعر الثاني في (وليحب بعضكم بعضاً فهذه هي الشريعة وهذه هي النبوات) ولا ريب انه جدد النواميس القديمة جملة بهذه الكلمات

وايضاً فقد وصلت الاحكام الطبيعية بين الانسان والاشياء فكان المرء حرًّا في استعمال ما يحتاج اليه في واجبات الحفظ فهو في حالة الطبيعة مالك العالم باسره الا ان هذا الحق غير مخصوص بواحد من النوع وانما الناس فيه سواء لكل منهم ما للآخر بلا فرق ولا استثناء . فالعالم من حيث انه الكل لا يكون لواحد منهم بالذات وانما يتمتعون به على حد سوى . ولكن لما كان موضوع هذا التمتع الحفظ كان من حق الانسان استعمال كل شيء فيه ولم يكن من حقه الافراط في شيء

هذه اصول الاحكام الطبيعية متضمنة لما يختص بها من الحقوق الواجبات اوردناها مجملة كما رأيت وسنفصلها في المباحث الآتية كما سترى

المبحث الرابع

في الحقوق والواجبات الذاتية

فصل

تبين في البحث السابق ان حفظ الذات راس الحقوق والواجبات الطبيعية فثبت بذلك ان الانتحار اي قتل المرء لنفسه مخالف للحكم الاول من القانون الطبيعي الا ان هذه القضية وان كانت مسلّمة لانطباق نتيجتها الصريحة على المقدمة الصحيحة فلم تسلم من اعتراض الفلاسفة المغالطين فقد راينا منهم جماعة يجيزون الانتحار و يبرئون مرتكبيه بادلة مما يلائم ضعف الفطرة البشرية فتالف الاذهان ما يقولون وان كان مخالفاً للحق . فلولا ان تكون هذه المباحث مقصورة على المبادىء الاولية والاصول الكلية من الحقوق والواجبات لاوردنا الكثير من ادلتهم مشفوعة بما يظهر ضعفها من اقوال الناقدين . على اننا نذكر من ذلك ما لا يخرج بنا عن حد الاجمال والاختصار مستوعبين فيه اهم ما استدل به على جواز الانتحار

يقول نصراء هذه الجريمة ان الحق الطبيعي قائم بالتماس الخير ودفع الشر فيما لا يضر باحد من الناس فاذا صار الانسان الى الحال التي تكون فيها الحياة شرًّا عليه ولا تكون خيرًا اسواه حق له الانتحار بل كانت واجباً عليه

ونقول ان في هذا الدليل فرض محال لامتناع تجريد الانسان من خيرية الوجود

في حال من الاحوال على ان هذا المستحيل بتقدير امكانه لا يجيز الانتحار للواقع فيما يحسبه شرًا مطلقًا بما كان فيه من ضعف النفس وما طرأ عليه من اليأس فان الشقاء حادث عارض على المرء بما كسبت يداه لا جناح ولا تبعة فيه على وجوده الطبيعي فليس من الحق ان يؤخذ ذلك الوجود بما لم يصدر عنه وان تكون الطبيعة مسئولة عما ليست منه في شيء

فان قيل كيف لا يجوز الانتحار للمرأة على خطر العار والرجل على خوف الاهانة والوطني على اليأس من سلامة الوطن وكيف يخطأ من مات جليلاً كراهة ان يعيش ذليلاً او ليس ان كاتون الروماني العظيم الشان قد انتحر فرارًا من الذل وحرصًا على الشرف الذاتي فهل منع ذلك من ان يعد من عظماء الرجال

قلنا ليس الشرف الطبيعي الا كرامة الذات فهو من هذا الوجه فرع من الحفظ الذاتي لا يمسه شيء من العوارض المعنوية ولا يحق التصرف فيه لغير الارادة الطبيعية فاذا نصبت للمرء حبائل من الحوادث او طرأت عليه عاديات من الظلم او المت به عوارض من الفساد المدني فانتحر بسبب من هذه الاسباب فاما ان يكون ذلك منه عن خوف من المصاب والضعف عن احتمال الالم فهو جبان يخرج من ساحة الحرب قبل انحسام القتال . واما ان يكون عن قوة الفساد الحادث فيه فهو ضحية للشرف المدني والراي العمومي فما نحسب كاتون وان كان رفيع الشان علي المكان الا الا مجرمًا مذكورًا ومخطئًا مشهورًا ولا نراه وان عد شديد الوطنية عظيم الهمة الا محبًا للسطوة حريصًا على السلطة لم يمت كراهة للحياة بعد حرية رومة وانما مات اسفًا على زوال السطة عن مجلس الشيوخ

وجملة القول ان استبقاء الذات من الواجبات الطبيعية ترشد اليه البداهة وتبعث عليه العواطف النفيسة مما يخالفه الانسان الا اذا طرأ عليه من الفساد ما ينسيه كل حق ويشغله عن كل واجب

وكما ان وقاية الذات من الهلاك واجبة على كل موجود من الانسان كذلك يجب عليه صيانة تلك الذات عن كل ما يجلب لها الالم او الضعف او النقص او التشوه كائنًا ما كان وفي اي سبيل كان مما يخرج عن جد افتداء الكل بالجزء كما سنبينه في الفصل الآتي

فصل

تقرر فيما سلف وجوب حفظ الذات وحرمة قتل النفس ومن المعلوم ان ذلك

الوجوب قاضٍ بصيانة الذات عن كل ما يجلب اليها الضعف والحطة والفساد وان هاته الحرمة ملزمة بوقاية النفس من كل ما يعود عليها بالضرر والهلاك فان حفظ الوجود يتناول لا شك معنى استبقائه صحيحاً كاملاً سليماً كما وجد وحرمة القتل تشمل لا ريب حرمان الافراط والتفريط في حاجات الوجود من وجه انهما متلفتان للوجود

فكل ما يؤلم البدن او يضعفه او ينقص منه شيئاً لازماً فهو مخالف لحكم الطبيعة مباين لحكمة الخالق لان الهيكل الجسماني الناهض بالواجبات الطبيعية اما ان يكون (على راي اهل المادة) قائماً بذاته حياً بتركيبه غنياً عن كل مدد روحاني فاضعافه او ايلامه او اذلاله مغاير لمبدأ الحفظ الواجب طبعاً واما ان يكون (على راي الروحانيين) بمنزلة الآلة لقوة روحانية تحار فيها الافكار ولا تدركها الابصار فافساده على هذا الوجه مضر بالنفس مناقض لحالتها الكمالية مباين لمبدا الحفظ المفروض شرعاً وهذا الهيكل الحيوي على الوجهين سواء كان قائماً بذاته او بما فيه لا يكون انساناً ما لم يقم بالواجبات الطبيعية الانسانية ولا يستطيع ذلك ما لم تحصل له الحرية فكل ما يذهب بالحرية الطبيعية تقييداً او اضعافاً او محواً كلياً فهو اختلاس او جهل بماهية الوجود لان العبودية اما ان تكون اجبارية فهي من جانب المستعبد سرقة واتلاف لاقدس حقوق الوجود واما ان تكون اختيارية فهي من جانب العبد جهل وعمى قلب يخرج بهما عن ان يكون انساناً

فمن عرض نفسه لعاديات الطبيعة من الحر والبرد والجوع بما يوسوس فيه الجهل مختاراً في ذلك غير مضطر له ولا ملتمس منه نفعاً قريباً معلوماً · ومن عدا على البدن بما يؤلمه من ضرب وجلد وتمزيق واهمال بما يزين له الوهم راضياً في ذلك غير مكره عليه ولا مستفيد منه له شيئاً · ومن شوّه الجسم او اسقط منه عضواً لازماً سعيداً كائناً ما كان ذلك العضو بما يموه له الطمع او الخيال الفاسد عامداً في ذلك غير مجبر ولا مفتدٍ سائر البدن بذلك الجزء كمن يقطع اليد المتغنغرة وقاية لبقية الجسم · ومن انتزأ على حريته الذاتية بالمحو او الانقاص او الاضعاف بما يبعث عليه الكسل او الغباوة او دناءة النفس راغباً في ذلك غير مقسور عليه · كل هؤلاء مخالفون لاحكام الطبيعة مناقضون للحكمة الالهية الازلية التي هي عين الجمال ومظهر الكمال ومصدر الوجود وعلة البقاء · فسبحانك اللهمّ ما خلقت فينا شيئاً عبثاً ولكن نحن بانفسنا عابثون

ولا رضيت لنا شوهًا ولا عذابًا ولا امساكاً عما لا يضر ولا قيداً ولا ذلاً ولا عنتًا ولكن اكثرنا لا يعلمون

— ٠ عودٌ على بدء ٠ — اما الافراط الذي هو استعمال الشيء من وجه الزيادة فيه والتفريط الذي هو استعماله من جانب الانتقاص منه فهما تابعان لحرمة قتل النفس بما يجلبان عليها من اسباب التلف فكل ما يضر بالوجود الانساني من الاطلاق والامساك والبسط والقبض والاباحة والمنع والافعام والافراغ مماثل لقتل الذات حرمة ونكرًا فمن ترك الوسط العدل فيما يحتاج اليه البقاء والنماء واخذ منه بجانب الزيادة والنقص فلا فرق بينه وبين المنتحر الا ان هذا يهلك النفس دفعة وذاك يقتلها تدريجًا

المبحث الخامس

في الحقوق والواجبات النوعية

فصلٌ

تبين في المبحث الثالث من هذه المطالب وجوب حفظ النوع الانساني من وجه ملازمته لبقاء الذات ٠ فهذا الواجب ملزم بالتئام الجنسين على صورة يحصل منها البيت او العائلة ٠ وله في ذلك مظهران اثنان مظهر الزواج وفيه الواجبات والحقوق الزوجية ومظهر النتاج وله حالتان الحالة الوالدية والحالة الولدية وفي كل منهما حقوق وواجبات

فالعائلة والمراد بها في هذا المقام جماعة الزوجين وما يلدان هي الاساس الاول والركن الفرد في بقاء النوع ونماء الانسان وهناء الحياة وكمال الوجود بل هي في العالم البشري بمنزلة مركز نور تنبعث منه اشعة الحياة فتنير القلوب وتسر النفوس وتحيي الابدان وترشد المرء الى المقام الرفيع المعد له في عالم الحيوان

فهي من هذا الوجه جرثومة الكمالات الطبيعية وارومة المحاسن المدنية ومعدن الفضائل الاهلية لا تحصل بدونها في النفس عزة ولا تنشأ غيرة ولا توجد رحمة ولا يكون اجتهاد ولا يكمل شيء من السجايا الانسانية والمزايا الاجتماعية ٠ بل لا يكاد الانسان يلتمس من خبايا الارض وكنوز الطبيعة وثمرات العمل ما يفضل عن حاجته الذاتية الا ان يكون ذا عيال من ضعيفات محبات صابرات وصبية صغار عاجزين آملين جميعًا فيه متوكلين عليه يخاف عليهم ان يمسهم ضيم ويسره ان يراهم

راضين عنه معجبين به داعين له بالبركات.

نعم ان حب الانسانية على وجه الاطلاق او المجد الخيالي على حكم التصور .قد يكون هو الباعث الاول لبعض الانفس الزكية والعقول السمية على اقتحام المصاعب واحتمال المتاعب في القيام بما يترتب عليه الاثر النافع العميم . الا ان ذلك فضلاً عن كونه حادثاً طارئاً على الجمعية الانسانية غير اصيل في الخلق الطبيعي فهو مقصور على دون القليل من الناس . اما السواد الاعظم فلا يعانون متاعب المعاش ولا يصبرون على شقاء الحياة الا بباعث ادنى الى الحس واقرب من الطبيعة واظهر لعين الفطرة الساذجة . وبعبارة اوضح لا بد للانسان في الحالة المعاشية من عيال يشعر بحبهم له وحاجاتهم اليه واعتمادهم عليه من دون سائر الناس فيخرج باجتهاده في تحصيل المنفعة ودرء المضرة عن حد ما يحتاج اليه مع ذلك الاجتهاد منحصراً على نوع ما في الحاجة الذاتية من وجه ان الولد قطعة من ذات الوالد بل هو عين تلك الذات تقمصت رونق الشباب واعيدت خلقاً جديداً فهي تقوى به ما دام لها البقاء وتحيا فيه بعد اذ يدركها الفناء

فاتضح مما تقدم ان الزواج واجب طبيعي لازم في بقاء النوع ملازم لحفظ الوجود ولعل هذا هو الاصل في جميع الاحكام القديمة المانعة من التبتل وطول العزبة من وجه ان الذين هم على من تينك الحالتين يكونون في مثل العزلة عن سائر النوع فتنمو فيهم العواطف الانوية التي لا تخرج من حد قولنا « انا » فينشأ فيهم عن ذلك خلق الاثرة الموجب للوحشية المعروف بحب الذات

فاذا تقرر ذلك لزمنا بيان حد الزواج وماهية ما يجب فيه وما يحق للزوجين وايضاح ما يترتب عليه من الحالة الوالدية والولدية وما يلزم في هاتين الحالتين من الواجبات والحقوق

فصل

ظهر مما سلف ان حفظ النوع ملزم بالتئام الجنسين على الصورة المسماة زواجاً فذلك الالتئام لا يكون الا بالارادة ولا يتم الا بالاتحاد فاذا حصل كلاماً تعين فيه على الزوجين ان يسعيا فيما يعود بالفائدة عليهما جميعاً فان اتحادهما بالارادة يشبه ان يكون ميثاقاً على الاشتراك في اللذة والالم والصفو والكدر والسراء والضراء

غير ان حفظ النوع وان كان من الواجبات الطبيعية فلا يلزم الا حيثما لا يضر بالذوات شيئًا ولذلك وضعت للزواج حدود مبينة واوقات معينة في بعض القوانين وكان في الحالم الصغير والعاجز الكبير مكروهًا على الاطلاق

ولما كان حفظ النوع هو الغاية الطبيعية في التئام الجنس لزم ان يكون هو المقصود بالذات فيه فاذا جرد القران عنه عمدًا كان بمقتضى الناموس الطبيعي جرمًا ولذلك جاءت الشرائع الدينية بالنهي عن الزناء واقامت على مرتكبيه حدًا من عقاب هذه الحياة علاوة على ما توعدهم من عقاب الاخرة . اما القوانين المدنية فقد اتت بمثل ذلك على حين كانت قريبة العهد من الطبيعة فلما ان تقدم الناس فيما نسميه الفة وتمدنًا رفع ذلك الحد من قوانينهم فناب الادب عنه في ذوي النفوس الزكية والاخلاق الكريمة والعلم الصادق

فاتضح من هذا الذي قدمناه ان الزواج ميثاق اشتراك واتحاد يبرم بين الجنسين قضاءً لواجب حفظ النوع فهو من هذا الوجه وعلى هذه الصورة واجب لازم بالذات كما يؤخذ من مآل الحديث الشريف « زوجوهم فان لا تفعلوا تكن فتنة في الارض وفساد عريض »

فاذا تقرر ان الزواج ميثاق مبرم بالارادة لزم من ذلك ان تعد مخالفة شرطه من قبيل الخيانة . فهذه الخيانة تكون في جانب المرأة افظع منها في جانب الرجل من حيث انها (١) تقضي عليه بان يعول الولد (٢) في حالة كونه ليس منهم في شيء فهي لذلك من موجبات نقض الميثاق في كل شريعة مأثورة الا ان ذلك النقض يكون في بعض الشرائع طلاقًا وفي البعض فصلًا وابعادًا ليس غير

فالطلاق حكم يعيد لكل من الزوجين حريته الذاتية بحيث يحق له مواثقة من شاء بمثل الميثاق الاول والفصل قضاء يفرق بين الزوجين حسًا مع بقاء الصلة المعنوية بحيث يكون الزواج محظورًا عليهما جميعًا

وليس من شأننا بيان حدود الطلاق وشروط الفصل على ما وضعت في الشرائع والقوانين المرعية فذلك يخرج بنا عما التزمناه من الايجاز في هاته المباحث ولكننا ننظر

(١) اي المرأة

(٢) غير الشرعيين

الى ميثاق الزواج من وجه الحقوق والواجبات الطبيعية مجرداً عن كل عقيدة دينية تحيزاً في موضوع البحث وحدود المطلب ·

فالزواج من هذه الحيثية عقد معلوم الشرط والعقد المشروط فيه لا يلزم الا ما دام شرطه محفوظاً فان ضيعه احد المتعاقدين او ابطله او اهمله عمداً كان الاخر في حل من العقد وهو الطلاق على اختلاف انواعه تجيزه بعض القوانين المدنية بعد ظهور موجبه ووضوح وجه الضرورة فيه وتامين الولد من سوء عقباه · وتحلله بعض الشرائع المطهرة صادراً من جانب الرجل لعيب معين ومصلحة ظاهرة بعد وفاء النقد على انه ابغض الحلال الى الله · وتقف به بعض سائر الشرائع والقوانين عند حد الفصل على ما ذكرناه اعتقاد انه مما عقد الله على لسان رجال الله ولن يحل لانسان حل ما عقد الله او مخافة ان يتقوض به ركن البيت ويفسد الولد بافتراق الوالدين ولكلٍّ ادلة من النقل والعقل فيما يختلفون عليه

فصلٌ

بالزواج يحصل النتاج فتنشأ عنه السلطة والواجبات الوالدية وهي وسيلة استمرار النوع · فالنتاج مؤدى الطبيعة البشرية واستبقاء المولود متعين على الولادة فهو واجب تفرضه طبيعة الاشياء فلا مفر للوالد منه ولا عذر له في القعود عنه

ولقد وضع الحد في بعض القوانين على الذين ينبذون ولدهم ولا شك ان اهمال شأن الولد بعد الولادة يكون من ذلك القبيل فان دعوة الموجود في عالم القوة الى الوجود في عالم الفعل لهي الميثاق على حفظه بتيسير ما يحتاج اليه وانماء قواه البدنية والعقلية الى ان يشتد ساعده فيصير كفوءاً لذاته فمن اهمل ذلك بلا موجب من الطبيعة ومن اقدم على تلك الدعوة مع تحقق العجز عن الترتب عليها فقد ارتكب ذنباً يشبه في بعض احواله القتل

فاذا تبين استبقاء الولد من احكام الضرورة الطبيعية ثبت انه لا يوجب السلطة في جانب الولد الا بمقدار وجود تلك الضرورة ولذلك فالواجبات الوالدية تنتهي من الوجه الطبيعي ببلوغ الولد سن القوة والرشد فلا يبقى بينهما من بعد ذلك الا رابط الهيئة الاجتماعية والالفة البيتية كما سنبينه في مكانه

ومما تقدم يعلم ان استبقاء الولد بانماء قواه البدنية والعقلية من الاحكام اللازمة في

حفظه فالوالد كائناً من يكون وفي آية حالة يكون مامورًا من قبل طبيعة الوجود بحفظ مولوده وتوجيه العناية اليه وسد حاجته الطبيعية بالغذا والوفاء وانماء قوته العقلية بما يلزم من العلم والجائه الى قبول ذلك منه ان اباه ولذلك وضع الحد على مسقط الجنين عمداً وفرض العقاب على قاتل مولوده وحكم بالقصاص على النابذ وتقررت في الكثير من هيئات الاجتماع الزامية التعليم

على ان هاته الواجبات وان كانت كثيرة الفروع ثقيلة المحمل عظيمة التبعة فلا ينبغي ان تعدل بغير اهل الثروة عن الزواج والنتاج فانه لم يفرض على كل والد ان يجعل مولوده من ذوي المقامات السامية وارباب الثروة الوافرة واهل العلم الواسع وانما يلزمه القيام بالضروري من حاجاته الحيوية واصلاح شأنه واعداد حسن المآل له بما تصل اليه يد الامكان قال منتسكيو حكيم الفرنسيس. على الوالد ان يطعم الولد ويحميه ويحسن تربيته وليس عليه ان يجعله ذا ميراث. اه

ولرب ماهن فقير وفاتل لا يملك شروى نقير يبث في قلب ولده روح الشهامة والاستقامة ويعنى به ما استطاع انماءً واصلاحاً فيكون في ذلك افضل واحسن سعياً من غني يهتم بالميراث ولا يهتم بالوارث

وقد مر بنا ان الواجبات الوالدية لا تقف عند حد الغذاء وسد الحاجة البدنية ولكنها شاملة لتهذيب الفكر وانماء العقل — وبعبارة اوضح — ان للانسان من حيث انه حيوان وجوداً بدنياً ومن حيث انه ناطق وجوداً عقلياً فمن دعاه الى حيز الوجود بالفعل فقد وجب عليه حفظه في الحالتين وبناء على ذلك فالتعليم فرض واجب على الوالدين بلا استثناء الى حد ما يستطيعون. ومن المعلوم ان الحالة المدنية قد وسعت نطاق الضروري من العلم بما نشأ عنها من تنوع الحاجات وتنوع الحالات حتى عز على كثير من الناس ان يبلغوا بولدهم حد اللازم من المعرفة والضروري من العلم فصار من الواجب على هيئة الاجتماع ان تعينهم على ذلك بانشاء المدارس المجانيه فقامت الدول المتمدنة بها الواجب فلم يبقَ فيها للوالدين من عذر في التثاقل عن تهذيب اولادهم فان فعلوا عناداً او عمى قلب تعين على الهيئة الحاكمة المختارة ارشادهم الى الواجبات الطبيعية بالدعوة والحث والاغراء والالزام يجب عليها ذلك من وجه ان المولود ليس ملكاً للوالد يتصرف فيه كيف شاء وانما هو لله علة الوجود ثم لنفسه ثم لهيئة الاجتماع وهذا هو الاصل في قوانين التعليم الالزامي

ومن الناس من لا يجد للسلطة الوالدية حدًّا فيحسب الوالد حرًّا فيما يجب عليه للمولود يفعل من ذلك ما يشاء ويهمل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل . ومنهم من يقول ان الولد ثمرة الولادة فمن ملك الشجرة فقد ملك الثمر يريد تقرير استعباد المرأة واستبداد الوالد . ومنهم من يعد سلطة الولد قبلاً من استبقائه للمولود فهؤلاء جميعًا يرومون تاخير هيئة الاجتماع وارجاعها الى ما وراء قرون الظلمات الى العصر الذي كان فيه الولد ملك الوالد يبيعه ويتصرف في وجوده استعبادًا وقتلاً كيف شاء . الى عصر الخشونة والجهل . الى زمن الاستبداد والظلم . الى عهد الحيف والفساد فقل يا اهل الظلمات حذار فقد جاء ملك الانوار

الجامعة العثمانية

« لسليم بك نقلا »

(في ١٤ دسمبر سنة ١٨٨٩)

جوزيت يا صروف الزمن خيرًا عن الشرق ولئن بلغ سيلك فيه الربى وفاض منه الوطاب لانك امطت لثام الجهل والغرور عن البصر والبصيرة فشاهد الصور وادرك مادتها . اعدت له ذكرى ماضيه ايام كان يجر ذيل العجب والتيه ويتعثر بالبسط السندسية ويرفل بمطارف الاجلال ويزدان بحلى الفضل ويعتضد بجامعة الكلمة ويشنف السمع بنغمات الاتفاق . ثم نقلت به الى ايام اخذ يجر فيها ذيل الفقر ويتعثر بشوك القتاد ويرفل بعباءة التحقير ويزدان بحلى الجهل ويعتضد بتفريق الكلمة ويشنف السمع بنغمات الاختلاف فتبين بالمقابلة ما هنالك وبضدها تتبين الاشياء

ايها الشرق قد عبثت بك الغير والعبر حتى لم تبقِ ولم تذر واخنى عليك دهرك واناخ بكلكله وهو له من طبعه وعادته عذر لانه لا يدوم مسالمًا كما لا يدوم محاربًا وسبحان من يصرف الافعال في خلقه كيف يشاء فوهنت عزائمك تحت وقر اثقاله واستسلمت الى الصبر مكرهًا حتى ملاته او ملك ثم قلبت له ظهر المجن واستبشرت بصادق القول « دوام حال محال »

ذلك هو القول الصادع بالحق والدافع الى التنصل من تهيب الصروف والباعث على تلقي وقعات السيوف بدرق الحكمة والعزيمة ودفع طارئات الكوارث بساعد الهمة

والثبات فالمرء لا يكون رشيداً الا اذا حنكته التجارب والفارس لا يستقيم على صهوات الصافنات الجياد الا اذا استقام له موقع الطعن في ساحة الجلاد

ايها الشرقي الذي روعتك طارئات الايام وطارقات الليالي قد شاهدت والعهد غير بعيد ان ذاك الزمن الذي نافرك وناصبك قد اتت سابحاته على غاية شوطها ثم رجع بها خبباً وهو يناديك ليسالمك ويصافيك وقد رفع لواء النصر في ساعده مرسوماً عليه شكل (الهلال) فانست وقلت هذه بشارة الخير ومبدأ الهدى ثم تهلل وجهك بشراً وانت تدعو بفضل المولى الحميد

تلك هي دولتك العثمانية الباذخة الشان . وذاك هو جلالة مولاك ومولاها السلطان عبدالحميد خان . فقد عاهدها الله به فاعزك واعزها وبشر المشرق بارجاع جليل شانه اليه فاقتبل ما وصل اليك بجميل الشكر

ولا يغرب عنك ان لكل اجتماع جامعة يقوم بها ويستند في ثباته على رعايتها وتلك قاعدة شاملة جامعة تبتديء من عائلات المنازل مع قلة عديدها الى ضوابط الممالك مع سعة حدودها وهذه الجامعة هي الحافظة لذاك الاجتماع والداعية الى حرمته وحفظ مقامه وبها قامت الممالك على اختلافها وبسببها تهيأ النظام ورسمت الضوابط والروابط بين الحكومات

واذا رجعنا الى تاريخ الماضي وجدنا ان هذه الجامعة كانت تختلف بحسب اختلاف احوال القرون وابنائها بان كانت القربى او الجوار او البطن او الفخذ فالعشيرة فالقبيلة ثم انتقلت مع الايام الى الديانة فاللسان فالجنسية فالوطن وهذا هو الشان المرعي الان في غالبية الدول العظمى فان الجامعة فيها انما هي الوطنية فاوستريا مثلاً تشتمل على عناصر عديدة بين هنغارية وسلافية والمانية وغيرها ولكل لغته فضلاً عن اختلاف المذاهب ولكن الجامعة الوطنية فيها انما هي النمسوية وقس على ذلك المانيا والروسية وانكلترا وغيرها . وكل منها تجري احكامها على وتيرة واحدة وتخضع لقانون واحد ولو لم ترعَ هذه الجامعة في كل من الدول المذكورة لتفرق شملها وثل عرشها ونسخ ظلها وذاك هو مبدأ نجاح الغرب واستفحال كلمته ونفوذ امره فانه يجمع ما تفرق في ممالكه من العناصر والمذاهب الى جامعة الوطنية

وعلى هذا المبدأ القويم وبهاته الجامعة ايضاً قوام دولتنا العثمانية ايدها الله فان في ممالكها المحروسة عناصر عديدة بين تركية وعربية وارمنية ويونانية وغيرها وكذلك

مذاهب مختلفة ولكنها تجمعها كلها جامعة واحدة وطنية هي العثمانية وهي دون استثناء تخضع لجلالة سلطانها وتصدع بامره وتنصاع الى احكامه وهذه الجامعة كانت وتكون الحصن الحصين للرعية دون اطماع الدول وما وراء العبث بها الا الخسران والضياع

واذا تبين هذا وهو الحق الصراح كان ابن مصر وابن الحجاز والعراق والشام وارمينيا والاناضول وطرابلس الغرب وكريد والبلغار اخوة لام هي دولتهم العلية واب وهو جلالة السلطان بل كان العربي والتركي واليوناني والارمني والشركسي واحداً في الوطنية ولقبه عثماني بل كان المسلم والاسرائيلي والمسيحي والدرزي وغيرهم واحداً في الوطنية ولقبه عثماني

ذلك هو المبدأ الشريف الذي يجب على كل عثماني ان يراعي حرمته وتلك هي القاعدة الراسخة التي تقضي على كل عثماني بحفظها والائتمار باحكامها فان الشرق لم يتنازل عن منزلته الرفيعة في سابق الايام الا لما نسي هذه القاعدة ونسخ آية الوئام والوفاق وفرق في الوطنية بين عنصر وآخر وجنسية واخرى . ثم لم يعد اصلاح الحال الا لما ادرك الخطا الفاضح وفرق التفريق وجمع الشتات بجامعة الوطنية

وبناءً على ما اوردناه فاي عثماني سواء كان مصريا او سوريًا او اناضوليًا او غير ذلك من الممالك المحروسة يجرأ على التفريق بين صنوف الرعية الخاضعة لجلالة مولانا السلطان او يجاهر بالتنصل والتمييز الوطني بين هذه البقعة او تلك الجهة مثلاً وكلتاهما عثمانيتان . بل اي سوقة او امير او وزير او مشير من تبعة الدولة العلية كيف كان مسقط راسه ومنبت غرسه ووجهة دينه يهجم على قحة وجهل على انكار هذه الحقيقة او العبث باحكامها . اجل لا يقدم على ذلك الا من خان دينه خيانة تربو مساوئ اخراه فيها على مساوىء اولاه وباع وطنه بيع السماح في سوق الذلة والهون وتجرد عن كل خلق سليم وطبع مستقيم وكان من ذلك الجسم العثماني بمنزلة العضو الفاسد لا علاج له الا القطع

ايها العثماني قد وضح لك ان حفظ قوامك موكول الى حفظك حقوق تابعيتك وما وراء الاخلال بها عن طيش وحمق الا ايغار الصدور وتوليد الفتنة وبالتالي التفريق والانقسام وبئس المصير وانى لك ان ترى غير ذلك بل اي قانون يجيز لك ايها المصري او السوري او الاناضولي ان تنزل اخاك في التابعية منزلة الاجنبي عنك كالايطالي والسربي وغيرهما

بل اي مبدا سياسي او اداري اصلي او فرعي وضعي او حملي يجيز لك ذلك اليس سلطانك سلطانه . اليس لواؤك لواؤه . اليس قانونك قانونه . اليس شعارك شعاره . اليس جندك جنده . اليست دولتك دولته . اليست معاملتك معاملته . اليست تابعيتك تابعيته

قل لنا بعيشك اتخطب انت في جامعك وتدعو في كنيستك بغير ما يخطب هو في جامعه ويدعو في كنيسته . اتشاهد على دنانيرك ودراهمك غير الطغراء السلطانية التي تشاهدها على ديناره ودرهمه . ايخفق فوق سفنك في البحر وحصونك في البر لواء غير لوائه

بل قل لنا من الذي اباح لكبارك القاب الشرف اليس الذي اباح لكبار اخيك . وباسم من وصلوا الى الرتب والمقامات السامية . اليس باسم الذي وصل اليه كباره . وباي النياشين تزدان صدورهم ومن احسن اليهم بذلك اليس بمثل ما تزدان به صدور كبار ذاك وان المحسن اليهم واحد هو جلالة السلطان

بل قل لنا باي قانون تاتمر اذا ذهبت الى صقع اخيك ومن يكون حاكمك والى اين مصير امرك ومن يدافع عنك . ألك حاكم غير حاكمه وقانون غير قانونه وهل لهاذا نزل ارضك غير حاكمك وقانونك لانكما كليكما في التابعية سواء وهي الجامعة العثمانية

بل كيف لا تفتخر معه بهذه التابعية الجليلة وانت عثماني في حين ترى الدول الاوروبية تتسابق الى مصافاة السلطنة ومحالفتها كما اوضحنا لك في لمحة سابقة وكيف لا يكون منك ذلك وانت ترى اخوانك في المذهب دون التابعية يشدون بحمد جلالة مولانا الخليفة الاعظم واليك بيانًا واحدًا بشان ما لقيته السفينة العثمانية التي مخرت في بحر الهند اثناء ذهابها الى اليابان نثبته لك منقولاً عن جريدة الحقائق الغراء وهو بنصه الشائق

ورد تلغراف من رئيس المدرعة العثمانية المساة ارطغول اوضح به ما لقيه من حسن القبول والاحتفال بمقابلته من الطوائف الاسلامية وهروعهم الى زيارة تلك السفينة وانه من عهد وصولها الى سنغافوره الى الان لم تكد تخلو من وجود الزوار طرفة عين والقد زاره من مدينتي بومباي وكولمبو نحو الثلاثين الف زائر ما عدا من تسارع الى زيارته من كبار وعظام جهات ملقه وسوماطره والجاوه حتى قال انه وعموم من بمعيته من ضباط السفينة لا يمر عليهم يوم الا وهم مدعوون فيه لضيافة

حافلة وانه عاجز عن بيان ما شمل عمومهم من الفرح والسرور وابداء شعائر الوداد والمحبة القلبية وتوالي الدعوات في المساجد ببقاء مولانا الخليفة الاعظم امير المؤمنين »

أليس هذا كافيًا لوئامك ووفاقك . واليس هو برهانًا ناصعًا على ما او ردناه المرة بعد الاخرى من سمو نفوذ الجناب السلطاني على جميع العثمانيين اولاً ثم على جميع المسلمين ثانيًا بصفة كونه امير المؤمنين

واليس ذلك برهانًا على قوة الدولة العلية وشوكتها وضربة قاضية على اولئك المنافقين الخائنين المارقين الذين ينكرون حقوقها واليست الدول كلها تعترف لها بذلك حتى ان انكلترا نفسها من عهد رجالها بيل و بالمرستون حتى اللورد سالسبري لا ترتاح الا الى السياسة التي يكون من ورائها استمالة الدولة العلية اليها مما سناتي على بيانه في لمحة ثانية.

ايها العثماني قد حصحص لك الحق فاصدع به وثابر على هذا الوفاق والوئام وافض القضاء الصارم على من عق وخان . وانت ايها المصري العثماني الذي كنت في مقدمة من اخلص وحافظ على هذه التابعية وعلم انه خاضع دينًا وسياسة لجلالة سلطانه احتفظ على هذا المبدا الشريف وتمثل بسمو عزيزك واميرك الوكيل الشرعي عن جلالة سلطانك والحاكم على بلاد هي من جسم السلطنة بمنزلة القلب بل هو العضد الاكبر للدولة والوطن ومقر ثقة العظمة السلطانية ومحط التفاتها وميلها . واسال الله ان يصونهما و يعزز شان الامة والوطن و يزيل داعية الشقاق وتفريق الكلمة و يؤيد الاتحاد والالفة فبهما العزة والمنعة وحسن الختام

الاعمال بالعمال

« له ايضًا »

(في ١٨ يناير سنة ١٨٩٠)

سئل بزرجمهر الفيلسوف عن الاسباب التي اودت بدولة بني ساسان بعد ان كان لها من بسطة الملك وفخامة السلطان واستفحال الكلمة ونفوذ الشوكة ما لم تصل اليه دولة فاجاب بقوله « لان ملوكها قلدوا كبار الاعمال لصغائر العمال »

ذلك لعمر الحق جواب قاطع مانع بلغ من البلاغة حدها واصاب سهمه من

الحقيقة كبدها · وهو ولا مشاحة من اهم المواضيع التي تستلزم من مطالب البحث والشرح ما يفي بالغرض ويستلفت ارباب الكلمة التي تدبره والتنبيه اليه وقد تخيرناه موضوعاً لمحتنا هذه ندمج في سلكها من مبناه ومغزاه ما يحتمله المقام ولا تفوت فائدته فنقول

لا يغرب على الافهام ان الوجود نفسه لم يحفظ الا بالنظام على نحو ما شاءت ارادة واجب الوجود جل جلاله وتلك العناصر والنواميس لا يكفل حفظها الا بقاء ذاك النظام السامي الشامل دقائقها واحكامها اصلاً وفرعاً وهذا النظام العام كان علة للنظام الخاص من قبيل الميل الغريزي الطبيعي الى المحافظة على البقاء · وعن ذلك تولد نظام الشخص الفرد فالعائلة وما فوقها بسلسلة صاعدة الى الدول والممالك · وهذا النظام لم يقم الا بما تبينه العقل من القواعد والنواميس الضامنة ادراكه والكافلة رعايتها حفظه وهي وئن اختلفت مبدءًا باختلاف العادة او المكان لا تختلف غاية وفي الاحتفاظ عليه لقيام العمل به

واذا وضح هذا كان ذلك النظام الكافل حفظ تلك العائلة المنضوية الى رعاية ربها في منزله هو نفس النظام الكافل حفظ تلك الحكومة الباذخة الشان برعاية اربابها · وكما ان ارباب العائلات مسئولون لدى هذا النظام عما يفعلون بالنظر الى عائلاتهم كذلك ارباب السلطة مسئولون عنه لديه بالنظر الى شعوبهم ورعاياهم وهذه المسئولية تعظم ان نقل نسبياً فرب العائلة تطالبه اسرته فهو مسئول لها ولذمته واما الحاكم فتطالبه رعيته كلها فهو مسئول لها ولذمته ولوطنه ولعائلته ايضاً فواجبه من هذا القبيل اعم من مواجب رب العائلة ولقد كان له تلقاء اهمية ما عليه ما ليس للثاني من احكام الحرية فرب المنزل يضيق عليه في سبيل حفظه لنظامه ما ينفسح معه مجال الحاكم في سبيل حفظه لنظام حكومته لان النقطة لدى الفريقين واحدة وهي التعاون

نتج مما ذكر ان نظام كل حكومة او مملكة يقوم بعمالها وهولاء يصلحون لحفظ ذاك النظام الا برعاية امور ثلثة وهي حسن انتقاد وانتقاء وتعيين فبالاول وقوف على حقائقهم وبالثاني نزوع الى تخيرهم وبالثالث احكام في استخدامهم والى هذا المعنى اشار الحكيم بزرجمهر في جوابه فكنى بكبار الاعمال عن الخطيرة منها وبصغار العمال عمن يصغرون ادارة لا عمن يصغرون سناً فكم فتى بلغ حلم الشيخ وشيخ في حلم الفتى

وما كمال الفتى بالشيب في شعرٍ   لكن كمال الفتى بالشيب في الخلقِ

وتحرير عبارته انهم قلدوا الوظائف لمن لا يصلح لهـا فوضعوا الشيء في غير موضعه وهو مبدا الخلل

وانه ليسهل علينا ادراك هذه الحقيقة اذا التفتنا الى مراجعـة حوادث الامم السالفة وتواريخ الممالك الماضية وحسبنا من ذلك وقوفنا على حالة الشرق ايام كان يجر ذيل العجب والتيه ومقابلاته بحالته ايام اخنى عليه الزمن فتثاقل متعثرًا بذيل الفقر والخمول اما الاولى فكانت له يوم رعاه رعاة مقسطون مدركون انتقدوا الرجال وانتقوهم وقلدوهم من الاعمال ما يأهل لهم . واما الثانية فكانت يوم ساسه ساسة اضلهمْ الجهل واعماهم الغرض وافرطوا وفرطوا فاودوا بهم وبالرعية وساءت الحالة مصيرًا . ومعلوم ان العالم درجات وان التفاوت من احكام الطبيعة وبه تقوم مصلحة العباد ولله در من قال

لولا التفاوت في البرية لم يكن امر بمصلحة العبـاد يقومُ

وكم من امة ذليلة اعزها شخص واحد وكم من مملكة عظيمة اذلها شخص واحد فالدول باعمالها وهذه بعمالها . وقد تنبه رجال الممالك في هذا القرن الى المبدا الجليل واعملوا الفكرة في تمهيد المسالك الموصلة الى المحجة البيضاء وبالاستقراء ادركوا الوسائل الكافلة نيل هذه الغاية وهي محصورة في مطلب واحد هو تعميم العلم

فالعلم انما هو المرقاة التي ترقى بها الحكومة والرعية الى قمة العظمة والمجد والكمال لان تعميم العلم يتيح تكثير الرجال الصالحين للعمل فتتزين بهم مصالح الحكومة فهي مع تشعبها ليست الا بمثابة سلسلة محكمة الحلقات فلا بد من رعاية كل حلقة منها لان انتثار الواحدة يؤذن بانتثار الاخرى فيفسد النظام ويتسلط الخلل . واذا دققنا في احوال كل دولة من دول هذا العصر وجدنا ان الاسمى نظامًا بينها هي الاكثر رجالاً والعكس بالعكس واليك البرهان

قلنا ان مصالح الحكومة متعددة وكل فرع منها منفصل عن غيره لفظًا متصل معنى فسلامة نظام مجموعها موقوفة على سلامة نظام افرادها ومعلوم ان الانسان كيف كانت درجة ادراكه اكفى لاتقان عمل واحد منه لاتقان عملين اثنين لان في الاول توجيه القوى مجموعة الى نقطة واحدة وفي الثاني توجيهها متفرقة الى نقطتين والجمع حليف القوة كما ان التفريق حليف الضعيف . فاذا قل في الحكومة عدد العمال الصالحين للعمل اقتضى ان يقلد بعض مصالحها لمن لا يأهل لها وذلك يستلزم من كبار العمال

النزوع الى واحد من اثنين اما الاعضاء واما الالتفات فان كان الاول فلا بد من وقوع الخلل الذي لا تنحصر دائرته في مشتملات ذاك الفرع من المصلحة فقط بل تحيط بغيره لما هنالك من ملابسة الصلات وان كان الثاني اقتضى بالطبع توزيع القوى على جهات متعددة ونقط متباعدة فتفوت العناية حقوقها مما يستلزمه المهم من تلك المصلحة لاضاعة الفرصة في مناظرة ما هو اقل اهمية وقد قلنا ان الضعف حليف التفريق . نتج اذاً ان كل حكومة كثر عمالها الصالحون المدربون استقام نظامها وقل خالها او امتنع وهذا هو محط الرحال

وان لنا من وراء ذلك ايضاً مطلباً خطيراً يؤيد عزة كل حكومة ومنعة كل دولة وهو احتفاظ الرعية على وطيد ثقتها باهلية حكامها ووكول امرها اليهم وارتياحها الى اجراءاتهم حتى لا يعود يهمها فصل هذا الموظف سواء كان وزيراً او وكيلاً او مديراً او قاضياً ولا يروعها استعفاؤه او مبادلته غيره في وظيفته او تقاعده او موته لتاكدها ان رجال الحكومة الصالحين للعمل كثيرون فلا يخشى ان تتعطل مصالح دولتهم او تسقط بعلة فصل وزير او استعفائه (الا في ما ندر كما لو كان الموظف نادراً في صفاته بين الرجال والنادر لا يبنى عليه حكم) لان تقليد الوظائف لاكفائها يتيح لهولاء تدبير الشؤون على وتيرة واحدة تساق اعمالها بالنظام الاستقرائي ولذلك لم يرع انكلترا موت ديزرائيلي كما لم يهلها تنحي غلادستون وقس على ذلك غيرها من الدول التي كثر رجالها العظام وكان لها الحظ الاوفر من تعميم المعارف

واذا تبين هذا وجب على كل حكومة متيقظة ان تصرف منتهى العناية وغاية الهمة الى تمهيد السبل المبيحة تكثير الرجال الصالحين للعمل لكي تحافظ على نظامها وتدرأ عنها غائلة النقص والذل وتكون امينة من مستقبلها كامنها من حاضرها لعدم وجودها تحت رحمة واحد فرد فان الخلود لله جل جلاله . بل وجب على كل رئيس كيف كان مقامه ومركزه ان يدرب من يرأسهم على العمل ولا يستنكف من تعليمهم وتثقيفهم وافادتهم وتشجيعهم وان ينبذ ذلك المبدا الذي اتخذه بعضهم حاجزاً دون اعداد الرجال وهو الخوف من المزاحمة فان الخدمة العامة مفضلة في كل حال على الخاصة وليس للانسان الا ما سعى . وما افضل ان يقال ان زيداً لم يخدم وطنه وهو في الوظيفة او في حياته فقط بل خدمه وهو معزول عنها او بعد موته ايضاً وذلك بمن علمهم من ابناء الوطن واعدهم رجالاً عظاماً ومدبرين حاذقين وساسة محنكين

فالوطن يحفظ له ولآله الذكر الجميل والاثر الجليل

واذ قد تبين لنا ان سلامة النظام في الحكومات والدول موقوفة على اكفائها من رجال العلم والعمل وجب ان نرى في الشان الذي ينبغي ان يراعي لهم لدى وجودهم . فنقول ان المواجب في هذه المسألة من وجهيها انما هي واحدة فكما انه يجب النظر في تكثير العمال الصالحين حفظاً للنظام كذلك يجب النظر في تعيين كل عامل للوظيفة التي يصلح لها حفظاً لنظام تلك الوظيفة والا فسدت النتيجة لفساد مقدمتها واستوى العالم والجاهل والقلة والكثرة ولقد ذكرنا آنفاً انه يجب على المقلد الوظائف ان يكون حسن الانتقاد والانتقاء والتعيين اما الاول فيقضي على المنتقد ان يكون عاقلاً لان نقد الرجال من اصعب الدروس وان يكون مستقيماً لئلا يتغلب الغرض والصنيعة على معرفته . واما الثاني فيقضي عليه بان يحسن التخير لان مجرد العلم دون العمل لا يغني فضلاً عما يستلزم ذلك من رعاية الاخلاق والصفات . واما الثالث فيقضي عليه برعاية النظير اي بتقليد الوظيفة لمن له سبيل الى بابها اذ لا يسوغ ان يقلد الطبيب وظيفة مهندس ولا هذا وظيفة كيماوي الخ ولكن اذا سلمت الوظائف لاربابها حسنت الحالة وقاموا بواجباتها قياماً مشكوراً لانهم يعلمون بما يعلمون فلا تفوتهم اوجه المنفعة ولا يصعب عليهم درء المضرة وذلك ولا مراء هو الشان المهم الواجب التنبيه اليه والتعويل عليه بل هو قوام كل حكومة وميزان كل دولة

ومن هذا المطلب يساق توجيه التنبيه الى كل حكومة قل عديد عمالها الصالحين الى الاحتفاظ عليهم بما يصل اليه وسعها والى حسن انتقائهم وتقليدهم الوظائف وتدريبهم على العمل وتعويدهم على النشاط واعدادهم لرياسة المصالح المهمة لدى الكفاءة دون النظر في اعمارهم اي يجب ان نجعلهم كباراً في الاستعداد والادارة ولو انهم صغار في السن ليتمكنوا من خدمة الوطن وهم في حدة الشباب ونشاطه قبل ان يدركهم عجز القوى العقلية والبدنية فتفوت المزية المطلوبة منهم في خدمة البلاد

على ان النظام المطلوب في بياننا هذا لا تدرك غايته الا اذا روعي فيه ما على ارباب الوظائف ولا سيما كبارهم من المواجب المهمة وهو ما نلم به في ختام بحثنا هذه لتكون محيطة بالموضوع من جميع اطرافه

فمن ذلك اولاً وجوب ثقة رئيس المصلحة بمن يرأسهم ليتمكن من التفريغ

الى المهم من وظيفته فيوفيها حقها والا التبست عليه اشغالها واستوى الاهم منها بالمهم فانقص من واجب الاثنين · ودليل ذلك ان الناظر مثلاً لا يمكنه ان يكون ناظراً ووكيلاً ورئيس قلم ومديراً ورئيس ضبط وناظر قسم فاذا لم يثق بعمال نظارته بل وجه عنايته الى هذه الفروع توجيهاً عملياً قصر بالطبع عن القيام بمهام النظارة الاولى واقعد العمال عن العمل جبناً واستياء وكان بما اتاه مشتغلاً بما يمكن لغيره ان يشتغله وتاركاً ما لا يباح لغيره ان يشتغله فالثقة اذاً واجبة على شريطة ان تقرن بالمناظرة العامة

ثانياً يجب ان يفتدي المصلحة العامة بكل مصلحة خاصة وهذا الواجب يقضي عليه برعاية مطالب عديدة منها عدم اتخاذه المنصب ذريعة لنيل اغراضه الخاصة · ومنها عدم تحقير من يرأسهم لئلا يسأموا · ومنها عدم استنكافه من مشورة من يتبين كفاءته منهم في حين لا يحسن ان يكون آلة في ايديهم · ومنها اعطاء كل ذي حق حقه وتقديم المستحق وتثقيف المستعد ونبذ المتاخر وما شاكل ذلك

ثالثاً يجب عليه ان يشرف المنصب بشريف اعماله فالخير في من تصدر في المجالس لا في من صدرته المجالس وذلك يقضي عليه بان يقرن العزة بالحلم والعظمة بالاتضاع والوقار بالوداعة والعدل بالرحمة والشدة باللين · وفي هذه الحالة ينبغي عليه ان يترفع عن الدنايا كترفعه عن العار رعاية لحرمته وحرمة منصبه · وان يجعل مقامه اسمى من ان تصل اليه وشاية واش او نقل ناقل حتى لا يكون للغرض عنده مجال حذر ان تحركه العوامل النفسانية الى ما لا يؤذن به سمو المنصب وهو الانتقام الذي لا تدانيه كبار رجال ولا تتنازل الى تصوره ارباب المناصب السامية

رابعاً واخيراً يجب على رب المنصب ان يتخلق بجميع الاخلاق الحميدة الشريفة فهو من الرعية بمثابة مثل الاقتداء ونبراس للاستضاءة فلا يحسن به ان يكون عبوساً فينفر عنه ولا ضحوكاً فيهزأ به ولا كاذباً او مخادعاً او منافقاً لئلا يفقد ثقة العالم به ولا سكيراً او بذيء اللسان لئلا يحتقر او يهان بل يجب عليه ان يحافظ على كرامته بمحافظته على كرامة غيره وان يكون ثابت الراي لا عنيداً فيه وان يعلم فضل الاخلاص والولاء والود ليشوق الناس الى رعايتها وان يحترم الحسنة ومن اتاها ويقسو ليؤدب لا لينتقم يحنو ليستميل لا لينفر فاكتساب ميل الناس وثقتهم من اهم واجبات الموظف وبالتالي ينبغي ان يكون متجلياً بالاخلاق التي يستلزمها المنصب ويقضي بها ناموس الانسانية

ذلك ما عنّ لنا ان نعلقه في هذا الموضوع العام المهم ونحن على حالة نحمد الله لوصولنا اليها في شرقنا فقد اقتضت حكمة جلالة سيدنا ومولانا الخليفة السلطان الغازي عبد الحميد خان الاعظم ان يعزز السلطنة السنية بعزة عمالها وتكثيرهم وتقليدهم الوظائف التي يستحقونها ومثابرة التنبيه والوصاية للنظر في مصالح الرعية التي تدعو بتأييد ملكه ودوام نصره

وهكذا اقتضت حكمة سمو امير مصر وعزيزها وتوفيقها فانه حفظه الله لازم السهر في سبيل الوقوف على احتياجات الرعية وتمهيد العقبات الحائلة دون نجاحها وصرف العناية الى تعميم المعارف بين ابناء البلاد واعزّ شأن المدارس وادام التفاته اليها فاكثر بذلك عدد العمال الصالحين للعمل واحكم في حسن انتقادهم وانتقائهم وتعيينهم وفتح لهم ابواب التقدم وسهل مضمار المباراة فشادت القلوب بحمده ونطقت الالسنة بمدحه واشتركت في الدعاء له بطول البقاء وحفظ الانجال الكرام

هل عندنا رجال

له ايضاً

(في ٨ فبرايو سنة ١٨٩٠)

اجمع ارباب الحجى على ان الشرقي قد افاض الله عليه من بركات الحجى ما اتاح له الاندماج في سلك المرتبة الاولى بين مراتب بني آدم

واتفق المؤرخون على الحكم بسمو مقام الشرقيين بما استدلوا عليه من بدائع اثارهم واوابد اخبارهم

وقرر المدققون ان للايام اطواراً وللاحكام اقداراً وللزمن ادواراً تخضع لنواميس الطبيعة بين اقبال وادبار ايماء الى حركة الوجود

وقضى الحكماء بان العقل كالجسم في قابلية النمو فلا مندوحة عن رعاية الوسائل والوسائط

واجمع العالم عن ان العلم حياة العقل فهو غذاؤه وقوامه وملاكه وبه نشأته وعليه معوله

وحكم الطبع بان المصري هو من فريق الشرقيين وان له من الاثار ما يربو على اثار غيره عدداً وعظمة ونظاماً واحكاماً وعلماً وصناعة . وان الايام قد دالت على هذه البلاد فانتابها من رائعات العوادي وعاديات الروائع ما قلب لها ظهر المجن وغمزها بسنان النكد والقهر حتى اذا انتهى طور ادبارها بسم لها ثغر الزمان مبشراً بطور اقبالها وذلك من يوم عاهدتها العناية بعهد المغفور له الرجل العظيم محمد علي باشا ومن تعاقب بعده من اعضاء اسرته الكريمة حفظها الله

. فمن ذلك العهد هدمت حصون الاستعباد ودكت صروح الجهل . وشيدت على اثرها قصور المدارس . وخفقت فوقها بنود المعرفة والعلم . وعمرت دور الطباعة وولغت السنة الافلام في دماء المحابر وجرت سابحاتها في ميادين الطروس وثقفت العقول بالفنون . وارسلت الطلبة الى البلاد الاجنبية للوقوف على معارفها واختراعاتها وعجائب اعمالها . وترجمت الكتب المفيدة بيراعة ارباب البراعة . وامَّ مصر الرواد والسياح والنزلاء يخالطون ابناء البلاد ويمازجونهم ويعاملونهم . ذلك فضلاً عما كان للقطر من دانيات القطوف في جنان الفضل وزواهر العلم من بستان الازهر بل حرم العلوم الذي كان ويكون وسيبقى الحافظ الاكبر لعلوم الامة العربية وموضوع فخرها وموطن مجدها وهكذا مر على البلاد نيف ونصف قرن وهي جانحة الى التقدم ناهجة منهج السداد سائرة الى المحجة البيضاء . تذكر مجد اجدادها وما آلت اليه بعدهم فتحتفز الى القيام لارجاعه وتشاهد عناية الاسرة العلوية بها فتحفظ على جميلها وتداب السعي في اجابتها لرغائبها . وترى تسابق غيرها الى توسيع نطاق الادبيات والماديات فتانف من السكون الى الخمول . وتتبين انعطاف سمو اميرها وتوفيقها الى تأييد عزها وتشييد دعائم مجدها فتشيد بحمده وتهب من رقدتها ناشطة من عقال الحطة والخسف

تلك هي حالة مصر وما وليها من ذرائع التقدم مضافة الى ما انشأته يد الحوادث فيها من طور الاقبال من مدارس التجربة وسطرته من دروس الاختبار ورسمته من مشاهد الاعمال وصور العمال على صحائف السياسة والواح الادارة فضلاً عما انتبذته من مطالعات ساقطة ومطالب ضاغطة . وقد اقررنا وليس من يعنفنا او ينكر علينا ان قد صحت عقول ابنائها لصحة هوائها ومائها فنالوا بالاسرة الكريمة والفوز بالعلم الاطيبين بعد ان ذاقوا بسوء الحكم وتسلط الجهل الامرين . فهل بعد ذلك يسوغ لنا يا ترى

ان نسأل (هل عندنا رجال)

لقد مرَّ علينا بضعة اعوام اختلط خل حوادثها بخمرها والتبس خيرها بشرها . فنظرنا من بادي السياسة ما نشر عن خافيها وتبينا من خافيها ما شذ عن باديها حتى اذا ما وصل مستطلعوها السير بالسرى وقفوا وقد تفتقت استارها وقوف من اذهله ما لم يخطر له بالبال اذ شاهدوا يد السياسة قد كتبت على صحيفة الاعتذار سطراً ملخصه (هل عندنا رجال)

ولكن من تري هم الرجال الذين يقصدون في هذا السؤال . افلاحون يخدون الارض ويسمدونها ويزرعونها انتجاعاً للمورد الخصيب . ام مزارعون يبذرون الدرهم لاستغلال الدينار ويحكمون الزرع لاستدرار الضرع . ام تجار يردون ويصدرون ويوردون ويصدرون ويبيعون ويشترون . ام مضاربون يسترزقون بالحركة وتقذفهم عوامل الايام بين خوف من العناء وامل بالاكتفاء . ام محترفون يسلطون المادة على مثلها لايجاد الصور فينقدهم مساوئهم ما ينفقه صاحبهم . ام موسرون كفاهم غناهم مؤونة النصب فاخلدوا الى الراحة وجانبوا شظف العيش — كلا ان السياسة بسؤالها لم تقصد الرجال الذين من هذا القبيل اذ ليس لهؤلاء فعل موثر في احكامها ولكنها تقصد رجالاً تقوم بهم الهيئة الحاكمة لمساند اربعة وهي السياسة والادارة والحقوق والجندية

اما السياسة فهي الركن الاول من اركان كل حكومة وبلاد بل هي الدعامة الوحيدة للمساند الثلاثة المنوه عنها فكل حكومة لا سياسة لها لا قوام لها وليس يخفى ان الحوادث قد قضت بان يكون للسياسة في مصرنا شان مهم لا ينكره الا كل من لا يعلم من السياسة غير اسمها

واما الادارة فشأنها معلوم وهي محط رحال العمل ومهيع النظام وموئل الاتقان وبها تمهيد عقبات الاشغال والصلة الثابتة بين الحاكم والمحكوم والمنهج الواضح اما الى محجة العمار او الى وهدة الخراب . وان لهذا المسند في مصرنا شاناً يربو عظمة واهمية على مثله في بلاد اخرى لاسباب عديدة لا تحتملها عجالتنا هذه بل لا بد من الافاضة فيها في لمحة ثانية قريبة العهد

واما الحقوق فاسمها يغني عن تبيانها فهي ميزان العدالة بل هي الكافلة تبادل الحقوق وصون الحياة والرزق وقد كان لها في مصرنا شؤون تترى يانف ذو الشآمة من ذكراها ثم انقلب الشيء الى ضده لتناهيه فامسى هذا المسند موضوع اهتمام

القريب والبعيد ومرمى سهام النظر من الصديق والعدو

واما الجندية فيكفي وصفها بانها سياج الحكومة والامة ولها فضل الامن الداخلي ودفع الطاريء الخارجي ولم يكن لها في ما مضى الشان الذي امسى لها الان عندنا بعد ان ساورتنا الايام بمصائبها او اكتنفتنا الحوادث بنواصيها فباتت وهي نقطة الدائرة لخطوط مستقبل القطر

تلك هي المساند الاربعة التي تحتاج الى رجالها في قطر يبلغ نحو السبعة ملايين نسمة عداً وقد جرى من نيف ونصف قرن في المنهج الواضح علماً ودربة ولابنائه من الذكاء الطبيعي ما يؤهلهم الى ادراك المرام بسرعة الاكتساب فهل يسوغ لنا بعد ذلك ان نقول « هل عندنا رجال »

نقول ولا نخشى في الحق لومة لائم ان عندنا لهذه المساند اكفاءها من الرجال في حين لا نتطاول الى القول بان عندنا منهم عداً ومقاماً ما عند انكلترا او فرنسا او غيرهما ولكن لدينا اكفاء اله لما اثم من المصالح · واننا موردون للمطالع برهاناً ناصعاً على صدق ما اثبتناه وهو يشمل النظر في مسندي الحقوق والجندية فنقول

لا يغرب على المدققين ان الوطنيين كانوا في ما سلف يبيعون دعاويهم او يرفعونها باسم الاوربيين لكي تقام امام المحاكم المختلطة اذ كان لهم من الثقة فيها ما يحاكي عدم ثقتهم بالمحاكم الوطنية السابقة وكانوا يعذرون في ذلك · ولكن لما سمحت ارادة الجناب الخديوي التوفيقي بانشاء المحاكم الجديدة على السنن والقوانين العادلة وبدا للناس من احكامها وحرية ضمائر قضاتها ما حسنت بدايته وشرفت غايته عدل الناس عن منهجهم الاول ووثقوا بالمحاكم الاهلية وثوقاً جاء اصدق برهان على اهلية رجالها ولا سبيل للتحول عن هذا الوثوق الا اذا تبينوا مـا يعبث به واهمه الخلل بالاستقلال

اما رجال الجندية فنكتفي بالبرهان على اهليتهم ما كان منهم في مواقع الحدود ولا سيما موقعة طوسكي التي ابلوا فيها ولسنا ننكر فضل قادتهم عليهم بتدريبهم ولكن الفائدة التي وصلت الى الجندي البسيط كانت اسمى ولا مراء عند الضابط فكما ان ذاك احكم القيام بواجبه كذلك امكن لهذا ويمكنه ان يحكم بها اكثر من الاول لسموه عليه في الاستعداد فالتفاوت امر طبيعي وحسبنا شاهداً على ذلك مـا قاله رؤساء الجند من الانكليز في هذا الموضوع · واذا كان لمسندي الحقوق والجندية

المهمين جداً اكفاؤهما فكيف لا يكون اكفاء للمسندين الاخرين

ويذكر المطالع اننا ابنا في لمحة سابقة عنوانها (الاعمال بالعمال) ان القيام بالمصالح يستلزم وجود العمال وهذا يستلزم رعاية ثلثة امور وهي حسن انتقاد وانتقاء وتعيين وقد ثبت لنا الحصول على الاول فاذا اقررنا برعاية الثاني كان لنا عند ذلك ان نقول انه لا يسوغ ان نسأل (هل عندنا رجال)

بل كيف يسوغ ان نسأل ذلك ولا نخشى ان تسالنا العدالة وما الذي ينقصكم من معدات النجاح او من لم يستوف حقه من العلم والعمل . الم يقم منكم شبان طووا اردية الشباب باحراز العلوم ثم نشروها في سبيل العمل . اليس فيكم ارباب السياسة الذين اتاحت لهم الايام سهولة المطالعة والمراقبة والمعاشرة والمجالسة . وتلقي الحوادث سيئة وحسنة والتنقل في المناصب عظيمة ووضعية اليس فيكم ارباب الادارة الذين اعد لهم الاستحقاق او الحظ مقاماً في الخدمة وتمكناً من المنصب وتقلباً في الوظائف ودرساً في صحف الخبرة والتجربة وتوكوءا على عصي الحوادث . اليس فيكم المهندسون الذين رسموا مقدمات اقليدس على الواح افكارهم واذافوا عليه بما اربى على متونها من شروح المتأخرين اليس فيكم الاطباء الذين احيوا ذكر بقراط وجالينوس والشيخ الرئيس وقرنوا العلم بالعمل اليس فيكم الاقتصاديون الذين يحكمون النقد في العمل والمعاملة فلا يلبث ان يمسي درهمهم ديناراً — بلى فيكم كل هؤلاء وكيف لا يكون ذلك وطور اقبالكم في عهد الاسرة المحمدية العلوية اتاح لكم الوصول والحصول على هذه المطالب فلذلك هل يسوغ ان نسأل (هل عندنا رجال)

نعم يسوغ هذا السؤال ولو ان هنالك رجالاً في ما اذا انتفى حسن الانتقاء او قصر العمال في العمل ويمكن حصر ذلك في امر واحد لا غير وهو تفضيل المصلحة الخاصة على العامة فان ذلك من ادعى الاسباب الى هدم كل نظام ومنع كل اصلاح ولا سيما في البلاد التي قام للسياسة فيها شؤون واغراض واشرأبت اليها اعناق الاطماع والغايات وهيهات ان يقوم للمقصر عذر او تقبل منه حجة في حين انتدب لخدمة وطنه واستلم زمام الامر والنهي وعلم انه انتظر ان يسمع من وراء حجاب الحق صوت الذمة والشرف يسأل ذاك العامل ما عذرك في صرف همتك الى تحقير من ترأس وتفريق كلمتهم والقاء الشقاق بينهم وارتكابك الدنايا واهتمامك في الانتقام من زيد واعداد الشر لعمر ونبذك اوامر رئيسك واستعمالك الجفوة

والقسوة وجهلك مواجبك ولزومك الخداع والرياء والمخاتلة وعدم الوفاء والعفاف وتوجيه جميع قواك في سواد ليلك وبياض نهارك الى شر تدنيه وخير تقصيه في حين يجب ان يقودك عقلك الى انك باستلامك وظيفتك قضت عليك ذمتك وشرفك ودينك بان تكون اعمالك كلها لوطنك ولاميرك ولرئيسك · وانك في مقامك بمثابة مرآة لمن هم يصدعون بامرك فيقتدون بك ويعلمون ان القيام بواجبهم فروض مقدسة وينقادون الى اشارتك عن ميل ورغبة لا عن ازورار ورهبة وان ليس للانسان الا ما سعي وان سعيه سوف يرى

فبماذا تجيب عزة النفس وانت تسعى الى الذلة والحطة وباي حال تقابل الشهامة والانفة وانت تسعى الى رعاية الصغائر · وكيف تسال الاخلاص من غيرك وانت غير مخلص لغيرك بل غير مخلص لنفسك · بل كيف تشكو من وطأة المراقب وانت تفتح بمفتاح تقصيرك اقفال منزلك · وكيف تشكو معاملة رئيسك وانت اكرهته عليها بمعاملتك

ولكن ان للعدالة ان تشكوك او لصوت الحق ان يعنفك وقد اعززت مقامك باعزاز نفسك وشرفت منصبك بشريف اعمالك واوجبت على الغير احترامك برعاية مواجبك فنفرت من الدنايا وتمسكت بالعظائم ولزمت حرية الضمير واستقلال الفكر وقوام الارادة وصدق الاخلاص فابيت ان تكون آلة صماء تديرها يد الاهواء كيف تشاء اتفضيلاً للصالح الخاص على العام

بل كيف لا يكون لك ذلك وانت تعلم ان شموس الحرية في هذا العصر قد نسخت ظلام الاستبداد والرق وان مشكاة العلم قد انارت الابصار والبصائر فالاعين بك شاخصة والاذهان مراقبة والاقلام مسطرة والتاريخ حافظ

بل كيف لا يكون منك ذلك وانت ابن بلاد ينعشك هواؤها ويرويك ماؤها وتدر عليك ارضها وسماؤها وقد ربيت في احضانها وصدرتك في ديوانها وعلمت ان شأنك يقوم بشأنها

بل كيف لا يكون منك ذلك وانت الذي لزمت دار العلم من يوم اميطت عنك التمائم ونقدت جديد الشباب درساً تحافظ على درهم المشيب ادارة وتبرهن لاقرانك انك ذاك · ولوطنك انك غير عاق · وللقريب انك من انسال اولئك وان في البلاد رجالاً من امثالك ياهلون لاجل المناصب فلا يكون للفكر مجال في

ان يسأل « هل عندنا رجال »

بل كيف لا يكون ذلك منك وانت تستوهب نعم تلك الاسرة المحمدية العلوية وتعيش في ظلها وتعترف من نيل جدواها وترى التوفيق بالتفات سمو توفيقك العزيز الذي وقف نفسه لخير وطنك واسعاده وهجر الوسن في سبيل انجاح مقاصده وتحقيق امانيه . فاعرف واعترف بجود يديه . وكل امرك في مهام الامور اليه . اعز الله به البلاد . وبلغها بطول بقائه المراد . حتى لا تبرح تتجاذب بوجوده اطراف الفوائد ولا تنفك تهصر لمكارمه اعطاف المحامد

من استقلت ارادته استقامت ادارته

« له ايضاً »

(في ١٥ مارس سنة ١٨٩٠)

نتصور فنريد فنعمل فنجازى فالجزاء مترتب على العمل وهذا موقوف على الارادة . وقد ذكرنا في لمحة سابقة ان سلامة الوجود العام تكفلها سلامة النظام العام . وان سلامة الموجود من ادنى فاعلي يقوم بحفظ النظام المترتب على حسن العمل وذلك ما لا يكفله الا ادارة مستقيمة تصدر عن ارادة مستقلة فمن استقلت ارادته استقامت ادارته

نتج اذن ان سلامة كل فرد بل كل حكومة موقوفة على سلامة نظامها وذلك مترتب على حسن ادارة . فالادارة اذن ميزان كل حكومة وقوام كل مملكة . ورجالها هم الكافلون صون بلادهم والقائمون بشؤونها والذابون عن حوضها والدارئون طوارئها والذاهبون بها من غمرات الخلل والضغط الى سواحل النظام والسعة بل هم سياجها الضامن استقلالها والصائن حقوقها . ولذلك وجب ان يكونوا اكفاء لها وبالتالي اكفاء للقيام باعباء تلك المسؤولية او التبعة التي تلحقهم اصلاً وفرعًا من وراء قبضهم على ازمة العمل واستئثارهم بتصريف الفعل فيما اندبوا اليه ومطالبة كل منهم بما تستلزمه قوانين ادارته لان التصدر لتحمل اعباء تلك التبعة هو الذي اباح لذلك العامل ان يتصدر في ادارته ويمتاز ادبيًا وماديًا عمن هم دونه

ذلك ولا مراء هو الناموس الذي قضى بالرضى المتبادل بين ارباب المراتب على اختلاف النوع والكيفية . والا فكيف يحكم العدل على ذاك العامل بالسكوت وقد دأب على العمل مكلفاً بحمل الاثقال ومعرضاً حر وجهه لحر الشمس وضاغطاً على قواه البدنية ضغطاً اقل نتائجه شق النفس وعرق القربة وله جزاء ذلك من نقد معدود ما لا يتيح له الا الحصول على كسرة من خبزٍ اختمر بحرارة التعب وعجن بعرق الجبين ولكنه رزقٌ حلال وكفى به انه يغني عن ذل السؤال بينا يرى ناظره او رئيسه مكتفياً بالايماء والاشارة نهياً وامراً غير مكلف بمشاق العمل وله جزاء ذلك من نقد معدود ما يتيح له بسطة العيش والتأنق بالمأكل والمشرب والتدثر بخير الملبس . وقس على ذلك كل مرؤوس تلقاء كل رئيس وكل مرعيّ ازاء كل راعٍ . فالاول قد رضي وحكم العدل برضاه لان مسئوليته لازمة به فهو لا يطالب الا باتمام ما امر بعمله ولا يهمه عمل سواه واما الثاني فمسئوليته لازمة ومتعدية لانه مسئول عن العمل من حيث هو وعن كل من قام من اعماله بذاك العمل فهو اذن في موقف لا تثبت فيه الا قدم اقدامٍ وثبات ونشاط وكلما بعدت همة رب الادارة زادت همومه وجسمت اعماله لان الهموم بقدر الهمم

ولا يفوت الخبير ان هذا المطلب الخطير كان له في شؤون الحكومات الخطيرة شأن مهم ترتب على رعايته نقد الرجال واختبارهم ومعرفة مقاديرهم لان الوظيفة محك للموظف ولا سيما ما تعلق منها بالادارة فهي تقضي على اربابها بالابانة والاظهار فتحدق الابصار بتلك المشاهد وتحكم البصائر عليها او لها . ولما كانت نتائجها متعلقة بالعموم من حيث الضرر او النفع استلزم الطبع ان يكون اربابها عرضة للملاحظة العموم وهدفاً لرمي نبال التنديد واللوم او موضوعاً لعبارات الثناء والشكر . فالموقف والحالة هذه هائلٌ مهيب لا بد من ان تدرك صاحبه هزةٌ اما عن طرب يولده الشعور باتمام الواجب لوجود الكفاءة واما عن وجلٍ يولده الشعور بالعجز عن الاتمام لفقد الكفاءة وهنا منشا الفرق بين الرجال

وان لنا من وراء هذا لبحث بحثاً جديداً في شان الادارة بين جانبي الصعوبة والسهولة بالنظر الى الشعوب فهي كما لا يخفى اما متمدنة او متبدية او بينهما وعندنا ان ادارة شؤون الطرفين المتناقضين اسهل من ادارة الطرف المتوسط لان المتمدنة تعلم واجباتها وواجبات غيرها فتعطي كل ذي حق حقه وتحفظ للحرية المعتدلة مقامها

وتحول دون من يروم العبث بها ومتى كان لها هذا الشأن تنبه رب الادارة الى مواجبه وعلم ان عليه من الرعية عيونًا وارصادًا وانه مسئول ومطالب بما يعمل فلا يركب متن الباطل ولا يتخطر بثوب العجب والتيه ولا يجمع قواه العقلية لتوليد الاضرار ودرء المنافع بل يصرفها الى حيث الفائدة و يرتاح الى الرضى عن نفسه لقيامه بواجبه كما يرتاح الى اقناع نفسه بان هنالك من يعلم نتائج عمله فيقابله بترطيب اللسان في الثناء فضلاً عن رعاية الحرمة وحفظ الكرامة

واما المتبدية فهي حليفة الارهاب وآلة القوة وبهما يسهل قيادها لتعودها على ان تدين لرئيسها وتخضع لاشارته وتقتنع بان رضاه عنها كافل حفظ وجودها فاذا احكم رئيسها العمل تمكن من قيادتها كما يحب ويختار ولم يخامره وجل من الانتقاض عليه او العبث باحكامه وبالاستقراء سن لها من الشرائع ما يراه موافقًا لمنزلتها

اما الصعوبة كل الصعوبة فهي ادارة الشعوب المتوسطة بين الجانبين فهي لم تبقَ لها اخلاق البداوة لتعامل بما يناسبها ولم تتخلق باخلاق الحضارة على ما يجب لتعامل معاملتها ويغلب على الشعوب التي في مثل هذه الحالة انها تنبذ محاسن البداوة في حين لا تاخذ من عوائد الحضارة الا ما بدا من مظاهرها الساقطة وهنا محط رحال الصعوبة امام الادارة لانها اذا عاملتها بموجب البداوة تظلمت وشكت وارجعتها الى الوراء · واذا عاملتها بموجب الحضارة تمردت وعتت وحكم هذا الشان في الشعوب كحكمه في الافراد فالعالم ابن الحضارة سهل الانقياد لانه يعلم واجب نفسه وواجب غيره فلا يؤذن له علمه بالتقاعد عن الوفاء فهو من قبيل من يدري و يدري بانه يدري · والجاهل يسهل انقياده بحكم الفطرة لاستعداده الى قبول العلم فهو من فريق من لا يدري ويدري بانه لا يدري · واما التوسط بينهما فحكمه حكم الاحمق فهو من قبيل من لا يدري ولا يدري بانه لا يدري

على ان الادارة بجميع انواعها لا يستاثر بها مديرها استئثارًا يكفيه مؤونتها على واجب امرها وفريضة حكمها الا اذا استقلت له ارادة تتصرف فيه بالرشاد والسداد والحكمة والمعرفة وتسير به في الجادة المصونة بالقانون والمضبوطة بالقواعد العامة حتى يحتاط باوامرها ونواهيها ويضمن سلامة مباديها وغاياتها اجابة لارادة الوازع — واننا بما نذكره عن استقلال الارادة لا نعني به الاستبداد فان بين الطرفين بونًا شاسعًا وبعدًا سحيقًا وما الاستبداد الا الآلة المؤثرة على هدم كل ادارة وتخريب كل عمل

بل هو جرثومة الظلم ومنشا الثورات وعلة التاخر وذريعة الانحطاط وقد قضى عليه الجيل التاسع عشر المزدهر بالعلم والمعرفة قضاء صارماً بزجه في دركات الهاوية . ولكننا نعني باستقلال الارادة ان يكون لمستلم الادارة ارادة له تعمل في تلك الادارة بموجب قانونها لا ان يكون خلياً منها بمثابة آلة لا ارادة غيره فمن لا ارادة له لا ادارة له

فاولئك هم ساسة الحكومات والممالك والقابضون على زمام ادارتها يسيرون مع من دونهم من العمال على وتيرة واحدة في الخطط التي اختطها القانون ولا يتخطونها بوسع الخطى حتى لا يخرجوا عنها ويلم العبث بالقانون فيفسد النظام فكلهم خاضع للقانون فهو الرئيس العام والاصغر منهم خاضع بموجب هذا القانون لمن هو اسمى منه ولكنه مستقل ارادة ليسعه القيام بادارة ما اتاحت له السلطة تدبير شؤونه فالمامور مثلا هو رئيس على رجال ماموريته وله من السلطة اختصاصات صرح بها القانون ثم هو مرؤوس من المدير يتلقى منه التعليمات ويبادله ما عنده من اعمال ماموريته . فللمامور اذاً بصفة كونه رئيساً ان يستقل ارادة للقيام بواجب ادارته والا سقطت حرمته عند من يأتمرون بامره . وعليه بصفة كونه مرؤوساً ان يرفع الى رئيسه شرح متن اعماله . ولرئيسه في هذه الحالة ان يطالبه بما يقضي عليه القانون وان يكلفه بما لا يقضي به وقس على ذلك حلقات السلطات بفروعها فضلاً عن حلقات الاعمال على اختلافها حتى يرجع الجميع الى القانون العام المشروع لتلك الحكومة او الدولة

فاذا اتزنت هذه المطالب ولم يعثورها نقض وابرام ازدانت الادارة بسلامة احكامها واقبل العمال على العمل وهم عالمون مواجبهم ومسترشدون بدليل النظام ومعتضدون باستقلال الارادة والا رمحوا في بيداء التيه واعتسفوا سبل الضلال وركبوا متن الغرور وبالتالي اخلدوا الى الرضى بالحاصل احسن او اساء اضر او افاد واستكانوا الى القبول بما طالما غادروه عن انفة وعزة وشرف وكرامة فاقتنعوا والحالة هذه من مرارة حقيقة المنصب بحلاوة ذكراه وهزوا المنكبين وقالوا لنا جعل نستوليه ولا يعنينا ما هنالك . ومن هذا المبدا نشات الصنيعة او ما يطلق عليه بين العموم لفظ «المحسوبية» التي تحمل رب الادارة على نبذ القانون ظهرياً والتطاول الى ما لا يعنيه في سبيل تركه ما يعنيه فيضع الاشياء في غير مواضعها ويستوي لديه الحق والباطل ولا يلبث ان يمسي آفة على ما تمكنه الايام من الاضرار بهم

اجابة لاغراضه اولدعوة مريديه ثم آلة تحركها يد القوة الضاغطة فيعمل ولا ارادة له . وفي مثل هذه الحالة يعلم المدقق الخبير ما هي مزية استقلال الارادة في شؤون الادارة

وان رعاية هذا الشان كانت ولا تزال الذريعة الباعثة على صون الادارة في غالبية الممالك الغربية فاستتب نظامها واستقامت شؤونها كما كان عدم رعايته في شرقنا وصلة للاخلال والعبث فافضى الى هدم النظام والتلاعب في الحقوق والاحكام حتى ادركته العناية بعهد رب الجلالة والشوكة مولانا السلطان الغازي عبدالحميد خان فجلا بشموس حكمته دياجي المظالم وانار ابصار الرعية وبصائرها بمشكاة عدله ورحمته فانتبه الحاكم الى مواجبه وعلم المحكوم حقوقه وبالاستقراء نالت البلاد ما اعدلها القانون وحق ان تناله فرتلت الالسنة آيات الدعاء بحفظ جلالته وتايد مملكته

ولقد كان لهذا الفطر العزيز من سمو عزيزه وتوفيقه ما ادرك به الغاية من هذا المطلب المجيد وحقق برعايته امانيه من نحو هذا المبدا القويم فاخلد الاهلون الى جنان الرضى ولازموا حظيرة الاخلاص اذ وجدوا في سمو اميرهم ذلك الامير الذي عاملهم بالاحسان وقابلهم بالانصاف فهادوه قلوبهم وسألوا الله ان يطيل ايامه عليهم محفوفاً بسلامة الانجال وصون الآل

الامة والوطن

« لاديب بك اسحق »

الامة الجيل في كل حي ومن الرجل قومه وفي عرف اهل السياسة الجماعة المتجنسة جنساً واحداً الخاضعة لقانون واحد وليس المراد بوحدة الجنس التوفيق بين الانساب لتعذر ذلك في كثير منها ولما طرأ على انساب الناس ولا سيما الحضر من المفاسد الكثيرة ناشئة عن تخالط الاقوام مختلفة انسابهم وتوالي الحروب والغارات وتوطن بعض الفاتحين فتوحهم وتزوجهم في اهلها الى غير ذلك مما جهلت به الانساب وخفيت به الاحساب الا ما حفظ بمناعة اهله عن ان يدانيهم فاتح غريب وهو قليل لا يقاس عليه وانما المراد بوحدة الجنس اتفاق الجماعة على الاعتزاء الى جنس واحد

يتوالدون فيه ويتسمون به كالجنس الاميركاني لسكان الولايات المتحدة الاميركية سواء كانوا انكليزًا او فرنسويين او اسبانيين او اميركانيين اصلاً والعثماني لسكان البلاد العثمانية في اوربا واسيا سواء كانوا تركاً او عربًا او تترًا اصلاً والاوستري لسكان سلطنة اوستريا سواءً كانوا المانًا او صقالبة او ايطاليين اصلاً وهلمَّ جرًّا

وقد زعم بعض الناس ان من لوازم وحدة الامة وحدة لغتها وهو وهم لانه اما ان يراد بذلك الاستدلال باللغة على الجنس اولاً فان كان الاول فهو فاسد لانه قد يلد الانسان بين قوم وينبت فيهم فيتكلم بلغتهم وهو بعيد عنهم نسبًا ولان ما ذكرنا من تخالط الاقوام واغتراب الفاتحين قد احدث في لغات كثيرة من جماعات الناس فسادًا بحيث صار مزيجًا يعجز ابرع الكيماويين عن تحليله كما في لغة اهلي مالطة مثلاً فامتنع بذلك الاستدلال باللغة على الجنس وان كان الثاني فهو من قبيل ايجاب ما ليس بواجب ولو اقتصر اهل هذا الرأي على استحسان وحدة اللغة في الامة لاحسنوا

فقد ثبت بما ذكر ان الامة هي الجماعة من الناس تتجنس جنسًا واحدًا اي تتسم بسمة واحدة على اختلاف اصولها ولغاتها وتتعارف باسم تنتسب اليه وتدافع عنه

اما الوطن فهو المسكن يقيم به الانسان وفي عرفهم البلاد يتوطنها سواد الامة الاعظم ويتوالدون فيها ولا يشترط فيه مساحة معلومة بدرجات معينة او اقليم واحد بتخوم معروفة وانما تعريفه ما ذكر من توطن معظم الامة به وقد يضاف الى الوطن بلاد لم تكن منه وهي اما ان تكون فتوحًا ضمت اليه عنوةً واما ان تنضم اليه برضى اهلها فان كان الاول فاما ان يكون ضمها قديم العهد وتكون معاملة حكومة الوطن لها معاملتها لسائر اهله فتثبت الملكية واما ان لا تكون هذه ولا ذاك فلا تثبت وان كان فلا مشاحة في صحة الانضمام

وقد اختلف في سبب حب الوطن فقيل ان السبب فيه [illegible] فان الانسان اذا الف شيئًا احبه واجيب بانه قد يخرج الانسان من وطنه صغيرًا فينبت في آخر ولا ينسى مع ذلك حب وطنه وقيل ان حب السكان يورث حب المكان كما قيل

وما حب الديار يهيج وجدي ولكن حب من سكن الديارا

واجيب بانه قد ينتقل الانسان عن وطنه بمعظم اهله واصدقائه ولا ينفك مؤثرًا وطنه بالحب وعندنا ان ياء الاضافة في قولي وطني هي السبب في حبي لوطني كما ان

ياء النسبة في قولنا فرنسوي هي السبب في حب الفرنسوي لامته فتأمله · فلله من ياءين ياء نسبة وياء اضافة يدعوان الى فضيلتين حب الامة وحب الوطن .

ولقائل انك قد جعلت مصدر حب الوطن والامة الانانية (حب الذات) وهي نقيصة فكيف صح في قياسك صدور الفضيلة عن نقيضها وجوابه ان الفضيلة هي الدرجة الرفيعة في الفضل والفضل ضد النقص اما الانانية فهي نسبة لضمير المتكلم على غير قياس وفي عرفهم ايثار الانسان نفسه بما يراه خيرًا سواء جنى بذلك على غيره خيرًا ام شرًا وليس في حب الوطن او الامة شيء من ذلك كما ترى .

اما وجه كونهما فضيلة اي درجة رفيعة في الفضل فهو لانهما يقضيان على صاحبهما بخدمة الارض التي يغتزي بخيراتها والانسانية التي جعلته في جماعة من نوعه يعينونه على استحصال حاجاته ويدفعون عنه اذى سائر الانواع ولعلك لا ترضى بهذا تعليلاً فتقول ان خدمة الانسانية والارض لا ينبغي ان تنحصر في جماعة من الانسان او في جهة من الارض وانما يجب ان تكون عامة فيهما والجواب انه لما رأى الانسان من نفسه عجزًا عن القيام بجميع حاجاته الطبيعية ودفع اذى سائر الحيوان تالف جماعة تفرقت فيها تلك الحاجات فصار هذا زارعًا وهذا حاصدًا وذاك طاحنًا وذاك عاجنًا والآخر خابزًا وهلمّ جرًّا وكل منهم في شأنه ساع فلما كبرت هذه الجماعة عن ان يسعها قسم واحد من الارض تفرقت فيها فصارت جماعات منفصل بعضها عن بعض حسًا من تواصلها بالنوعية واقبلت كل جماعة منها على الاشتغال في الارض التي اختارتها مقامًا استحصالاً لحاجاتها واخذ كل من اهلها في الاشتغال بما ارتضاه لنفسه من الصناعات ليعين بمصنوعه رفيقه مستعينًا بما يصنعه ذلك الرفيق ولو حاول الانسان الاشتغال في جميع الارضين بجميع المهن والمشاغل لفني عمره ولم يأت بفائدة تامة بخلاف ما اذا اقتصر على الاشتغال بمهنته في جماعته اذ تتيسر له اسباب الاعانة والاستعانة فتحصل الفائدة التامة في الجماعة وينتهي ذلك الى حصولها في النوع لما بين الجماعات من علاقات الانسانية وهذا وجه الفضيلة في حب الامة وحب الوطن فليرسمن اسمهما على صفحات كل قلب وليلهجن بذكرهما لسان كل انسان فانما المرء باصغريه القلب واللسان

الملك والرعية

« له ايضاً »

(كتبها في جريدة مصر التي انشاها عام ١٨٧٧)

الملك اما استبدادي او شوري والشورى اما جمهورية او ملكية وهذه مراتب الملك منذ كان القانون ووجب حفظه وخرج عن هذه المراتب الحكومة الفوضى ان صحت تسمية الفوضى بحكومة

وما كل ملك بملائم لكل قطر وما كل قطر بصالح لكل ملك فالجمهورية لا تصلح للصين كما لا تصلح الملكية الاستبدادية لانكلترا فان تلك وهي حكومة الشعب بالشعب لا يحسن ان تكون في قوم تولاهم الجهل وهذه هي حكومة الشعب بواحد منه لا يصلح ان تكون في قوم بلغوا من التمدن والمعرفة غاية نبيلة وان كانت فلا تلبث ان تنقلب شر منقلب كما جرى لحكومة لويس السادس عشر وشارل العاشر ونابوليون الثالث في فرنسا فان حكومات هولاء الملوك وان وسمت بالشوروية ظاهراً فقد كانت استبدادية باطناً وذلك ما دعا الى نقضها وثل عروشها

ومعلوم ان مصلحة الملك متعلقة بمصلحة المملكة فلا بد للملك الحريص على مصلحة نفسه ان يحرص على مصلحة بلاده لان عمرانها يقضي برفعة شانه وتوطيد ملكه والعكس بالعكس وعمران البلاد ينشأ عن حسن قانونها والعدل في انفاذه وهذا وذاك متعلقان بالحكومة فهي التي اذا ارادت عمران بلادها جعلت لها قانوناً يلائمها واقامت على انفاذه قوماً لا تاخذهم في الحق لومة لائم ومن الحكومات من تراعي ذلك فتجريه ايثاراً لمصلحة بلادها وحرصاً عليها ومنها من تمتنع عنه فتكره عليه ومثال هذه حكومة انكلترا وفرنسا واسبانيا ومثال تلك حكومة الدولة العلية والحكومة الخديوية فانهما ايدهما الله قد جعلتا حكومتهما شوروية ولا حامل لهما على ذلك الا الرغبة في عمران البلاد واحياء العباد شان الحكومة الحكيمة من قبلهما ومن بعدهما وليس الشورى في الحكومة او الحكومة بالشورى بدعة جديدة فان شواهد النقل مؤيدة بدلائل العقل تثبت قدمها فمن ذلك التواريخ على علاتها وقوانين الامم على اختلاف عاداتهم ومشاربهم وكتب الشرائع واقوال الشارعين العظام وفي (وشاورهم بالامر) نعم الدليل

ولقد عرف الناس الان شرور الاستبدادوترفعت نفوسهم بالعلم عن الرضي به وصار الامر شوروي عند جميع الدول المتمدنة الا الروسية وذلك ان صحت تسمية الدولة المستبدة مطلقًا بدولة متمدنة

ولم يكف الروسية بقاؤها مستبدة على حين تحوّل سائر الدول الى الشورى حتى كانت سببًا في توقيف غيرها عن ذلك القصد النبيل فانها قد منعت الدولة العثمانية حينًا عن انجاز ما شرعت فيه من اصلاح داخليتهاوتنظيم شوراها بهذه الحرب العنيفة التي دعا اليها الغرور على ان الدولة العثمانية لم تكن ليمنعها من ذلك مانع فانها لم تهمل ذلك الشأن مع اهتمامها بالدفاع عن وطنها ولم تغفل عنه ساعة مع انهماكها في نازلتها المهمة وحسبنا على ذلك دليلاً ما رأيناه في مخاطبة مولانا السلطان الاعظم للعساكر المحافظة التي عرضت عليه حيث قال (لقد ملأ قلبي سرورًا ما رأيتـه من اهتمامكم وانتظامكم وارجو ان يكون لكم مثل ذلك بعد الحرب حين اجرء الاصلاح)واصرح من هذا ما حكاه مكاتب (الدالي تلغراف) حظي بمقابلة مولانا حفظه الله فلاطفه بكلام شف عن حسن النية ودل على نبالة القصد وقد رأينا ان نعرب كلام هذا المكاتب مشرفين هذه المقالة بتعريب ذلك النطق اثرة قال المكاتب ما مفاده

تمكنت من اجتياز خطوط الروس الى صوفيا ومنها قصدت الاستانة فبلغتها واستأذنت في الدخول على السلطان الاعظم فاذن لي فرفعت اليه ما عاينته من شجاعة العساكر العثمانية ورئيسهم في بليفنا فسر بذلك وآنسني كثيرًا ولاطفني بالمحادثة ثلاث ساعات متواليات فاذهلني ما رأيته من الدعة في سلطان امة عظيمة منتصرة وادهشني قوله كلما ادى الكلام الى ذكر الانتصار ما النصر الا من عند الله وما توفيقي الا بالله وقد خلا كلامه بجملته عن كل ما يشف عن الكبرياء او ما يدل على الحقد واني ناقل منه ما يأتي • قال مولانا • جاءني اللور سالسبوري قبل الحرب بلائحة تتضمن صنوف الاهوال التي تتعرض لها الدولة العثمانية برفضها قرار المؤتمر فاجبته انك يا عزيزي لم تجعل لله مقامًا في لائحتك ولم تفتكر في انتقامه للعثمانيين على حين بؤسهم ولقد كان لساني حينئذٍ يترجم عن قلبي فاني كنت على يقين من حسن ظني بالله وتوكلي عليه

وقد جاءت الحوادث بما اثبت لي الاصابة على اني مع التوكل على الله كثير العناية بامري شديد الاهتمام به ولا اغفل عنه ساعة

واول ما في نيتي اجراؤُه بعد ابرام الصلح تنظيم المالية لوفاء الدين واصلاح حال الزراعة وغيرها من اسباب العمران وغاية ما ارجوه ان ارى حكومة الدولة العثمانية حكيمة شورية والله اسأل ان يؤهلني لصنع الخير في قومي ويجمع على محبتي قلوبهم ويعينني على ان اقيم في بلادي بعد هذه الحرب الظلمية حكومة جيدة تضمن لها مستقبلاً حسناً

فكيف لا تجتمع قلوب الرعية على ولائه ولا ينتظمون تحت لوائه وهو يعدهم بما لم تعدهم الاماني من جعل حكومتهم شورية حكيمة لا تأخذ بالوجوه وتصرف عنايتها الى اصلاح شأنهم باستخراج المعادن من ارضهم المهملة وصيانة اراضيهم الصالحة للازدراع من افساد المعتدين وجلب الصناعات ونشر العلوم وكيف لا تحب سلطانها امة كالعثمانيين رأت في الكثير من سلاطينها المتقدمين كبرًا وانفرادًا حين ترى فيه من الدعة ولين الجانب ما ادهش الاوربيين فضلاً عن الشرقيين ودعاهم الى الثناء عليه

فهذه الصفات مضمومة الى ما تقدم ذكره من حسن النية ونبالة القصد ايدت ثقة الامة بسلطانها وجدَّدت قديم همتها وسابق فتوتها واحيت في قلوبها حب الوطن بعد موته فبادرت الى بذل النفوس وكل نفيس لتدرأ عنه كل من رامه بشرّ واقد وهم من حسب هذه الغيرة محض تعصب للدين فان العثمانيين جميعًا على اختلاف مذاهبهم ومراتبهم قد جادوا بالارواح والاموال للدفاع عن وطنهم ولو صح ما قيل من انهم فعلوا ذلك تعصباً للدين وحده لما قام به غير فئة منهم فان قيل ان الجائدين بالارواح مكروهون على ذلك بالقرعة العسكرية والجائدين بالاموال مكرهون عليه بالفرض المحتوم قلنا فاين المتطوعة الذين تسارعوا الى الانتظام تحت اللواء العثماني قادمين من جهات شتى واين الاعانات المرسلة من كل ناحية ليستعان بها على نفقات الحرب بل اين جمعية الصليب الاحمر في ضمن الهلال الاحمر التي انشئت في ازمير لجمع المتطوعة والاعانات فجمع فيها من اولئك عدد غفير ومن هذه شيء كثير بل اين متطوعة الارمن والروم وغيرهم من العثمانيين أكان تطوعهم في الجندية العثمانية تعصبًا للدين ام اكرهوا عليه لعمري انهم لم يكرهوا وما كانوا بمتعصبين وانما هي غيرة وطنية تجددت فيهم بما رأوه من حسن مقاصد حكومتهم على اننا لا ننكر ما هاجته هذه الحرب من عواصف التعصب في افكار بعض الناس ولا سيما الجاهلين غير ان جاهلنا

قد تعود الانقياد للعاقل بخلاف جاهل بعض الاجيال فانه مع جهله شديد التمسك برأيه ولذلك لا يتعذر على العاقلين منا ان يزيلوا آثار التعصب من افكار الجاهلين فنكون جميعنا امة واحدة لا نتعصب الا لوطنها ولا تطلب الا صيانته وتنقش على صفحات قلوبها (فلتحيَ الامة) (فليحيَ الوطن)

من نحن

(لسليم افندي البستاني)

نحن ذرية قوم افاضل قد اشتهروا قديمًا بالمعارف والصنائع والتجارة والحماسة والشجاعة والفتوحات والفصاحة والحكمة فمنا من ينتسب الى العرب الذين سادوا ومادوا شرقًا وغربًا وتملكوا بلاد العرب والعجم وافريقية واقصى المغرب والهند وامتدت فتوحاتهم الى اسبانيا واكثر بلدان اوربا ونشروا الوية العدل والمعارف والصنائع والتجارة والزراعة في كل صقع ونادٍ امتدت سلطتهم اليه واخترعوا امورًا شتى والفوا كتبًا لا تحصى وانشأوا مدارس لا عدد لها في كل مكان خضع لسلطتهم القهارة. ومنا من ينتسب الى السريان والكلدان اصحاب الفتوحات والشجاعة والسطوة الذين امتدت سلطتهم في الشرق الى جهات مختلفة واشتهروا بحب العلوم والمعارف والحكمة حتى وصلوا فيها الى الدرجة القصوى. ومنا من ينتسب الى اليونان الذين اشتهروا بالفلسفة والحكمة والصناعة والتجارة والشجاعة والاقدام حتى اخضعوا لسلطتهم كل الكرة المعروفة حينئذٍ شرقًا وغربًا. ومنا من هم اخلاط متسلسلون من امتزاج تلك الشعوب العظيمة بعضها مع بعض. ونحن سلالة الذين اعطوا العالم الاديان وعلموه الصناعة واخترعوا له اصول ما له من الامور النافعة واكسبوه مبادي ما له من التمدن واسباب الرغد والراحة وفتحوا له ابواب المتجر برًّا وبحرًا واقتحموا الاخطار والاهوال العظيمة لكي يكسبوا بلادهم ثروةً وصولةً وشهرةً وهيبةً. ومنا الشرفاء والاكابر واشهر الكرماء ونحن نكرم الضيف ونحسن مثواه وبلادنا احسن البلدان هواءً وماءً وتربةً ورغدًا ولغتنا افصح اللغات واوسعها

ولكن وا اسفاه اين كنا واين صرنا الآن اين مدارسنا اين علومنا اين كتبنا

اين مكاتبنا اين آلاتنا اين تجارتنا اين زراعتنا اين صناعتنا اين نخوتنا اين ثروتنا اين قوادنا اين تمدنا اين اكابر رجالنا اين معاملنا اين مراكبنا اين سككنا اين شعراؤنا اين علماؤنا اين محبو وطننا اين الرغد والراحة والكرامة التي كنا فيها . ان اكثر ذلك قد صار اثرًا بعد عين وكثيرٌ منه صار لا اثر ولا عين . نعم انه قد بقي لنا الافتخار بكوننا كنا وكنا ولكن اين هذا من ذاك . وقد ابتدأت انوار المعارف تشرق ثانيةً في بلادنا ولكن اين هذه من تلك . وقد ابتدأنا نرى هنا مدرسة وهناك فئة قليلةً من التجار ولكن ما هذه بالنسبة الى تلك وعلى الخصوص اذا كان قيام هذه هو على مصروف الصناعة والزراعة التي هي من اعظم اسباب الثروة ولا سيما في بلاد كبلادنا . وما نحن الا كمريض سئمت نفسه الاكل بحيث صار يغتذي من شحمه ولحمه . وقد كثر فينا الوعاظ والمنذرون الذين ينبهوننا الى ما نحن فيه من الخطر وما قدامنا من الخراب والوبال ولكن ماذا ينفع الوعظ من دون عمل وماذا يفيد الانذار اذا كنا كمن يضرب في حديد بارد او لم يكن من يسمع فيبادر الى معالجة ما بنا من الادواء والامراض المتنوعة التي كثيرٌ منها عضال واكثرها قد اختلفت عليه الاسباب وتناوبته العقاقير والعناصر الضدية التي لا تحصى بحيث تجعله عضالاً بعد ان كان قابل الشفاء واختلفت فيه اراء الاطباء الذين هم من بلدان ومشارب ومآرب مختلفة متضادة وآراء ومذاهب ومطامع متباينة وعلى الخصوص حين يكون المريض كما يقال كميت بين يدي مغسل . هذا على اننا لا نقول اننا لسنا على تقدم ولكن نخشى جدًا من ان يكون تقدمنا خطوةً من الجهة الواحدة يرجع بنا خطوات من الجهة الاخرى . ولا نشك بان المدارس مثلاً هي من اكبر وسائط التقدم ولكن ماذا يفيدنا اذا كثر فينا العلماء والمتكلمون باللغات ولم يكن لهم مراكز يحصلون منها على اسباب معيشتهم وراحتهم وكذلك لبس الجوخ وتحسين الاثاث والتفنن في الاطعمة هو مما يناسب الجميع ولكن ماذا يفيدنا ذلك اذا كنا نلتزم ان نبذل عنه ذهبًا اصفر ونغرب اموالنا عنا حتى نصبح بعد قليل في حالة الفقر ولا يبقى لنا الا التمتع بتلك الملابس والاثاث الى ان يعلوها البلى فلا يعود لنا اقتدار على تعويضها . وهو معلوم انه كما ان الاسماك الكبيرة تغتذي بالاسماك الصغيرة كذلك الاقوام المتمدنون واصحاب السطوة يعيشون على كد وتعب من هم دونهم في ذلك ولهذا ما دمنا على ما نحن فيه من التواني وعدم الاتحاد والالفة والجهل والتعصب والاعراض والانقياد الاعمى للذين

يحاولن ارتقاء سطوتهم وراحتهم على كيس جهلنا وغباوتنا مكتفين بما ورثنا اياه المرحومين من المغروسات والآلات والثروة لا يمضي الا القليل حتى نرى انفسنا قد وصلنا الى اسفل السافلين ونرى جيراننا قد سبقونا في ميادين التجارة والصناعة والسطوة على مسافة فراسخ كثيرة بحيث لا يبقى لنا امل بان نلحقهم ولا بحفظ مركزنا الحالي وما دمنا نرى اهالي اوربا مع ما لهم من الوسائط والثروة والصولة يجدون ليلاً ونهاراً ولا يدعون شيئاً من وقتهم الذي يحسبونه ذهباً يذهب سدًى كيف يسوغ لنا ان ندعي بكوننا نحن واياهم في ميدان واحد من ميادين السباق حال كوننا لا نصرف ثلث الوقت الذي يصرفونه في الاشغال سياسية كانت او دينية او صناعية او تجارية او كيف يكون لنا امل في مزاحمتهم حال كوننا نسير على ظهر الجمال والحمير وهم يسيرون على ظهر الرياح والبخار . وانى يدرك الظالع شأو الضليع . او كيف نؤمل نجاح صناعتنا وتاخر صناعتهم في بلادنا حال كون كل عربي يمدح صناعتهم ويطعن في صناعة بلاده ويفضل ما كان افرنجياً مهما كان على ما كان عربياً ولو كان احسن وارخص وكيف يمكن ان ينجح نساجو الحرير عندنا مثلاً ما دامت السيدات لا يعجبهنَّ ان يلبسنَ الا الاطلس الافرنجي وعنق الحمام وما اشبه من الاشياء والحلى الافرنجية . واذ كان الافرنج يقدمون لنا الابرة والدبوس والخيط والكشتبان والمغزل والصنارة والحبر والورق والاقلام والرمل المصبوغ وكل ملبوسنا واحذيتنا وزينتنا واثاث بيوتنا وآلات صناعتنا وتجارتنا ومطابعنا ومعاملنا الى غير ذلك مما لا يحصى افلا يحق لنا ان نندب حالة بلادنا التعيسة وعوضاً عن ان نقول من نحن ومن كنا واين كنا نقول اين نحن الآن

لماذا نحنُ في تاخر

« له ايضاً »

اذا سقط شيء من فوق الى اسفل او ارتفع من اسفل الى فوق نقول ان قوة جاذبةً جذبته او قوة دافعةً دفعته واذا دمدمت الرعود ولمعت البروق نقول ان الغيوم قد حك بعضها بعضاً والرياح تصدمها . واذا نجح زيد وتاخر عمرو نقول ان ذاك

جدّ وسعى واغتنم الفرص وهو اهل للقيام بحق العمل وهذا تكاسل وتهامل وهو غير اهل لذلك . واذا تاخرت الامم او نجحت نقول انه لا بد لذلك من اسباب . اما ادراك حقيقة تلك الاسباب والوقوف على ينابيعها مع انه صعب فهو ضروري لمن اراد ان يستأصلها . لانه لا بد من معرفة المرض واسبابه قبل اعطاء العلاج . وهذا هو سر التطبيب . لان معرفة العلاج سهلة بالنسبة الى معرفة المرض ولا سيما اذا كان المرض داخلياً غير ظاهر . وهذا هو الذي اعيا اعظم فحول اطباء السياسة واحذق علماء التاريخ الذين دأبهم البحث عن امراض الامم واسبابها . وعلى الخصوص لان هذه الاسباب وتلك الامراض لا تكون واحدةً في كل الشعوب بل تختلف باختلاف الزمان والمكان والدين والذوق والفطرة والاحكام اما ادراك اسباب امراض امة فهو صعب على من ليس من اهلها كما ان من كان مريضاً لا يحسن تطبيب نفسه ولذلك يلزم ان يستعان بما من شانه تسهيل السبيل الذي يقود الى معرفة تلك الاسباب وهذا انما يتم بالبحث المدقق الخالي من الغرض والتعصب في مرآة العالم وهي التاريخ . لانه بمقابلة ماضي امة بحاضرها ومعرفة اسباب ارتفاعها وسقوطها ينكشف الحجاب الكثيف الذي يحجب حقيقة الحاضر . ويصبح كل مستور مكشوفاً . لان المقابلة بين الاشياء تظهر جيدها من خبيثها . لانه لو عم الظلم امةً بدون وجود ما تقابل به مما هو احسن منها في غيرها او في نفسها في زمان حاضر او ماضٍ لظنت تلك الامة ان من عندها هو كل ما يمكن الحصول عليه . اما اسباب تاخرنا فسهل ادراكها على من ينظر اليها بعين التاريخ العادلة . وهي كثيرة تكاد لا تحصى وقد ذكرنا بعضها فيما سبق من الجنان وسنذكر بعضها الان وفيما ياتي ان شاء الله تعالى لعل ذكرها وتعداد اضرارها يحملنا على الابتعاد عنها وسلوك سبيل يسوقنا الى الاتحاد والاشتراك في الاعمال . لاننا منذ انقسمنا الى عصب دينية واخذ كل منا يحاول عضد عصبته وتنكيس غيرها قد عمنا التاخر وخسف ظلام الجهل بدرنا

هذا ومن بعض واكبر اسباب التاخر الانشقاق الداخلي . فاننا لا نكف عن رشق ابناء مذهبنا بسهام الحسد والملامة والقذف . على اننا نتكاتف معهم في رشق امة اخرى بها . وذلك لاننا لا نطيق ان نرى احدًا من ابناء ملتنا وغيرها في صدور المجالس ومراتب الاحكام بل احب الينا ان نخسرها نحن واياهم من ان نراهم متمتعين بها دوننا . وهذا هو من اخبث واعظم اسباب التاخير . لان الامة التي شأنها ذلك

تكون منشقة تحارب نفسها وغيرها بدون راحة ولا فتور . ولذلك لا امل لها بالنجاح ما دامت على تلك الحال

اما الدواء الذي يشفي ذلك الداء فهو العلم (وليس المقصود مجرد معرفة العلوم المتعلقة باللغة) الذي يطرد من ذهن الانسان المبادي الفاسدة ويرسخ فيه المبادي الحقيقية . لان كل من نظر الى الامور نظر عادل محقق يرى انه لا يسوغ له ان يحتقر غيره ويحكم عليه بفساد الدين مثلاً حال كونه صاحب دين لانه ذو غرض هذا مع قطع النظر عن الايمان المبني على التسليم . ومن نتائج العلم الاتحاد والمحبة وتضحية المصالح الخصوصية للصوالح العمومية . ونتيجة ذلك الشفاء من تلك الامراض العضالة ورجوع الصحة التي هي اعظم بركات الله . فعلينا بالاتحاد والينا عن الانشقاق وكل يمين حاولت تكدير هذا الدواء فخير لها ان تشل وان يحسب صاحبها جيفة تكدر اريج الاتحاد الذكي وتعكر صافي كؤوس الالفة والاتحاد

التردّد

« لاديب بك اسحق »

اذا كنت ذا رأي فكن فيه مقدماً فان فساد الرأي ان تترددا

ووال الزمان اذا والاك وخذ منه ما اعطاك فهو ملول يألف الصد وبخيل لا يانف الرد وانتهز فرص الحوادث فالعمر وان طال قصر من ان يسع المطال

واعتبر بالذين يقتلون الايام بين الاحجام والاقدام ويؤجلون للغد ما امكن بالامس الى ان يمتنع الامكان بما يحول دونه من مصاعب الزمان كيف تلاشت احوالهم وساء مآلهم فصاروا الى الضعف بعد القوة والهرم بعد الفتوة والخمول بعد النباهة والخسف بعد الوجاهة حتى عاد مجدهم صغارا ومسخ فضلهم عارا

وانظر الى الذين ينيطون الاقوال باطراف الاعمال ويستلبون الاوقات من مخالب الآفات وينتهزون الفرص كيف سنحت ويدخلون ابواب السعي متى فتحت هل زلت بهم الاقدام ام ندموا على الإقدام ام اسفوا كما يأسف المهملون ام خسروا كما خسف المترددون

او ما نراهم في ذروة المجد وربوة النعمة وعقوة الحرية لا يبلغ شأوهم الساعون ولا يمسهم الشقاء ولا ينالهم الظالمون بسوء فهم القادرون اذا رغبوا والمدركون اذا طلبوا والعالمون اذا نطقوا والسابقون اذا لحقوا تبتسم الحياة لشيوخهم كما يبتسم الموت لفتياننا ويروق الوجود لفقرائهم كما يروق الغنى لاغنيائنا حتى كأن الزمان عاهدهم على الراحة وواعدهم باستمرار الهناء كما واثقنا على الجهد واستقرار البلاء

فبتنا نعاني صنوف العناء ولسنا نرى في الانام معينا
ودارت علينا رحى نكبةٍ تظلُّ الحجارة فيها طحينا

فيا قوم: لقد مرت بكم الايام باسباب النعمة والنقمة والراحة والتعب واليأس والرجاء فلم تستوقفوا الرغائب ولم تجتنبوا النوائب ولكن وقفتم بين الجزع والكسل والامل والملل ففرَّ المرغوب وقرَّ المرهوب فلم تخيبوا خيبة الساعي لتعذروا ولم تصيبوا اصابة المتثبت لتنكروا ولم تدركوا الارب اتفاقًا لتذكروا

وتلك حالكم شاهدة بما اقول فقد بليتم بما يذيب الشحم ويقرض اللحم وينقي العظم وانتم صابرون ومنيتم بما وفر النقم وغير النعم واهلك النعم وانتم صامتون ورزئتم بما جلب المصاب وهتك الحجاب وابرز الكعاب وانتم خاشعون فما الذي تخافون . بل اي عناء لم تعانوه واي بلاء لم تقاسوه واي فناء تحذرون بعد هذا الوجود ام اي وجود ترجون من هذا الفناء

لا جرم ان مثلكم في الصبر على هذا النكر كمثل بخيل ينفق العمر في التماس المال ثم يحبسه عن نفسه وعن العيال راضيًا باسواء حال

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقرٍ فالذي فعل الفقرُ

تقولون لا نرضى بهذا الخسف ولا نقوى على احتمال الذل فقد صار تاجرنا عاملاً ونبيهنا خاملاً وعالمنا سائلاً فلم يبقَ فينا غير الاجير والتابع والشحاذ والزارع والجندي مخفض الجانب والشرطي منقطع الراتب

بل زارعنا الذي يدفن مع الحبة قوة يمينه ويسقي الغرس ماء جبينه نزيل في دار ابيه وغريب في ارض ذويه يحصد مما زرع ولكن لسواه ويجني ما غرس ولا يذوق جناه

وجملة الامر ان الشدة قد بلغت في امرنا حد الحدة فصار ومن دونه الخوف بعد الامن والسقم بعد البرء واليأس بعد الرجاء والفقر بعد الغنى حتى لو استزدنا

الدهر بلاء لما وجد الى ذلك من سبيل وحتى عذب الموت بافواهنا والموت خيرٌ من مقام الذليل

تقولون هذا وانتم في مراتع الاشمال ومرابع الآمال تحرصون على القناعة حرص البخيل على درهمه وتضنون بالاقدام ضن الجبان بدمه

وهل ينفع الخطي غير مثقف · وتظهر الا بالصقال الجواهرُ
وكيف ينال المجد والجسم وادعٌ · وكيف يحاز الحمد والعزم فاترُ

بل ما اجدر القائلين من غير فعل بان يفعلوا من غير مقال . أَجل ولسوف تفعلون

وكأَني بكم عصابة من اهل الهمه والاصابة ترفعون الاصوات في طلب الحق المسلوب وتمدون الاكف لالتماس المال المنهوب وتجعلون الابدان للوطن سوراً يرد عنه العدوّ مذعوراً

وانتم الكلمة المتحدة والقوّة المتجمعة هي اقوى من العدد الكثير

الاّ انكم تترددون

يأخذكم فيما ترومون عذل الخائفين فتنسون ماضي الزمان على رجاء آتيه فيومكم ابداً مستهلك في غده والغد فيما يليه فيا حليف الصبر ويا نضوَ العناء نداء مشارك في بلواك وسامع لنجواك دع التردد ان اردت النجاح والنجاة وأَقدم فرب حياة تكون في طلب الموت ورب موت يجيء من طلب الحياة

ولا تبع عاجلاً منها بآجل ما · ترجو فذلك امرٌ شأنه الطولُ
ولا يصدك عن امرٍ هممت به · من العواذل لا قالٌ ولا قيلُ
فخير يومك يوم انت فيه اذا · ميزت والناس محمود ومعذولُ

السياسة والاخلاق

له ايضاً

قال احد حكماء الفرنسيس: اتى على الناس الوف من السنين وهم يتصورون ويقولون فما ترك الاول للآخر وجاء السلف باحسن ما يمكن ان يقال في الاخلاق

(والسياسة) فغايتنا جمع ما نثروه والتقاط ما اسقطوه . ونحن في هذه المطالب مصداق" ذلك القول فهي شذرات لبعض حكماء العصر بالحمة من خطرات الفكر تنسج على هذا المنوال وتنشر تحت هذا العنوان

(ا)

قالوا دع السياسة لاهل الرئاسة فهم فيها احق وبها اعلم وعليها اقدر

لا يعرف الحكم الا من يكابده ولا السياسة الاّ من يعانيها

ونقول هل اتى على الناس حين من الدهر لم يروا واحداً او غير واحد من ذوي الاقلام والافهام يبحثون عن حقائق السياسة من خلف ستور العزلة و ينظرون الى آداب الاخلاق من وراء حجب الخفاء .... ألف الكاتب الفرنسوي (روسو) كتاب الميثاق الاجتماعي في السياسة وشعر من اهل زمانه بمثل ذلك الاعتراض فاجاب : يقولون أ انت امير ام انت حاكم لتكتب في السياسة واقول لا ولكنني من اجل هذا كتبت فاني لو كنت اميرًا او حاكمًا لما اضعت الزمان في كتابة ما ينبغي ان افعل بل كنت افعله او التزم السكوت

ولكنه مقال يشف عن حسن الظن بالنفس فان قبل من مثل روسو فلا يقبل من سائر الناس ولذلك لسنا نتخذه حجة على حقيقة خوضنا في هذا البحث ولكن حجتنا في ذلك انه لا يلزم الباحث في الاحكام والقوانين السياسية ان يكون اميرًا او حاكمًا او وزيرًا كما لا يلزم المؤرخ الناقد ان يتولى كل خطة ويشهد كل واقعة ويحضر كل حادثة يقع نقده عليها بل من حقوق الانسان الطبيعية بل من واجباته ان ينظر فيما يمسه وما يحيط به من الامور الدنيوية والاحوال الاجتماعية ولقد جاز للمرء ان يبحث عن اسرار الوجود ويستكشف نواميس الطبيعة في حالة كونه لا يستطيع تغيير شيء من نظامها ولا يقوى على مخالفة حرف من احكامها فكيف يحظر عليه النظر في النظام الذي هو جزء منه والاحكام التي هي من وضع الانسان

ثم وقاية النظام وانفاذ الاحكام واجراء ما يتعلق بذلك من الامور منوط باهل الحكم لمقدرتهم عليه واستحكام ملكتهم فيه واختصاصهم به من دون سائر الناس الاّ ان تقرير اصول الاحكام وتحديد شروطها وتبيين انواع الحكومة وتعيين الحقوق والواجبات كل ذلك من باب العلم لا الحكومة فان اهل الحل والعقد مشتغلون بالعمل عن التصور ولو راموا الدخول في المباحث الخلافية والمسائل الخيالية لاهملوا الشؤون

واضاعوا المصالح التي يجب عليهم حفظها من الضياع ولكن اهل البصيرة والرشد منهم ينظرون الى ما يقال في ذلك بعين التأمل والاعتبار فيأخذون بالنافع منه وينبذون ما لا نفع فيه كما هي الحال في رجال حكومتنا الحرة واولي امرنا الراشدين في هذه الايام

فاذا تبين ذلك مما ذكرناه ثبت وجود علم باصول تعرف به احوال السياسة والحكومة لا احوال حكومة معلومة مقصودة بالذات ولكن الحكومة على الاطلاق بالنظر الى طبائعها وقوانينها واشكالها الاصولية وما يجب عليها وما يجب لها وما ينشأ عنها من الآثار وهو ما سماه بعضهم بالفلسفة السياسية

(٣)

على ان السياسة وان كانت من حيث هي علماً منفرداً بقواعد معلومة متعلقة بنظام امور وسمط شؤون لا ينبغي ان تختلط بغيرها في حال ما الا انه من النافع اللازم الا تفصل عن العلم الذي تمسه من كل ناحية وتتصل به من كل سبيل وتبنى عليه في كثير من الاحوال الا وهو علم الاخلاق المسمى في بعض مظاهره ادباً وفي بعضها تربية وحكمة

ولم يكن الاقدمون في ريب من وجوب هذا الاتصال بل بالغوا في تمكينه وتقريبه حتى جعلوا السياسة والاخلاق علماً واحداً لم يفصلوا بينهما ولم يميزوا احدهما من الاخر بشيء تدل على ذلك تصانيفهم في الحكمة والسياسة بما بنيت عليه من وحدة الموضوع وان كتاب السياسة منهم هم الحكماء الافاضل المربون الباحثون عن آداب الاخلاق كافلاطون وارسطو وشيشرون

غير ان اتساع نطاق المعارف والعلوم في الاعصر الاخيرة بانفساح مجال التصور وتوفر مادة الاختبار واجتماع اشتات الاثار قد اوجب اختصاص كل من هذين العلمين بفريق من الباحثين يقتصر على النظر فيه غير مبالٍ بالذي يليه كما حصل في كثير من الفنون التي كانت فيما سبق فروعاً من اصل واحد معلوم ثم صارت الآن بمنزلة الاصول يختص كل منها بطائفة من العلماء كالطب الذي كان يشمل الجراحة وعلم الطبائع والامراض الباطنية وعلل العيون والاسنان وسائر ما يتعلق بعلم الابدان وهو الان علوم مستقلة على نوع ما بقدر هذه الفروع ولكل علم منها رجال يقومون عليه فيقال لزيد فسيولوجي ولعمرو طبيب اسنان ولبكر طبيب عيون ولخالد طبيب

نساء وهلمَّ جرًّا

ولكن اختصاص اهل الحكمة والتربية بعلم الاخلاق تفرغًا له واستيفاء لما اقتضاه الاتساع واختصاص اهل الادارة والتدبير بعلم السياسة تجرُّدًا له واستيعابا لفروعه الكثيرة غير مانع من تلازم العملين واتصال احدهما بطرف الاخر وجوبًا كما يتصل طب النساء بالفسيولوجية وطب العيون بالامراض الباطنية والكل باصول الطب العمومي . وذلك لان السياسة تتناول حتى التربية والتهذيب والتأديب لغة واصطلاحًا وفي واقع الامر وعلى اتصالها بعلم الاخلاق حجة نظرية وحجة واقعية

الاولى ان علم الاخلاق والحكمة الادبية هو الذي به الفلسفة السياسية وتعلم غايتها الحقيقية لما انه مبنى على العدل الذي هو قسطاس الاعمال والفضيلة التي هي حد الكمال كما سيجيء

والثانية انه لا قيام للامة ولا قوام للدولة الا بادب زاجر للانفس عن السوء واخلاق كافلة بحفظ النظام وتربية عمومية يتيسر معها نفوذ الاحكام والادب وحسن الطباع والتربية من فروع علم الاخلاق وهي من لوازم السياسة فهو وعلم السياسة متلازمان

(٣)

تفصيل الحجة النظرية والحجة الواقعية على اتصال علم السياسة بعلم الاخلاق

الاولى اذا صرف النظر عن التربية واحوال الطباع والحكمة التي هي البحث عن الحقيقة والعدل تاه الفكر في اصول الحكومة وعجز عن معرفة الواجب والجائز والمحظور والمكروه لامتناع العلم بذلك من التاريخ او الآثار ولانه لو حصل هذا العلم الممتنع لما دل على احسن تلك الاصول لامكان وقوع الخطأ والظلم وخلاف الحق في الاصل الاول كما امكن وقوعه في الكثير مما تفرع عنه . فلا بد والحالة هذه ان يكون الحكم في ماهية الحكومة الحقة مبنيًا على المقابلة بينها وبين موجب العدل ومقتضى الفضيلة وهو علم الاخلاق فان الحكومة ليست بآلة مركبة من اجزاء معلومة تدار على اعمال معينة غير قابلة التغيير وانما هي جسم مؤلف من رجال ذوي طباع واخلاق فهي بمنزلة موجود واحد له غاية ادبية وحقوق مدنية وعليه واجبات فغايته حسن الحال وحقوقه اجراء الحق وواجباته اقامة العدل وكل ذلك لا يحصل الا بالفضيلة في جانبه وفي جانب الامة معًا (والفضيلة غاية علم الاخلاق)

والثانية ان الحرية التي هي غاية الحياة السياسية والكمال المدني لا تكمل ولا تحصل الا بالفضيلة فان المملكة الحرة ان هي الا بلاد تجوز فيها امور كثيرة محظورة على الناس في بلد غير حر من مثل الاجتماع والخطابة والكتابة والغدو والرواح والادلاج واطلاق الارادة في اهواء الانفس المتعلقة بها بالذات وهلمَّ جرًّا فان وجدت هذه الحرية مع فساد الطباع وسفالة النفوس واستحكام الجهل وانتشار الرذيلة وضياع الفضيلة كانت مدرجة للخلل والفساد وذهاب الحقوق وقيام بعض الناس على بعض يتنافسون ويتقاتلون فيغلب القوي الضعيف ولا يبقى من فارق بين الانسان وسائر الحيوان اذ تغلب الشهوة على الشهامة ويستولي الشره على العفة ويستعلي حب الذات على الحق فتنقلب الحرية استبداداً بيد الاقوياء وتنوب التحزبات على الراي العمومي فينسى الذين تولاهم الفساد واجباتهم الذاتية والوطنية والانسانية ويبيعون انفسهم ووطنهم وحقوق الانسان بشهوة القلب ينالونها وحاجة في النفس يقضونها والجملة ان السياسة لا تصح الا اذا بنيت على الحرية والحرية لا تحصل الا بالفضيلة (والفضيلة غاية علم الاخلاق)

(٩)

تبين بالحجة النظرية والشاهد العملي ان علم السياسة متصل بعلم الاخلاق غير انه لا يلزم من ذلك الاتصال كون الفضيلة هي الغاية المقصودة بالذات من الحكومات فالحكم لم يكن الا لحفظ الحق اما الفضيلة فهي واجبة على الافراد . وغاية الدولة العدل ولا عدل الا مع حرية الامة ولكن استعمال الحرية لا يخلو عن الضرر الا اذا اهتدى الوطني فيه سبيلاً مستقيماً فعرف شأن اخيه واعترف حق دولته ومواطنيه ولم ينسَ واجبات الوطن فالسياسة من هذا الوجه محتاجة الى علم الاخلاق وان لم تكن مبنية على الفضيلة

أرأيت لو ذهبت الامانة وعدمت الشجاعة وزالت الاستقامة وضاع حب الوطن فكيف تكون احوال الدولة والامة .. اتوجد في اهل القضاء ما يغني عن النزاهة .. اتحدث للحامية ما يعوض من الاقدام اتبدي لاهل الادارة ما ينوب عن العفاف او تبدع للكافة ما يكون بديلاً من المحبة الوطنية . فان قلت نقيم على اهل القضاء رقباء ونجعل لذوي الادارة رؤساء قلنا اذا لم يكن رقباؤك ورؤساؤك من الفضلاء فما هم بمصلحين فالحاجة الى الفضيلة واقعة على كل حال . وان حسبت نظام الجند كافياً

في تعويد الشجاعة وقانون الاحكام مغنياً عن الادب الوطني فاعلم ان النظام والقوانين عوامل غير محركة وحواجز غير حصينة لا تجلب حسنة معدودة ولا تدفع سيئة في النفوس وانما نظام الشجاعة في القلوب وقانون الوطنية في الاحشاء فليصلح القلوب من رام من الجند الحماية وليطهر النفوس من رام من الامة حفظ القانون فانه

لا تنتهي الانفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجرُ

وغاية النظام في الجيش انه يحفظ البسالة الموجودة ولا يقوم مقام المفقودة . واثر القانون في الامة انه يكف عن بعض الاثم الظاهر ولا يمنع من اركاب الباطن الخفي فما الجند ولا الامة بأقل حاجة الى الفضيلة من ذوي الادارة والقضاء فانه اذا ضاعت الشجاعة فمصير المملكة الاستعباد واذا فقد حب المصلحة العمومية فمآلها الضعف واذا عدم الاتحاد والاخاء فغايتها التفرق واذ اهمل السعي فخاتمتها الفقر واذا نبذ الاقتصاد فمآلها الخراب واذا ماتت العزة والشهامة فعاقبتها الظلم وجميع تلك الفضائل داخلة في علم الاخلاق

ومن اجل ذلك رأى الحكماء الفضلاء الذين نستمد من فيضهم هذه الاراء ان يجعلوا البحث في السياسة تابعاً للبحث في الاخلاق فاقتفينا اثرهم في ذلك ليعلم الوطني منا ما يجب عليه لنفسه ولآل بيته وللحكومة والوطن فاذا حصل من هذا العلم في ذهنه صورة غير خادعة فانه ينظر حينئذٍ الى السياسة نظر الراشد البصير والله ولي التدبير

خطرات ألباب

« له ايضاً »

دع الحريري بين حارثه وهمامه والمتنبي لدى سيف دولته وحسامه وابو نواس عند ظبيه وجامه وقف بنا نندب وقتاً اضاعوه وذكاء في غير محله صرفوه

فالوقت هو التبر الثمين ولكنا نتلقاه غير مكترثين فنبدد الاعوام واحداً بعد واحد لا نستفيد منها نفعاً ولا نحسن فيها صنعاً

فقل لمن يصرف الايام بين الاوهام والاحلام ان كنت تجهد مقدار ما تضيع فقف بالقبور ملتمساً من سكانها برهة من الوقت تعلم انه العزيز الذي لا يملك ثمن

اضاعه واشترى به ثمناً قليلاً فاولئك هم الخاسرون

الا ان الطبيعية لحكيم يهذب الافكار بدروس الاعتبار وانا لنموت في كل حين ثم نحيا ثم نعود امواتاً فلنا في كل يوم عمر جديد ولكن اكثرنا لا يشعرون

تمر بنا الاوقات سراعاً وتكر الايام تباعاً فنذهل عن تعاقبها كالمحدق بالكرة الدائرة يحسبها ساكنة او كالمغتسل في النهر يمر به الماء جارياً فلا يميز بين منصرفه وآتيه

والحق انا لفي ضلال مبين لم يكفنا القعود عن شراء الوقت المفقود حتى نشري بكل نفيس ما يضيع به الموجود

نبدد كنوز الايام غير شاكرين فاذا بدا الشاغل قلنا ما ابطأ الزمان متحركاً وما اثقله نزيلاً والتمسنا الى الفرار منه سبيلاً ولا نفر الا من انفسنا فالزمان عين الوجود

نمل البقاء ونرجو الفناء فاذا جاء نذيره وددنا لو نكون من الخالدين ويتمثل لنا الوقت شيخاً ثقيل الوطأة فاذا تولى رايناه طائراً عظيم الجناحين فنسعى في طلبه فلا ندرك له اثراً فنعود عنه آسفين

فما سر هذا التناقض وما بالنا نرى اليوم الحاضر بغيضاً فاذا انقضى بكيناه وقلنا ان الزمان بمثله لضنين ولا يضن الزمان بالايام وانما نحن بها مسرفون وما كان ندمنا الا عقاباً على الاسراف كذلك يجزى المفرطون

تفيض علينا اوقات فننفق منها بغير حساب ثم نحسها على المسير فاذا انصرفت ناديناها غير مسمعين فنحن نسعى الى الموت ثم نفر منه كعاشقة حمقاء تغاضب من تهواه سعياً الى الهجر فاذا رامه انثنت مستغفرة انها من التائبين

ونمل الاعمال ولا راحة الا بالاعمال فالهناء ثمرة لا تنبت الا في حقول الاشغال والحياة ان لم تكن مقرونة بالهناء فهي عين العناء

فقل لمن يلتمس الملاهي لصرف ما يحسبه بطيئاً من وقته السريع اي هذا المسترجل طفلاً المستطفل كهلاً القاعد عن النعمة سهواً نراك تحسب اللهو حياة فهل تحسب الموت لهواً

تنام ملء عينيك على وساد الفساد تحت ظلال الوبال ولا تسمع حركة الرجود كانك ممن ابحروا فاكتنفتهم الانواء تجر سحاباً يمطر عذاباً فخل دويها باذانهم فهم لا يسمعون

فنبه طرف الفكرة من رقدة الغفلة واحرص على يومك حرص البخيل على الدرهم فربما مرّت النعمة تحت جناح ساعة منه وانت لا تعلم

واعد بما تعد من الفضل ما صار من وقتك منسياً فالمأثرة تعيد مائت الزمن حيّاً واعلم ان من اضاع شيئاً من الوقت فقد سرق التبر بل سلب العمر وكان من القتلة الظالمين

الحرب

« لسليم افندي البستاني »

لقد ندبت سوء حظ الانسان منذ كشف سنّ البلوغ عن عينيّ ستار الغفلة والصغر . واملت نظري عن شره منذ عرفت الخير من الشر . وكم من مرّة حملني جهل نفسي وجهل الانسان عن ابراز سنّ الاستهزاء والضحك على ما نبديه من الافعال التي تخل بالمبادي الصحيحة والاعمال الصالحة . وكم من مرة قلت في نفسي ان ابن آدم هو اجهل مخلوقات الله سبحانه وتعالى . وكم من مرّة نظرت الى كوكب الليل وهو في كبد السماء يرسل اشعته المنيرة على نجاد و بطاح هذا العالم . فقلت هل نستحق ان نستنير بهذا البدر الجميل . وهل تستحق الدنيا الغرور التي طالما خدشت وجناتها ايادي العدوان والشرور ان تكون مستترة تحت كنف كرة لا تلوح على سطحها غير لوائح السلامة والهدو . وهل يستحق الانسان الذي مال طبعاً عن سبيل الاستقامة والصلاح ان يكون قاطناً ربوع هذه الدنيا الجميلة وان يتمتع بملذاتها ومحاسنها المكتسبة والطبيعية . ان في التأمل في ذلك حزناً وكدراً وعناء تخامر قلب اولاد حواء التي لم تقطع غير مسافة قصيرة من حياة هذا العالم حتى رأت دم ابنها قانياً على سطح الدنيا التي كثيراً ما برهنت لها ان بناتها سوف يجرين من الدموع انهراً تحاكي انهار فردوسها الذي خرجت منه بخروجها من حالة الميل الى الصلاح وسلوكها سبيل حالة في وسطها اشواك الطلاح . كيف لا نرفع اصوات الويل والحرب ونحن الذين ندعي اننا في رتبة ثانية بعد الانبياء والملائكة قد امسينا على ما نحن عليه . كيف لا نندب سوء حظنا وآثار القرون السالفة تقيم لنا شاهداً يشهد باجلى بيان بان حالتنا بئس الحالات . كيف لا نتحسر حزناً ونبكي دماً وفي ايدينا ما يهدم

بناء الله ويخمد انفاس اخوتنا بني البشر · من ذا الذي يقدر ان ينظر ما حوله من هذا العالم العجيب التركيب والحسن المنظر ويقول ان هذا ربع الذين يحيدون عن السبل المستقيمة ويسلكون سبيل البغض والحسد والنميمة والطمع والكبرياء والكذب حال كونهم قادرين ان يقطعوا سراطاً مستقيماً يذهب بهم الى جنان السعادة والحبور وراحة البال · من ذا الذي لا يسرُّ بالزوال متى كدرت راحة اذنيه دمدمة رعود اسلحة الويل والهوان · وابهرت عينيه بروق لوامع الاسياف العجمية والعوالي المشرعات التي لا تأتي العالم الا تبا يرجع به الى الوراء ويكدر كؤوس راحته وتجارته وصناعته وزراعته وعلمه · من لا يميل عينيه عن ميدان القرطاس الذي ياتي بخبر هلاك الوف ومئات الالوف · من ذا الذي لا ينفطر قلبه حزناً وحنوّاً وشفقةً متى تصور ساحة الحروب وارى عينيه الوفاً من جثث الشبان الذين منذ برهة كانوا يفتخرون بقواهم ومحاسنهم وشرفهم ومالهم وشجاعتهم ونسبهم وكانوا مقيمين في احضان الراحة العائلية يقبلون المحبة الابوية والحنو الامي والتعلق الاخوي وعلاقات الوداد والمحبة رابطة قلب كل منهم بنت من بنات حواء اللواتي كانت امالهنَّ تبسم لهنَّ عن ثغر عيشة رضية في جنات محبة من يحببنَّ من اولاد ادم · وامسوا بواسطة شر الفطرة البشرية والمطامع الفارغة تراباً يكاد لا يجد من يكرمه بوضع قليل من التراب فوق بقاياه · كيف يطيق الذين في ايديهم زمام الامور ان يفعلوا ما يأتي رعاياهم بهذا الخطب · كيف يطيقون ان يروا دموع الوالدة والارملة والاخت واليتيمة والمحبوبة تجري كالسيل الهاطل وفي قلوبهنَّ من نيران الحسرة والويل ما لا يطفئها غير رطوبة القبر الموحشة · كيف لا يبكي القريب والبعيد وانين الجرحى وتنهدات المصابين بسهام الحرب وصراخات المتوجعين تمزق احشاء السماء وارجل سوابق الفرسان تقع في اجساد الذين كتب لهم الدهر عذاباً من اطول عذاب الذين تزور رسل الموت مقاتلهم وتخمد ما كان باقياً لهم من رمق · من يطيق ان ينظر هنا شاباً متمرغاً بدمائه يسلم الروح · وهنا جريحاً يصرخ طالباً النجدة والاسعاف · وهناك جثة بلا راس وهناك راساً بلا جثة ويداً بلا جسم وجسماً بلا يد ورجلاً بلا ساق وساقاً بلا رجل · وصدراً مطعوناً ودماً مهرقاً وراساً مشقوقاً واحشا خارجة وجثة لم تبقِ لها يد الشر صورة ولا هيئة · ودخان جنود الموت قد حجب نور الشمس والقتام قد زاده كثافة · ودمدمة رعود الاسلحة وصواعق المدافع الرشّة ونيران البنادق

المهلكة وبروق البارود اللامعة وبرَد الرصاص الساقط وانين كرَات المدافع ورصاص البنادق واصوات وقع حوافر الخيل وصهيلها وحركة دواليب المدافع ومركبات المهمات وآلات طرب الحرب واوامر القواد وصليل الاسلحة تؤكد للناظران داخل تلك الغيمة الكثيفة لا تلعب الرجال بجنود الشطرنج ولا بحجارة الدامة بل اللاعب انما هو الموت الاحمر والهلاك المخيف · ما اشر الانسان وما اصاب قلبه ورب سائلٍ يقول ولماذا نفعل هذا الشرّ · هل ذلك لنقتله او لندفع عنا الذين هاجمونا ليسبوا نساءنا وييتموا اولادنا ويسلبوا اموالنا ويتركوا اوطاننا خربة خالية · فمن يقدر ان يقول ان هذا سبب الحروب · ومن طالع التاريخ منذ وجد الانسان الى الدقيقة التي يقرأ فيها هذا الكلام يرى ان اصل كل حرب انما هو احد امرين وهما الطمع والحسد · وهما او احدهما ما حمل سميراميس ملكة اثور على قيام الحرب على الهند · والاسكندر على فتح الدنيا · وتيمورلنك على تخريب الشرق واورليان على تخريب تدمر وغيرهم كثيرين من الذين انزلوا في العالم جنود الويلات والهوان · وما وصفنا من ساحة الحرب هو جنة بالنسبة الى ما يرى في المدن التي يفتح المدفع فمه المهلك ليفتح ابوابها لدخول المهاجم · فان هناك يصيب النساء والاولاد والشيوخ والاطفال ما يصيب الرجال في ساحة المعارك فترى ما ينفطر منه القلب شفقةً وحزنًا ويحمل صاحب المروءة والحنو على لعن طمع الانسان وشره واين ذلك من الضيق الذي يحمل الوالدة الجائعة على ذبح ولدها واكله ولو كان وحيداً انه يصعب علينا ان نتصور حق التصور مصائب ورزايا الحروب من دون ان نجهد قوة التصور ونضع انفسنا في ظرف الذين يطرحهم الدهر في حفر هذه المصائب الشديدة · وفضلاً عن ذلك يقوم من اجتماع الجيوش امراض يكل القلم عن وصفها وتفتك باولاد الناس فتكًا لا يستطيع امهر الكتاب التعبير عنه · فانهم يهجرون ربوع الراحة والرفاهية ويعرضون انفسهم للبرد والحر والتعب والجوع واين ذلك جميعه من المعارك البحرية فانه يرى فيها المراكب كانها جبال نارية في حالة الهيجان تقذف حديداً ورصاصًا فيه موت مخيف · وكم من مرة تنزل تلك الجبال الى قاع البحار بمن فيها وليس من مجير · من يطيق ان يسمع الثكلى تصرخ قائلة واولداه والابن الذي يرى نفسه في فم اسد الموت يصرخ قائلاً يا اماه · قتل الانسان ما اكفره · ولا ريب ان كل من تأمل في هذا الامر كما نتأمل فيه الان يشعر بما شعرنا به نحن والذين يطالعون سواد المداد على هذا

القرطاس . على انه اذا اوصلنا الزمان الى ساحة الحرب نفعل كما يفعل غيرنا . لان الشنشنة الشريرة تغلب في ظروف كتلك على القوة العاقلة وحاسيات الحنو وتصير الانسان كالوحش الضاري . ولكن لو كان الذين في ايديهم عقد السلام وفتح الحروب يسمحون لحاسيات الحنو والقوة العاقلة ان تتشفع لديهم في قبول السلام ورفض الشر لغلبت الانسانية على الحيوانية وانقطعت اسباب الشرور . ومن نتائج الحرب توقيف دواليب الاشغال وطرح كثيرين من الذين كانوا في عز وسعادة في لجة بحر العناء والفقر . والظاهر ان الحرب لا تسع معها شيئاً فانها تضعف قوة اسباب ارتقاء المعارف وتخرب التجارة وتؤخر الصناعة وتضر جداً بالزراعة وبكل اعمال البشر . ولما كان العالم متصلاً بعضه ببعض بعلاقات قرب المواصلات وبسلاسل الصوالح التجارية كان شبوب نيران حرب في قسم منه يؤثر فيه اجمع . والشواهد كثيرة منها مثلاً التأثير الذي اثره في الدنيا حروب اميركا الاهلية فانها غيرت حالة التجارة عند ابتدائها وعند نهايتها وفي مدة شبوبها كانت في ارتباك دائم . وكذلك الحرب الحالية قد اوقفت مسير قدمها وربما تطرحها في ما يضربها ضرراً شديداً . والخلاصة انه يصعب علينا ان نفهم كيف يقيم الناس الحروب وهم يعرفون نتائجها واضرارها فنسأل الله سبحانه وتعالى ان يغير السياسة التي تاتي بالحروب ويقيم سياسة مبنية على اساسات الصلح والسلام . فتقر عيوننا ويرتاح بالنا ويطيب عيشنا ونعيش عيشة رضية لا تخامرها مخاوف واحزان ومخاطر عيشتنا الحاضرة فهو حسبنا ونعم المسئول

الحرب

«لاديب بك اسحق»

(كتبها عام ١٨٧٧)

عرف الانسان مضار الحرب ولم يتجنبها فهل تلك طبيعة وجدت في كيانه الحيواني ام عادة تمكنت فيه بالاستمرار فصارت ملكة يتعذر التخلص منها وهي مسألة تؤدي الى النظر في هل طبع على الخير او الشر او كان من عجائبه ان اجتمع فيه النقيضان يجني على نفسه الحرب وهي بلية حتى اذا بلغت منه مبلغها بادر الى تخفيف مضارها فمنه الداء والدواء والسم والدرياق وهو بالجملة ابو العجب اما تراه قد فتح في القرن

التاسع عشر سوق حرب راجت فيها النفوس ولم يكن سببها السباق ولا البسوس وانما هي ثمرة الهوى ونتيجة الغرور فلما انشبت فيه اظفارها واضرمت في حماه نارها طلب الماء لاطفاء اللهيب فهو الهادم والباني والزارع والجاني

يحمل على ابن نوعه مقاتلاً ثم يدعو الى اعانته فهو يجلب الداء ويطلب الدواء ويجرح باليمين ويضمد باليسار او ما تراه في جنوبي البلقان وفي اسيا الصغرى مضرماً نيران البلاء وفي سائر الارض طالباً اخمادها

فلو رأيته وهو في ساحة اقتتال يطلب قرناً يصاوله وخصماً يطاوله وفارساً ينازله وبطلاً يقاتله لانكرته في ديار السلم يطلب ذا مروءة يساعد من جرحه وينهض من طرحه فهو في الجهة ينادي الانسانية الانسانية وما ادراك ما هيه صفة تقوم بمن ضعف فيه الميل الحيواني فقوي الميل الانساني وهو الترفع عن الحاجات الحيوانية الى المطالب العقلية وتجريد النفس عن دنيء شهواتها لرفعها الى سامي غايتها وفي جهة ينادي الحرب الحرب وما ادراك ما الحرب هي باعث الهول والكرب اولها شكوى واوسطها نجوى واخرها بلوى او هي كما قيل فيها

الحرب اول ما تكون فتية   تسعى بزينتها لكل جهول
حتى اذا حميت وشب شرارها   عادت عجوزاً غير ذات حليل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت   مكروهة للشم والتقبيل

جرحى الحرب

في معترك اومضت فيه بروق المرهفات ولعلعت رعود المدافع فتلتها غيوث الكرات وسكرت السيوف بخمر من الدم فعربدت في الرؤوس وعقد العثير لملك الموت سرادق مطنبة بالقنا والخيل سابغة تقبل ثقالاً وتعود خفافاً وكانها وقد اعياها الفارس حبا قد غضبت على الانسان فداست هامه انتقاماً وقد استحيت الشمس من خشونة الانسان فاحتجبت بحجاب الضباب وتململت الارض من اعماله فزلزلت زلزالها وكادت تخرج اثقالها فارتعد الرعيد وثبت الصنديد ونادى منادي الحرب من فر من الموت في الموت وقع ومن كان ينوي اهله فلا رجع . طريح على الارض جريح ذو كبد حرى يستجير باحدى يديه وفوق الكبد الاخرى يذكر خليلة او حليلة المه فراقها مع امل الرجوع فما الظن به وقد اختفى نور ذلك الامل ووالدة تالمت به

جنيناً وارضعته طفلاً وربته يافعاً وسهرت عليه حالماً ووالداً واساه في كآبته وسلاه في حزنه وتوجع له في مصابه ثم تنجلي له الدنيا بزخرفها وزينتها فيرى مرير عذابها حلواً وكدر مشاربها صفواً فهذا هو الانسان الجريح بسلاح الانسان المطلوبة مساعدته من الانسان

اعانة الجرحى

من يسير ما تنفقه على الملاذ في المطاعم والمشارب ومن قليل ما تصرفه في اقتناء الملابس الفاخرة جد على ابن جنسك الساقط في ساحة البلاء حيث ينكر الاخ اخاه والابن اباه ايها المعطر ارداناه المفاخر اخوانه المعجب بلباسه الجائر على ناسه الراكب العربة يقودها زوج من الخيل العتاق الساكن القصر المشيد اللابس الحرير الآكل الفالوذج الشارب انواع الراح ومن قليل ما تنفقين على باطل الزينة وزائل التحسين ونزر ما تبذلين في اقتناء الحلى والحلل ايتها المفاخرة بزينتها المنافسة في حلتها جودي لجريح يحارب عنك ويحمي حماك وابسطي يدك البيضاء بالعطية البيضاء واحسني وانت حسناء فخير الحسن ما كان مع الاحسان وخير الاحسان ما كان في اعانة الانسان

من جرى في عنان امله عثرت رجله باجله

« لسليم بك نقلا »

(في ٢٨ مارس سنة ١٨٩٢)

جاء في امثالهم . اذا سلمت من الاسد فلا تطمع في صيده . وقال الشاعر

الم ترَ ان المرء تدوى يمينه فيقطعها عمداً ليسلم سائره

من ناموس الطبيعة ان الشيء يتولد فينمو فيتم اطوار وجوده حتى ينقضي وهو سر مودع في الطبيعة يجري في هيولاها مجرى الدم في المفاصل فليس هنالك سكون ولا خمول بل حركة استتباعية دائمة على تفاوت في الآجال بين الطول والقصر من فرع واصل ووضع وحمل

واذا اجلنا لحاظ التنقيب والتنقير في هذه الحقائق تراجعنا الى الوثوق بسلامة

مجراها واطراد مبداها فالفناها لمناسبتها الطبع ونحن على اكيد الاعتقاد ووطيد التصديق بان ما انعكس منها وعنها ان هو في كاس الحياة الا ملح اجاج يمجه الفم

كل من خالف الطبيعة لم يحـ ـلُ لذوقٍ وانما مجه الفمْ

بل ليس للنفس فيه الا انفة وانكار ولو تبينت منه النفع ورحم الله القائل

وكل ما عن منهج الطبع التوى تنكره النفس ولو نفعاً جنى

اذن على رسلك يا عاذلاً غير عاذر وقد اجمع كل عاقل عادل على ان مسألتنا المصرية قد اخرجتها احكام السياسة الغائية والاغراض النفسية والاطماع الاشعبية من حظيرة تلك القاعدة ودائرة ذاك الناموس فقد اولدتها الايام لتكون ابنة عام تتم فيه اطوار حياتها على مبدأ الطبع فاذا بها قد تلبست اطوار غيرها مضيفة الى عمرها اعماراً بل اننا بالعجيب الغريب من دوران حركتها ذلك اننا لم نرها متجاوزة اطوارها الاولى الى الثانية حتى رأيناها رجعت الى حيث بدأت فكأني بها لزمت طور الحضانة فالعام الواحد والعشرة اعوام لديها سواء

اذن من تراه يلوم السلطنة السنية على ما اتته وتأتيه في هذه المسألة على علم منه بخطارة مصر لديها ديناً وسياسةً فالبلاد اسلامية تعترف في السر والنجوى بخلافة رب الخلافة جلالة السلطان الغازي عبد الحميد خان فهو عندها امير المؤمنين وخليفة رب العالمين وهي لديه قلب مملكته وطريق بيت الله الحرام والاثر الشريف من الافتتاح الجليل الذي اتاه ساكن الجنان السلطان سليم في حين لم تكن من يوم افتتحها عمرو بن العاص الا حكومة اسلامية بين موطن الخلافة او تابعة الخلافة . ثم هي لدى جلالته القسم الخطير المتجسم المملكة سياسياً يقوم باسمه بتدبيره وترتيب احكامه وكيله الشرعي سمو الخديوي على ارتباط قويم وائتلاف امين يؤيد بهما الحفظ والصيانة فما مصر اذاً الا الاثر المأثور للسلطنة بل الجنة النضرة فيها وما سياجها الا السلطنة السنية وما جلالة السلطان الا المالك الآمر وللمالك ان يتصرف في ملكه كما يشاء

واننا نقصد ان نأتي في عجالتنا هذه بالشروح الضافية عن ذلك فقد اودعنا في اللمحات السابقة ما يكفينا مؤونة الاضافة فضلاً عما في الموضوع من الجلاء المغني عن البيان ولكنا نقصد الالماع الى ما شاب الماجريات الحديثة من وافدات الملل على اثر الانقلاب الاخير حتى حدا ذلك الى تضارب الظنون وتباين الاراء

قالوا اننا لا نريد بمصر سوءا وقد انحصرت غايتنا في توطيد امنها داخلاً وخارجاً وايصالها الى محجة الاصلاح المرغوب بين سعة في المالية وراحة في الشؤون الادارية ومتى نلنا ذلك تركنا البلاد وشانها والرب شأنها · قلنا قد وثقنا بالغاية وصبرنا ثم راينا اقراركم ان الغاية قد حصلت فاكرموا بانجاز الوعد ولكم علينا جميل يعرف ويحفظ · قالوا ان الغاية لم تدرك كلها فالارتحال لم يئن وامره لنا

تلك هي نقطة مسالتنا المركزية ولكنها ليست بالطارئة او الحديثة بل هي القديمة من عامين وثلاثة وخمسة وسبعة وفي ذلك عود طور الحضانة يتصل بها شرط ليس من اجل لجوابه وتشوبه علل تؤذن الحكمة للسلطنة السنية بالسكوت عنها لان النتيجة مترتبة على مقدماتها وكيف نتحدى جانب الوثوق وهي ترى المانعة في منع حق لها كالمسائل الجارية في شان العقبة وملحقاتها وقد حالت انكلترا بينها وبين مصر فيها فاذا اعترض عليها قالت ان مصر لا تريد ذلك واذا اعترض على مصر برئت من هذه التبعة لقاء نفوذ المحتلين فالمسئلة على حد قوله

اذا ضاع شيء بين بنت وامها فاحداهما يا صاح لا شك آخذه

واي عدل يتيح لامرء ان يهب او يعطي ما ليس له كما جرى في مصوع والسودان ثم يمنع عن ذي الحق نيل حقه كالجاري في امر العقبة بعد العلم بان السلطنة السنية لم تعبث قط في الامتيازات الممنوحة للقطر فاذا قيل ان انكلترا انما تروم ذلك خدمة لمصر قلنا ان خدمة مصر تقوم بالمحافظة على الرضى السلطاني الشريف وهو لا يريد لها الا الخير ولا يتمنى الا سلامها وحفظ امتيازاتها وصونها من الاطماع الخارجية وتأييد تابعيتها لمقام الخلافة السامي · فاذا قيل ان ذلك انما ترومه انكلترا رعاية لمصلحتها · قلنا اذاً قد انتفت الغاية التي اعربت عنها وكان للباب العالي حق الرفض للمقدمات مع انتباذ ما يسوق الى الاخلال والعبث · ومهما يكن من الامرين فليس ثم وجه للارتياب في مقاصد السلطنة السنية كما ان ليس ثم من وجه لفقده لدى مقاصد انكلترا واذا تبين ذلك حال الحق دون اللوم الموجه من ذوي المآرب والاغراض الى اجراءات الباب العالي في هذا الشأن وغيره لم يبقَ لانكلترا سبيل تعترض عليه به من كونه لا يستمسك بعروة الثقة بها والاعتماد على سلامة نياتها

ولسنا وقد بدا لنا من هذه الشؤون الخطيرة ما كشف القناع عن محيا الحقائق نتوقع لسلامة العاقبة الا حزم سمو خديوينا فهو بما اودع الله فيه من الروح الشريف

يجلوه الذكاء والنباهة يقوى على حل المشاكل ويزيل العقبات المعترضة دون الوصول الى المحجة فالقطر قد وكل امره الى تدبيره على مبدا وثوقه بما شب فيه من التعلق بجوهر التابعية والارتياح الى رضى جلالة الخليفة مولانا السلطان الغازي عبد الحميد خان الاعظم فضلاً عن طهارة ذيله من غوائل الايام الماضية وثبات جاشه في ما يبرمه من الامور لتوقيعها على حكم الحق والعدل ومن اتبع هذين كان ظافر دون مراء ولم يكن من حجة للمناضل في شأنه تمثلاً بما جرى مع عبد الله بن الزبير وذلك ان عمر رضي الله عنه مر بعصبة فيها عبد الله بن الزبير ففر افرادها من الطريق الا ابن الزبير فقال له عمر . كيف لم تفر مع اصحابك . فقال لم اجترم فاخافك ولم يكن في الطريق من ضيق فاوسع لك . وذلك سيكون لسان حال سمو الامير لمن يحول دون ما يقصد في هذا المنهاج الواضح ايده الله معززًا بالتابعية الشريفة ليظل مظهر التعطفات الشاهانية وحصنا حصيناً من معاقل السلطنة السنية بحوله وطوله

سعادة الحياة

« اسعيد افندي الخوري الشرتوني »

خطبة القاها سنة ١٨٩٣

احمد الله اليكم يا ايها الذين علموا ان لا اطمئنان لمن زاغ عن الشريعة . ولا سعادة لمن عاج عن سواء السبيل ولا هناء لمن عصى الله بل يا ايها الذين ان سئل عن ذوي الآثار الحسنة كنتم على أسلات الالسنة . وان قيل ان احباء من لا يرجى خيره . واخلاء من لا يخشى شرّه أُشير اليكم فيا حبذا مكان حفل بكم ومدينة انتم من رجال الخير فيها ولا اكتمكم ان لنفسي اكبر لذة بمشهد تشهده نواصي الناس ادباً وحب الخير ونزاهة نفس وطهارة خلق كهذا المشهد الذي نرى فيه اشجار الفضائل الطيبة وينابيع الرأفة العذبة بل جنة يسقيها فرات التعاليم الانجيلية فتؤتي أكلها اخوان المسيح ذوي البؤسى الذين يتبرّون خالقهم فلا برحت ظلال فضلها وارفةً ومياه حسناتها دافقةً

اما بعد فقد سئلت الكلام في هذا المشهد الحافل باهل الذكاء والفضل المزين

بامير الخطباء ولباب الالباء مصباح الحكمة ونسمة الحياة لكل مشروع حميد مطران هذه المدينة الزاهرة فسوّفت الامر لتزاحم الاشغال وتنازع الاعمال حتى اذا كانت ليلة امس وقد دنا موعد الالتئام راجعت كتاب الايام وتصفحت احوال الزمان وهو المصباح الذي استصبح به في خطبي ومقالاتي فجئت بالكلام في الامر الذي عليه الاتفاق وفي الاتجاه اليه الاختلاف · وهو « سعادة الحياة » هي رغيبة كل حي واقصى امانيه ولها يقاسي الاهوال · و يعاني الاشغال · و يقتحم الاخطار · و يبرّ و يبحر و يغير و ينجد و يشرّق و يغرّب

اما وقد اتفق الآدميون من لدن الخلق على الجد وراء الحياة السعيدة الهنيئة غير انهم اختلفوا في وجوه التماسها وطرق تحصيلها اختلافاً طويلاً عريضاً · وذلك لتباعد افكارهم في رسم صورتها · وتباين ارآئهم في تعقل حقيقتها · وقد افضى ببعضهم الامر الى ان طلبوا السعادة من معدن الشقاء والطمانينة من موضع الاضراب كاللصوص والقتلة وزرّاع الاحقاد وداسي الدسائس ومحفظي الناس بسوء الصنيع وللناس في ذلك مذاهب يكاد يعيي الطالب حصرها · واليكم الان مذاهب بعضهم في السعادة

منهم من ذهب الى ان السعادة انما هي توفر المال لدى الانسان فسعى وراءه سعي الجد واصلاً عمل النهار بعمل الليل لا تاخذه فيه سامة وقد كلفت نفسه الكسب والادخار واولعت بالشح الى حد ان حرم ذاته من كل ما تشتهيه نفوس المكثرين من التانق في المطعم والمشرب والملبس والمركب حرصاً على الدينار وفراراً من التالم بلوعة فراقه ووحشة بعاده · فكان الواحد من اهل هذا الوهم انما يتمتع ويتمجد وهو في قبره بقول الناس توفي عن كذا وكذا الفاً من الدنانير واخص اوصاف هؤلاء انهم الوكلاء الامناء لوراثهم

ومنهم من يعد السعادة كلها في رخاء العيش والتوسع في النفقة وابهة المظهر فيسكن الدار الشاهقة الفيحاء المزخرفة بالنقوش المزينة بانفس المتاع و يلبس الثياب الفاخرة و يتخذ المراكب البهية المزخرفة والخيول المطهمة و يستكثر من الخدام· وتسخو نفسه ان ينفق وجده في سبيل ملاذه فتراه يصرف للذة اذنه العشرة الالاف والخمسة عشرة الفاً في الليلة الواحدة وقد يكون في جوار بيته بل في انسبائه من تحن نفسه الى اكلة من العدس فلا يرضخ له بشيء · وهذا صنف المنغمسين في الترف الذين لم يعرفوا من اطوار الحياة الا الطور الجسماني · ولم يذوقوا شيئاً من

لذات الحياة المعنوية بل اكتفوا ان ينقلبوا على بساط الطور الجسماني المبسوط على وحول البهيمية · رفعنا الله واياكم عنه وقصارى الكلام ان الواحد من هؤلاء يبذل وسعه حتى يستوفي جميع ملاذ الطور البهيمي قبل خروجه من الدنيا · ومن كانت حقيقة السعادة عنده الترف ماتت فيه الاخلاق الفاضلة وفارقته الهمم العالية واصبح كالبهيمة السائمة لا يهمها من الدنا الا علفها

ومنهم من يقولون ان السعادة انما هي السلطة فيطلبونها ويستحقرون في سبيلها كل نفيس وهم رجلان رجل يبتغيها قصداً الى تقويم الأوَد باحياء الحقوق واسعاد الرعية · فيكون ولا ريب من اكبر نعم الله على عباده واغزر بركاته على خلقه ورجل يطلب السلطة ليطلق يده في حقوق الناس ويقيم فيهم شريعة مطامعه وينفذ عليهم احكام اهوائه فيكون اكبر نقمة تحل على الرعية واعظم نازلة تنزل بهم ولا ينتصف من هؤلاء كالتاريخ فانه يصورهم بكمال شناعتهم ويمثلهم بهول هيئتهم فيخلد لهم في الناس اقبح ذكر

ومنهم من يحصر السعادة في الصيت الحسن والذكر الطيب · وهؤلاء لا يرون لوجه الحياة جمالاً الا باتيان ما يمدح ومجانبة ما يذم فيبذلون الاموال ويكابدون العناء في خدمة الناس ومصالحهم حتى ترى البلاد كانها السنة تحدث بمحامدهم وتنطق بمكارمهم ولا يحفلون بما جاء في الامثال من قولهم «سمن الكيس ونيل الذكر لا يجتمعان» الا وهم الذين يوقنون ان من يعطي المسكين يقرض الله والله سبحانه لا يجاوَد · فمن بذل في سبيله واحداً انعم عليه بعشرة

ثم ان هذا التصور للسعادة لهو من معادن الآثار الحسنة ودعائم الاعمال الخيرية واصحابه احمد الخلق ذكراً واعزهم في قلوبهم حكماً فهم موضع ثقتهم ومحل امانتهم واياك ان تضم اليهم من يتحيلون حتى يعرفوا بالخير ويوصفوا بـه ثم يتخذوا ذلك الذكر سلاحاً يستعينون به على اختلاس الاموال وقرض الاعراض فهم كالذي قيل فيه

صلى وصام لامر كان يطلبه حتى حواه فما صلى ولا صاما

ومنهم يقولون انما السعادة تطبيق السيرة على وصايا الله تعالى فهؤلاء يتحامون المنكرات صغيرها وكبيرها ويأتون المعروف قليله وكثيره لا يبتغون لذلك عوضاً الا اطمئنان ضمائرهم ورضوان خالقهم وهم الذين يحرمون على انفسهم القذف والغيبة وزرع

الشقاق ودس الدسائس · وهم الذين لا تطوع لاحدهم نفسه ان يبذل قرشاً تعجيلاً للوصول الى حق وان كان اكرم الكرام وانما ذلك وقوفاً عند نهي الشريعة وان دعي احدهم الى منصب اكتفى باجرته وقال لمن يحمله على مخالفة الشريعة ما قال الامام عليّ لاخيه عقيل وهذا نص مقاله « والله لان ابيت على حسك السعدان مسهداً واُجرّ بالاغلال مصفداً احب اليّ من ان القى الله ظالماً لاحد من الناس » وهؤلاء هم عملة الخير الظافرون بالسعادة الحقة الانقياء الصدور من ضر الاحقاد المنزهة ضمائرهم عن هواجس المفاسد ومن لبابهم ان شاء الله اعضاء هذه الاخوية الصائرة في سبيل الاحسان الفائزة لحسن صنيعها برضا السيد السند يوحنا بطرس البطريرك الانطاكي والسيد المفضال يوسف الدبس رئيس اساقفة بيروت الذي على يده قامت عندنا هذه الاخوية يتبارى اعضاؤها في المحامد ويتنافسون في المبارّ · ويشيرون بسيرهم الحسن الى افضل ما تصور به سعادة الحياة واخص ما تعرف به والله المسؤول ان يرينا الجميع قد تصوروا السعادة كما تصورها القائلون انها تطبيق السيرة على شريعة الله عزّ وجلّ

ادب الدارس بعد المدارس

وهو الخطاب الذي لفظه حضرة العالم العلامة المحقق واللغوي المدقق الشيخ ابرهيم اليازجي في اثناء توزيع الجوائز على طلبة المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك في بيروت يوم الاحد الواقع في ٢٠ تموز سنة ١٨٩٠

ايها السادة

قد دعيت للكلام بين ايديكم بما يتنزّل منزلة خطابٍ اصرف به مسامعكم الى غير ما يتلى عليكم من هذه الاسماء المتتابعة والاعلام المتناسقة استدعاءً لجمام الخواطر ودفعاً لما ينشأ عن مثل ذلك من ثقل الملل وان كان ولا ريب مما ترتاح اليه نفس كل وطني يرى سباق فتياننا الاذكياء ومباراتهم الى نيل قصب السبق في مضمار

الفلاح · غير ان ضيق الوقت واشتراط الايجاز في القول يمنعني عن تخير غرض ذي بال افيض فيه في هذا الموقف الحافل ولا سيما ونحن في معمعان الفصل وتوقد وطيسه مع اعترافي بقلة البضاعة وقصر الباع ولذلك رأيت ان اوجه كلامي الى الحلقات الاول من طلبة هذه المدرسة الماثلين في هذا المقام مقام الوداع ليكون بمنزلة درس اخير القيه عليهم في هذه السنة تثبت في محفوظهم آثاره ولا يذهب من نفوسهم تذكاره والله المسؤول ان يتولاني واياهم بهدايته وتسديده

فانكم ايها التلامذة النجباء بل الاخوان الاحباء قد قضيتم هنا الشهور بل الاعوام حتى بلغتم الحد الذي فيه عرفتم من انفسكم معنى تحملكم مشاق الدرس والسهر وحمل طبائعكم على الجهد والنصب وفطم انفسكم عن ملاهي الحداثة واعطاء قياد اهوائكم لمن يسوسها دونكم ومهاجرة المنازل التي الفتموها والاهل الذين نشأتم بينهم والاخوان الذين جمعتكم واياهم دار المولد والفت بينكم وبينهم عشرة الصباء · وما فيكم من يجهل ما في انشاء هذه المدرسة من مهمات التكاليف بين تشييد بنائها واعداد محلاتها وتوفير الرجال فيها على سياستكم وتهذيبكم والقيام عليكم في دروسكم وغذائكم ومنامكم وسائر احوالكم وما يتجشم اولياؤكم من النفقات الطائلة والاهتمامات المتواصلة وان ذلك جميعه وقف على مصلحتكم وسعي في شؤون آتيكم وتبليغكم الطور الذي تكونون فيه اهلاً لان تقبضوا على ازمة عصركم وتحلوا المحلات الاولى من مجتمعكم وتكون لكم القدم السابقة في نشر المدنية وتعزيز شأن الوطنية والسعي فيما يعود نفعه عليكم وعلى البلاد

فاذا خرجتم من هذه المدرسة وفي ايديكم الاجازات المؤذنة باستكمالكم دروسها فاول ما اوصيكم به المثابرة على درس ما تلقيتموه فيها وتعهد الذاكرة به مخافة ان يسرع اليه النسيان فان آفة العلم كما قيل اهماله · فاجعلوه حديث النفس في خلواتكم وتذاكروه في مجالسكم وروّضوا باسراره خواطركم حتى تستحكم ملكته في اذهانكم وترسخ مسائله في مخيلاتكم وتمثل صوره في بداهتكم ولا تقنعوا منه بالقدر الذي بلغتموه في حلقات الدرس ولكن استزيدوا ما وصلت اليه ايديكم منه وخذوا انفسكم بادمان البحث والاستقراء لادراك كنه المسائل والاحاطة باطرافها واستظهار نادتها وغريبها فان المدرسة لا تضمن لاحد ممن تلقى علومها ان يخرج منها عالمًا ولا ذاك في غاية شيء من المدارس ولا في طوقها وانما العالم يصير

عالمًا في بيته وفي مقام شغله وهو استاذ نفسه على الحقيقة يبلغها الكمال بادمان الجهد وتكرار المطالعة والاشغال · ولست انكر على آحاد منكم بلغوا في التحصيل مبلغاً عزيزًا واحصوا من الاصول والقياس حظًا جليلاً غير اني لا اطرىء احداً منهم بانه قد استولى على شيء من غايات العلم ولا تقرب من حدود الكمال ولكني ابشر الذين بلغوا هذه المنزلة وانتهوا الى آخر درجة من سلم الدروس بانهم قد صاروا اهلاً لان يضعوا قدمهم في اول درجة من سلم العلم ورجائي بما عهدت من ذكاء افئدتهم وثبات عزائمهم انهم سيحصون عن قليل في سواد اهل العلم القائمين برفع مناره والتطريس على آثاره اذا لم تهب عليهم ريح الكسل التي تطفىء نور الذكاء وتنسف حصون الثبات الا وهو الآفة التي احذرهم شرها واسأل لكم العافية منها واذا جاوزتموها لم اخش على عزائمكم ان تكسع بوهن ولا على جهدكم ان ينال بضياع

ولست ازيدكم بيانًا ان العالم لا ينفع بعلمه الا اذا كان راسخ القدم فيه مستبطنًا لاسراره ودخائله محيطًا بما تشعب من فروعه ومسائله وذلك مما لا ينال الا بطول المزاولة وتكرار المراجعة وتفريغ الذهن لما يتوخى حفظه واخلاء الذرع لاحصائه ولذلك فاني انصح للمستزيد منكم ان لا يتعرض لما لا يعنيه من العلم ولا يتجاوز ما درسه الى غيره قبل ان يستوفي حظه منه ويرسخ في ملكته وان وجد من نفسه قدرةً على التوسع وميلاً الى المزيد فليكن فيما يجانس مأخذه وينضم في سلكه بحيث لا يكون انتقال الذهن بعيداً ولا تتعارض فيه صور العلوم بما يضعف ملكتها فيه وتضيق الحافظة عن احصائه على ان المرء مفطورٌ على التطال مولعٌ بالاطلاع على ما لم يعلم ولكل علم فائدة تتوفر بها مادة العقل و يتسع مذهب الفكر و يبعد مرمى البصيرة فلا يمتنع على من شاء منكم ان يزين علمه بما يضمّ اليه من سائر العلوم ويشحذ ذهنه بما يصل اليه اطلاعه من المدارك ولكن ليكن ذلك بحيث لا يصرفه عما هو فنه الجدير بالتوسع فيه وليقتصر فيه على حد المشاركة دون التبحر وقصد الاحاطة لئلا يقصر باعه عن تناول كل واحد من العلوم التي يتوخاها فيخرج متخلفًا في الجميع · وان سمعتم ان فلانًا المنعوت بعلامة العلماء وفيلسوف العصر قد احاط بمتفرق العلوم واصبح في كل منها امامًا فانما هو تزيين المحال وتلقين الغرور وهؤلاء مشاهير علماء المتقدمين والمتاخرين لا تكادون تجدون واحداً منهم ممن يشار اليه بالسبق والتبريز الا وهو قد اشتهر بجنس من العلم ولم يكن له في سائر العلوم الاخر الا مشاركات

واذا ضمكم مجلس ادب وتشمرتم للبحث فيه فلا تتفرغوا للنقد والتخطئة والتنبيه على هفوات اهل العلم ارادة ان تكاشفوا الناس بمبلغ علمكم وتوهموهم انكم ارفع ممن تخطئونه مقاماً واوسع علماً فان ذلك يبعث النفار منكم في النفوس والاشمئزاز في الصدور وتلحظون بعين الكراهة من رصفائكم واضرابكم وتنصبون انفسكم اغراضاً للقارضين واهدافاً للطاعنين وتغرون الالسنة بالغض من مزيتكم واحسانكم فيكون ذلك سبباً في حط مقامكم ونصب العداوة لكم والوقوف لكم بالمرصاد فيما تتوخونه من المقاصد وتتجهون اليه من الرغائب . واحذركم كل التحذير من الطعن على من اشتهر بفضل او مزية واعترف له سواد الناس ولا سيما اهل العلم بالتقدم فانكم ان فعلتم جعلتم انفسكم غرضاً لكل من تشيع له فاكثرتم اعداءكم ومناصبيكم في حين انتم على حداثة امركم احوج الناس الى الاستكثار من الصحابة والاصدقاء . والمشايعين في احوال الدنيا والدافعين الى التقدم في مراتب الشهرة والفضل . ولا تحسبنّ الناس سواء في معرفة الصواب فان ذوي العلم فيهم نفرٌ معدود والمنصفون من اولئك قليل وفيهم من لا يهمه ان يعرف موضع الحق فلا يتفرغ للبحث في دعواكم وانما يحكم بمجرد ما تقرر في علمه او سبق الى وهمه من افضلية الاشهر فلا تحصلون منها على طائل . واذا كان ذلك حال العلماء . وهو الواقع في كثير من الامر فما الظن بغيرهم ممن لا اداة له للحكم ولا موقع عنده للفصل

واذا جالستم اهل العلم ولا سيما ذوي التبريز منهم فليكن مقعدكم منهم مقعد المستفيد واياكم والاعتراض عليهم ولو غلطوا فان في علمهم ما يخرجهم مما اخذتم عليهم ولا تأمنون ان يرموكم فيما لا تخرجون منه . واذا اعترض عليكم عارف واظهر لكم خطأً بدر منكم فلا تسرعوا الى الاحتجاج والمكابرة انفةً واستكباراً بعد ما عرفتم الحق فان ذلك يذري بعلمكم ويرميكم بالجهل ووهن التمييز ثم يكون سبباً في حرمانكم فوائد جمة . واذا دفعتم الى جدال فتحاموا الصلف والتحقير واخذ الخصم بالعنف والاستعلاء لاقناعه بالحق فان ذلك مما يضيع الحق ويخفي وجه الصواب ويعود عليكم بالتهمة لان الصلف من سلاح العاجز واياكم ومساجلة من هو دونكم علماً والاشتغال بمغالطته وجداله ولكن ينبغي ان ترشدوه الى الصواب ارشاد المفيد فان ابى وكابر فاقلعوا عنه اقلاعاً جميلاً لئلا يشين علمكم ويستدرجكم الى ما يستزل اقدامكم فتؤتون من الطريق الذي اخذتموه عليه وترجعون عنه بصفقة المغبون

واحذركم الدعوى فانها آفة الفضل ومحل النكير ولو كانت حقاً وقد اعتادت النفوس ان تنفر منها وتبخس صاحبها من حقه حتى لو كانت له عشرة وادعى عشرة اجتهدوا ان يجعلوها له تسعة فما الظن بمن كان له عشرة وادعى خمسين · واياكم والتمويه في العلميات والخلط فيما لا تعلمون حذار ان يقوم لكم في المرصاد من يزيف علمكم ويرد بضاعتكم عليكم فتقعون في النقصان من حيث تطلبون المزيد · ولا تحسبن ان العالم لا يسمى عالماً حتى يحسن الجواب عن كل شيء ولو في العلم الذي تجرد له وقضى عليه ايامه فان العلم لا ينتهي الى حد يقف عنده بل قد تقرر ان من اعظم فضائل العلم ان يبصر ربه بقصوره ويطلعه على جهله ومن اغتر بنفسه وظن انه وسع كل شيء علماً فقد دلّ على قلة بضاعته وضعف مداركه · فلا يخجلنّ العارف منكم اذا سئل عن شيء فلم يحضره ان يقول لا ادري فان قول القائل لا ادري خير من ان يقال له اخطأت بل قد عدّ ذلك من جملة مآثر ذي العلم وادلة كماله فيه حتى ان السيوطي عقد باباً في كتابه المزهر فيمن سئل من العلماء عن شيء فقال لا ادري فذكر عدة من مشاهيرهم وكبرائهم كالاصمعي وابن دريد والاخفش وابي حاتم وغيرهم من اهل هذه الطبقة : قال ابو عبدالله الزعفراني كنت يوماً بحضرة ابي العباس ثعلب فسئل عن شيء فقال لا ادري · فقال له بعض من حضر : اتقول لا ادري واليك تضرب اكباد الابل واليك الرحلة من كل بلد · فقال : لو كان لامك بعدد لا ادري تمرٌ لاستغنت قال : وسئل الشعبي عن مسئلة فقال لا ادري فقيل له : فبأي شيء تاخذ رزق السلطان · فقال لاقول فيما لا ادري لا ادري · انتهى بمعناه

ويقرب من ذلك ما حكاه بعض علماء العصر من الفرنسيس قال ان احدى خواتين الاشراف تصدت يوماً لاحد مشاهير العلماء في مجلس حافل فقالت له أمطرٌ يكون بعد الهلال ام صحو · فقال : لا ادري · قالت : اذن فما علة اتصال الغيث في هذا العام · قال : هذا مما لا نعلمه · قالت : اتظن ان سكان المشتري يكونون على خلقتنا · قال : ايتها السيدة اني لا اعلم شيئاً من ذلك · فقالت يا عجباً فلم يتجر المرء في العلم اذن · فقال : حتى يقول احياناً اني لا اعلم شيئاً

واذا انتدب احدكم للتاليف في علم من العلوم فليتوخّ الفائدة والنفع دون الشهرة ومكاشفة الناس بما اوتيه من فضل علم او سعة اطلاع لئلا ينصرف همه الى التشاغل

بما لا تدعو اليه الفائدة المقصودة عن تاليفه ويحشو كلامه بما يفوت طور الدارس من غامض المسائل وغريبها فبينا هو يريد اثبات براعته وطول باعه اذ يطرح المستفيد في لجج لا يدرك لها ساحلاً ويصبح كتابه ضرباً من المعاياة . وهذا مما سقط فيه كثير من اكابر العلماء وجلتهم فاضاعوا فضل علمهم في سبيل امثال هذه السفاسف ورغب الناس عن تاليفهم الى غيرها فطرحت في زوايا المهملات

وسواء الفتم او حاضرتم فاياكم والتسرع في اثبات الاحكام العلمية خصوصاً من رزق ثقة الناس منكم واطمئنانهم الى الاخذ عنه لئلا يفشو الوهم وتفسد الحقائق العلمية ولا تثبتوا حكماً قبل الوقوف على صحته ومعرفتكم من انفسكم القدرة على ايضاحه متى سئلتم عنه لئلا تضطروا ان تقولوا هكذا نقلنا فتكون منزلتكم منزلة الناسخ الذي ينقل صور الحروف ولا يعلم ما وراءها . واعلموا انكم متى ابحتم لانفسكم نقل ما لا تعلمون ورّطكم ذلك في شعاب حرجة واوردكم موارد وبيلة. لما تعلمون من كثرة المتهافتين على التاليف بقصد الشهرة او الكسب افهموا ما ينقلونه او لم يفهموه فاذا لم تعتصموا بالبحث في كل مسألة تتلقونها عن غيركم لم تامنوا الوقوع فيما يعسر عليكم المخرج منه وكنتم سبباً في نشر الاوهام وذريعة في افساد العلم ولا سيما ونحن في عصر قل نقاده فيفشو الغلط من غير نكير وتتلقاه الناس من وجه الثقة فيعم الفساد

وكلكم يعلم بما صارت اليه حالة العلم في هذه الاقطار وما نحن فيه مذ مئات من السنين من التخلف والوقوف حالة كون غيرنا من الامم التي رقيت بعدنا في معارج المدنية لم تزل عاكفة على ادمان البحث والتحقيق دائبة في سبيل الكشف والاستنباط الى ان بلغوا من البسطة في العلم والتبحر في مداركه واستقصاء غاياته ما هو معلوم وزادوا عليه وفرعوا منه ما لا يقف عند حد ولا يحيط به احصاء وكل ذلك مما خلت كتبنا ومدارسنا عنه فضلاً عن ذهاب ما كان في خزائننا من بقايا علوم السلف الا ما لا غناء به مما لا يتعدى اداب اللسان . فنحن اليوم في امس الحاجة الى استرجاع تلك الذخائر ونقل هذه المستحدثات الى لساننا العربي لنلحق باولئك القوم ونستانف خطواتنا في السبيل الذي تقدمونا فيه . فاذا عمدتم الى شيءٍ من التاليف فليكن فيما دعت اليه الحاجة مما ذكر تذرعاً الى بث مثل هذه العلوم في البلاد لما تعلمون من اننا قد انتهينا الى عصر لا يتجزأ فيه من الحقائق بقواعد النحو والبيان ولا يستغني من الاختراع بابتكار معاني الغزل والمديح وكلكم آخذ بطرف صالح من

السنة اولئك القوم وعندكم من اصول العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها ما يمكنكم من نقل كثير من الفوائد المحتجبة وراء ظل العجمة تردونها في قالب عربي وتنشرونها في البلاد فتتوفر بذلك علوم الوطن وتتزين مكاتب اللغة بما تزيدونها من مثل هذه التصانيف المرسومة فيها اسماؤكم بما يضمن لكم الثناء الطيب والذكر الباقي على الاحقاب

وليس من غرضي فيما ذكر ان اصرفكم عن الاشتغال باداب العربية والتوفر على اتقان علومها واحكام الجري على اسلوبها ولا سيما مع بعثة اللغة في هذا العصر وانتعاشها بعد كبوتها اعصارًا طوالاً واقبال المتادبين واهل العلم من كل اوب على اقتباس فنونها واحراز اعلاقها علمًا بما لها من المزية التي انفردت بها عن سائر اللغات بجزالة الفاظها و بلاغة تراكيبها وما في وضعها من الحكمة والابداع فضلاً عن ان اتقان اللغة عند كل امة مقدم على جميع العلوم اذ هي القالب الذي تسبك فيه المعاني والمرآة التي تمثل فيها صور الخواطر فما كان ذلك القالب اجمل تكوينًا وتلك المرآة اصفى ماء جاءت المعاني ابدع والخواطر اظهر وانصع ولذلك كان اشتغالكم بها واحكامكم لعبارتها واسلوبها والتعمق في معرفة مفرداتها واحكام مجازها واشتقاقها من اعون الذرائع لكم على بلوغ الغرض من التاليف فيها ونقل العلوم المذكورة اليها لانكم بذلك تستطيعون ان تصوروا المعاني بصورها وتلبسوها اثوابها الخليقة بها وتستنبطوا لها الالفاظ التي لم يسبق لها وضع في هذه اللغة مما حدث بعد عهد اربابها وانما الذي ينبغي ان تجتنبوه فيها الايغال في تقصي مذاهب النحاة واستقراء ما قيل في كل مسألة مما لا فائدة فيه للعقل ولا زيادة تبصرة في الاستعمال اذ وجه الاستعمال على جميع الاقوال واحد والمجمع عليه من الوجوه الفصيحة منصوص عليه في اماكنه مما عرفتموه . ويتصل بذلك التنقيب عن الانواع والجناسات البديعية وتوخيها في صوغ الكلام من النظم والنثر فان ذلك هادم لاركان البلاغة مشوّه لمحاسن وجوه الفصاحة لما يقتضيه على الغالب من التكلف والخروج بالكلام عن وجهه الا ما جاء منه اتفاقًا او على غير كلفة فانه يعد من المحسنات وحسنه يكون بقدر قربه من النظم الطبيعي الا ان هذا قلما يعتد به في نظر البليغ اذ العبرة باصول المعاني التي يبنى عليها الكلام لا بالتحسينات اللاحقة الواردة مورد الزينة على ما نبهت على ذلك كله علماء البديع . ولهذا كانت المحسنات المعنوية اعلى من المحسنات اللفظية لرجوعها الى المعنى الذي هو

المقصود من الكلام فضلاً عن ان اللفظية كثيرا ما يكون المعنى فيها مستعبداً للفظ لاقامة الجناس او الفاصلة وانما يطلبها على الغالب من لا غناء عنده من المعاني فيموه على الاسماع بهذه السفاسف التي لا تثبت على النقد ولا محصول منها في الفهم

ولقد رأيت من الناس من التزم السجع والجناس حتى في التقريرات العلمية وكتب التاريخ ونحوها مما قيد الكاتب فيه باغراض وحقائق لا متسع له عنها ولا محل فيها للزخرفة والخيال وبهذا تعلمون قدر ما اولع الناس بهذا المذهب السمج ولا حاجة بعد هذا الى ذكر ما بلغوا اليه من ذلك في الخطب والشعر مما استغرقوا فيه المذاهب ولم يتركوا غاية الا اتوها حتى صار السامع اذا تلي عليه كلام كثير من اولئك ظنه ضربًا من تصريف الكلم او بابًا من ابواب الاشتقاق واصبحت المعاني الشعرية كانما مسخت فاستحالت جناسات وانواعًا وصار من تناول منها شيئًا تاه على امرىء القيس وابن ابي سلمى ولم يعد المتنبي ومن في طبقته شيئًا . ومهما يكن من مذاهب الشعراء فاني لا ارى لاحد منكم ان يتعلق قول الشعر ويضيع اوقاته في معاناته لان احدكم احوج الى علم يستزيده وليس في احدكم فضلة لان يخرج من قريحته ما ياخذه الناس عنه واذا لم يكن في الشعر ما يستفاد من حكمة او ادب او ما يعجب من ابتكار معنى او ابتداه نكتة وكان قصارى ما يدور عليه الوزن والتقفية فما اقلها جدوى تسهر عليها النواظر وتكد فيه الخواطر ثم لا يكون وراءها الا اصوات يمكن ان يؤدى مثلها بنقر الدف ووقع مطارق القصارين . واذا كان فيكم الشاعر المطبوع يجيش في خاطره الشعر فلا يستطيع ضبطه فليصرفه في الاغراض الادبية والتاريخية او وصف شيء من الاحوال والمشاهد الطبيعية او ضبط شيء من قواعد العلوم دون التشبيب والمدح وما شاكل ذلك مما يذهب بالزمان سدى ولا يتناول منه فائدة

واعلموا ان المرء مفتون ببنات افكاره فسواء كتبتم شعرًا او نثرًا فلا تعجلوا الى نشر ما كتبتم ولا تكونوا من انفسكم على ثقة وان استحسنتم ما صدر من قرائحكم لاول وهلة ولكن ينبغي ان تكونوا لخواطركم متهمين وتراجعوا ما كتبتم مراجعة الناقد المتعنت وان اصبتم في كلامكم ما ينبغي اطراحه فلا تبتئسوا من ضياع جيدكم فيه ولا تحرصوا على كثرة ابيات القصيدة ولا على توفر الجمل وتعدد السطور فانه لم تعب قصيدة قط بقلة ابياتها ولا مقالة بقصر لفظها ولكنها تعاب بغلطة واحدة او لفظ

ركيك او معنى في غير محله فتسقط لذلك برمتها · ولا باس عليكم ان تضعوا كلامكم بين يدي من تثقون بعلمه لينبهكم على ما فيه من العيوب فان نقد واحد من من الاصدقاء ومناصحته في الستر خير من تنديد جماعات من الاعداء والحساد على رؤوس الاشهاد · وكلكم يذكر شأن الشاعر الكبير زهير بن ابي سلمى وما كان يفعله من عرض قصائده على اصحابه الشعراء والتوفر على تنقيحها حتى ياتي على القصيدة منها حول كامل ولذلك لقبت قصائده بالحوليات ولم يكن يستحيي من ذلك ولا أُتي من جهته قط فضلاً عن انه كان معدوداً في جملة فضائله يؤثر عنه الى هذا اليوم

وفي الختام اوصيكم بالمحافظة على ولاء هذه المدرسة التي هي موضع نشأتكم ومجمع اشدكم وفيها غذيت احلامكم ومنها نبضت لكم مناهل الدراية والرشد ومن اشعتها اقتبست بصائركم ما تسيرون في ضوئه سحابة العمر وعلى الجملة فهي التي اتمت لكم ما رزقكم الله من نعمة العقل واكملت فيكم فضل النطق ووصلت ايديكم باسباب النجاح ونهجت في وجوهكم سبيل الفلاح وارسلتكم رجالاً يتدرجون في مراقي الفضل والعرفان ويحلون محلهم من اندية العمران واعلموا انها لن تزال عصمة لكم تاوون منها الى ركن عزيز كما آوتكم من قبل في حرز حريز فكونوا عندما يفرضه عليكم الوفاء من تذكر نعمائها وما تتقاضاكم الذمة من الاقامة على صدق ولائها ولا تغفلوا عن عرفان ما لغبطة مؤسسها العلامة المفضال من الايادي البيضاء واجمال الثناء على تشييده لكم هذا المقام الذي فيه تعلمتم صوغ الكلام وتحبير الثناء وتعهده لكم بالعناية وجميل الرعاية في حالتي المشهد والمغيب وافاءة ظل فضله عليكم واحسانه اليكم ليبلغكم من الفوز اوفى نصيب لا زال كوكباً للشرق ترسل اشعة هديه في الاقطار وتسير بفضل نوره متحيرات الابصار

وهذا اليوم موعد تفرقكم الذي به ينحل عقد هذا النظام وينوب اجتماع كل منكم بذويه عن اجتماعكم في هذا المقام فكونوا على القرب والبعد اخوان صدق تجمعهم نسبة الادب ووحدة الطلب وتضمهم رابطة الوطنية وجامعة العثمانيــة حتى تكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً في احياء اثار العلم والتفنن وتوثيق اسباب الحضارة والتمدن في ظل دولتنا العلية الباذخة الاركان القائمة تحت لواء مولانا السلطان عبدالحميد خان ايد الله دولته وايد به دعائم العدل والامان وجعل ايامه

تاجاً على مفرق الدهر كما جعل ذاته تاجاً على مفرق الاكوان . اللهمَّ آمين

عيشة الخلاء

« لاديب بك اسحق »

كتبها اذ كان في صيف عام ١٨٨١ متردداً الى بعض قرى لبنان طلب التنزه وتبديل الهواء

قال —

لقد سكن الهواء وفتر الماء ووقعت سهام الشمس على الراس وثقلت وطأة الليل على النفس فما لطلاب الهناء سوى الخلاء وما لاخوان الصفاء غير الفضاء . فاهجر هواجر الحواضر وذر مفاسد المحاشد وسر بي بسرب الادب وصحب اولي الالباب نلتمس في الجبال نسيماً بليلاً وفي الاودية ظلاً ظليلاً ولا تتبع بنا العربة سارية على عجل بين السهل والجبل فانك ان ادركت اثارها لم تامن غبارها ولا تجرِ وراء الفرس يركضه القبعي خبباً فيسحب قوائمه تعباً . فانك لم تجد ثم رفيقاً يكون بنفسك رفيقاً بل انفرد بالخاطر تطلقه اطلاق الجواد بين الربى والوهاد

واغتنم نشق نسمات السحر قبل ان تمنى بانفاس البشر

وقابل الفجر قبل انفجار بركان النهار وقبل طلوع الغزالة على هودج النار وتعطر بما يمر بالخزاء والشيح من خطرات الريح وسرح طرف عينيك بمجالي جمال ما بين يديك فقد نسقت صفوف الاشجار على ضفاف الانهار وتكللت هام الاغصان من لآلي الندى بتيجان وغرّد العندليب على العود فاذكر بانغام اسحق على العود والهواء يملأ القلوب حياةً وهناءً والماء يسيل في الابدان صحةً وشفاء

والافق يبسم والطيور صوادحٌ والنهر يرقص والغصون تصفق

ومن فوق ذلك جبال لبنان تستهزىء بعاديات الزمان لزم روءوسها الشيب فازدادت به جمالاً فنادى لسان حالها رب زدني كمالاً . فكان في هامها الشتاء وفي عنقها الربيع وفي قلبها الخريف وتحت اقدامها الصيف والبحر من وراء ذلك يحدجها بعينه الزرقاء فترده صخورها الصماء فيعود راغياً وجداً مزبداً حقداً يدفع سابق موجه

اللاحق انكساراً كما انهزم الجيش فارتدت طلائعه الساقة فراراً

فتلك هي الحياة لا ما انفقت في الطلب وما صرفت في التعب بين مداج تدنيه وتخشاه ومفاج تخاف غضبه ولا تأمن رضاه والفرای اللوم راعه وسكن اذا اودعته القلب اضاعه وبين ذلك تمالك وانقباض وصد واعراض ودلال وهجر وملال وغدر وصحبة بالموادعة ووفاء بالمدافعة وشفاه لا صلة بينها وبين الضمائر والسنة لا علاقة لها مع السرائر وعيون لا تشف عن القلوب واخوان فيما لا يمس الجيوب ودهان واجلال واعظام ورياء واكرام واحتشام

ولقاء الانام عذب ولكن　　　كدرته مؤنة الاحتشام

فاغنم هذه الاويقات قبل انهدام اللذات فالزمان يومان ماضٍ لا يرد وحاضر لا يعلم له غد فاذكر امسك الذي فات وواتِ يومك قبل الفوات

التشبه

« له ايضاً »

قال

من تردى برداء　　　ما رآه لابيه
وابتغي ما قد تعالى　　　عنه مما يشتهيه
سوف ياتيه زمان　　　يتمني الموت فيه

وقد ابت لي نفسي ومشرب يعرفه الناس منها ان اكون من القائلين بالامتياز من غير مزية . اني اؤمن بالله واقر له سبحانه وتعالى بالعدل الذي هو عين المساواة واظن ببني نوعي خيراً معترفاً لكل سوي منهم بقابلية الفلاح والارتقاء فما اردت بما تمثلت به من ذلك الشعر ايجاب تشبه الانسان بابيه وقوفاً عند حد التقليد ورضاه بما وجدت يداه فعل الوكل البليد وانما قصدت الاشارة الى من يتمثل بمن لا يصل اليه فيما يعز ادراكه عليه فيكلف نفسه ما لا تسع ويلقي على عاتقه ما لا يطيق فيفيء بالخيبة والذل صاغر النفس قبل الوصول الى منتصف الطريق وفي مثل الضفدع اذ انتفخ تمثلاً بالجاموس فانشقت مرارته عبرة لاولي الالباب

ولقد سرت هذه العلة في ديارنا بين الاكابر والاصاغر والاواسط فضاعت بها

الاموال وساءت الاحوال وفسدت الاخلاق وضاقت الارزاق وصار اكثرنا كالقبور المكلسة بيضاء الظاهر وليس في باطنها غير الدود

فياقوبني الوسط المستور بالبركة على مَ نتحدى الغني فيما لا نخدع به الا انفسنا من الزخارف والاباطيل أ رأيت لو رفلت زوجاتنا بالحرير الاطلس يكنس باطرافه قامة الشوارع فيغنين البلدية عن الكناسين ولو تختم اولادنا بالجوهر مستعاراً وتقلدوا سلاسل الذهب مبتاعة بالدين تشبهاً باولاد الاغنياء ولو سكنا القصور مفروشة بالديباج يطالبنا الغرماء بثمنه قبل انقضاء العام او نبذل فيه جلّ راس المال انسدل على حقيقة امرنا حجاباً ونلقي في اعين الناس تراباً فلا يظهر من حالنا الا ما نريد ولا يرى منا الا ما نظهر بل نحن نسعى الى دمارنا بارجلنا مخربين بيوتنا بايدينا

وانت يا خليلي الفاعل الآكل الخبز بعرق الجبين فيمَ تتشبه بالاوساط ومـا فوقهم من الدرجات أرايت لو خجرت زوجتك من بيتها الحقير بزي امرأة جارك صاحب القصر الكبير على رأسها نقاب ثمين وفي يدها عالة او مظلة من الحرير ولو رضيت بالفول غذاء وباذناب الفجل عشاء لتلبس زوجتك واولادك ما يلبس الاغنياء وانتم في مبيت لا يرضونه مربطاً لخيلهم أيغير ذلك شأنك ويرفع بين الناس مكانك فلا تحسب معه حمالاً او حماراً ولا تعد ماهناً او اكاراً بل انت معرض نفسك للسخرية تحرمها مما تحتاج اليه لتظهر بما يضحك الناس منه

سلني اخبرك باحوال امثالك في بلاد المساواة المطلقة والاجتهاد المستمر فاولئك لا يتحلون بالذهب ولا يلبسون الجوخ الناعم من فوق معدٍ فارغة تطلب المدد ولا تتزيا نساؤهم بازياء نساء المتمولين وانما لباسهم الكتان صيفاً والصوف شتاء ولنسائهم واولادهم ملابس تليق بشانهم وتلايم احوالهم يخرجون بها في اوقات الفراغ راضين بما وصلوا اليه فرحين بما هم عليه لا يمس قلوبهم الحسد ولا تعرف انفسهم الذل فاذا انقضى زمن العطلة او يوم العيد عادوا الى شانهم يسعون فيه تشتغل نساؤهم كما يشتغل الرجال ولا يرى اولادهم في الازقة متمرغين في الاوحال واذا مرّ بهم سادة القوم من الوجهاء والاغنياء لم يخفضوا بين ايديهم راساً ولم يخافوا لهم قوة وباساً وانت مع ترديك بالجوخ ولبس زوجتك الحرير تقف على ابوابهم موقف الذليل الحقير فمـا ضرك لو تركت ذلك الزين ولم ترضَ هذا الشين وانت في غنى عن الحالين

الا ساءت عاقبة من جهل حده فتعداه ونظر الى من فوقه فتحداه فزلت به القدم

فندم حين لا ينفع الندم · اطمع نفسه فيما تقصر يده عنه وعود اهله ما لا يستطيع الاستمرار عليه فطالبوه به فلم يصبه حلالاً فاحتال فلم تغن عنه الحيلة فسرق فامتنعت عليه السرقة فاغتال فان عز عليه بعد ذلك فحياته في اهله عناء دائم وبلاء مستمر

ونعم الرجل من تشبه بذوي الفضل واهل الاجتهاد فيما ادركوا به الامنية وبلغوا المراد فطلب فحصل وسعى فادرك وجد فنال وتعب فاستراح لم يقنع قناعة الوكل ولم يطمع طمع المغرور فذلك هو المعنى المراد من قول من قال فاجاد

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالكرام رباحُ

اليونان والرومان

« له ايضاً »

(وهي خطبة القاها في جمعية زهرة الاداب)

لو عدل تاريخ اليونان والرومان بتواريخ سائر الامم في جميع الازمنة لكان اوسع منها مجالاً واوفر مادة واكثر انتشاراً ولا بدع في ذلك فان هاتين الامتين معدودتان بمنزلة الاصل الاول او الوسيلة المعروفة في وصول التمدن والعلوم الى الغرب حتى ان العلم بلسانيهما القديمين كان من لوازم العالمية في جميع البلاد الاوربية ولا يزال كذلك في كثير منها الى الان · ومن اجل هذا اقبلت على جمع شيء من تاريخهما بقصد المقابلة بين ما نشأ عن كل منهما من الآثار النافعة والموازنة بينهما في الفضل والمقام المدني لا اقصد بذلك غرضاً في النفس ولا اخرج فيه عن قسطاس التاريخ على ان المقام ضنك فيما تعلمون وما هي الا تجربة مبتدئ يعرضها لاخوانه ويسترها عن غيرهم من الناقدين

ولا بد قبل الشروع في تاريخ الامتين من الاشارة الى جغرافية المملكتين لما بين التاريخ والجغرافية من التلازم في كثير من الاحوال

فمملكة اليونان لم يحددها القدماء تحديداً شافياً جلياً وانما قسموها ثلاثة اقسام البلوبونيزة جنوباً واليونان خاصة في الوسط وتسالية شمالاً ثم اضافوا اليها ايليرية الجنوبية ومكدونية وثرافة والجزائر اليونانية · هذا حد ما بلغ اليه تقسيمها الاصلي

على انه كان لدولها املاك كثيرة في سائر اقسام الارض بما فتحت من الامصار وما اكتشف رجالها من الاقطار وما استعمرت نزالاتها من الديار . وقد اختلف تقسيمها عن ذلك عقيب موت بلويس وفي خلال حرب ترواده وحرب البلوبونيزة الى ان دخلت في ولاية الرومان عام ١٤٦ للميلاد فصارت ايالة او قنصلية رومانية وسميت اخائية ثم صارت في زمن اغستوس ولاية سناتية اي لاحقة بمجلس السنات ولما قسمت السلطنة الرومانية في زمن قسطنطين دخلت مملكة اليونان في سلطنة الشرق وما برح اسمها مع ذلك اخائية ثم صارت مع مكدونية في النصف الثاني من القرن الرابع مملكة برأسها الى ان استوى الصليبيون على القسطنطينية فجعلوها امارات متعددة لغير واحد من روساء جند البندقية وجنوى ولما فتح العثمانيون القسطنطينية استولوا على معظم تلك البلاد ثم تم لهم امتلاكها جملة فجعلوها ولايات اربعاً ولاية تسالونيكية وولاية يانينة وولاية ليوادية وولاية المورة او تريبوليبزة فبقيت على هذه الحال بلا تغيير يذكر الى ان كانت سنة ١٨٢١ فنشط اليونان لطلب الاستقلال فتسنى لهم ذلك بمساعدة بعض الدول العظام فصارت بلادهم مملكة مستقلة تمتد من الغرب الى الشرق من جون ارتا الى جون فولو ويحدها من الشمال بلاد الدولة العثمانية في اوربا ومن الشرق والشمال الشرقي الجزائر المعروفة بالارخبيل ومن الجنوب البحر المتوسط ومن الغرب بحر اليونان وطولها ٢٥٠ كيلومتراً وعرضها مئتان

اما مملكة الرومان او ايطاليا القديمة فقد كانت منذ القرن الرابع قبل الميلاد مقسومة ثلاثة اقسام غالية او غولة السلبية في الشمال وايطاليا خاصة في الوسط واليونان الكبرى في الجنوب فكان يحدها شمالاً مسكرا وانين واتيس وغربا البحر المعروف بالداخلي وجنوباً سيرانوس وفرنتو وشرقاً بحر الادرياتيك ثم قسمت في زمن الجمهورية سبع ولايات وفي زمن الامبراطورية احدى عشرة ثم غير ادريانوس هذا التقسيم فجعل المملكة ولايتين اثنتين ولما مات قسطنطين قسمت المملكة من بعده اطلق على ولايتين من سلطنة الغرب اسم ايطالية ولم يكن كل ما فيها من البلاد منها وبعد اضمحلال سلطنة الغرب قسمت ايطاليا بين يوستنيانوس الثاني امبراطور الشرق واللمبارديين . هذا حد ايطاليا القديمة اي نفس بلاد الرومان اما الاقطار التي آلت اليهم بالفتح والاستعمار فما لا يكاد يدخل احصاؤه لتشعبه وكثرته وتعاقب

انواع التقسم فيه

ولنعد الى اليونان لذكر شيء من تاريخهم فنقول سمي اليونان اولاً انستيين اي اهل تربة واحدة وهم في الاصل قبائل وبطون من البلاسجيين ولا يعرف اصلهم في ما وراء ذلك ولكن الاكثرين على انهم جالية من اسية الصغرى . وقد كانوا قبل عام ٢٠٠٠ قبل المسيح في حالة البداوة والخشونة ولم يذكر التاريخ لهم من مدينة قبل سيسيون التي اختطتها اجبالة في القرن التاسع عشر قبل الميلاد ثم انتهم اقوام من مصر وفينيقية باسباب الحضارة والمدنية فاختط ايناكوس وابنه فوروني منهم مدينة اركوس وشرع اسبرتون في بناء مدينة اسبرته عام ١٨٨٠ ولم تتم على عهده وانما كمل بناؤها على يد ليليبس عام ١٧٤٢ و بعد ذلك ظهر الهيلانيون الذين يطلق اسمهم على امة اليونان الى هذه الايام فاستولى رجل منهم يقال له سيرويس على اثينا سنة ١٦٤٣ وآخر يقال له دكايون على تسالونيكية عام ١٦٣٥ وحكم كوموس في ثيبة عام ١٥٨٠ ودانوس في اركوس عام ١٥٧٢ ومينوس في كريت عام ١٥٠٠ وهذه العصور معروفة فيهم بايام الابطال لما حصل فيها لبلاد اليونان من المجد والسؤدد والفلاح في الزراعة والصناعات وفيها ادخلت بتلك البلاد مذاهب المصريين والفينيقيين وسنت لاهلها القوانين والشرائع وظهرت فيهم سطوة الهراقلة فاستولوا على البلوبونيزة فاتاها الهيلانيون الذين كانوا اصحاب تسالية واقاموا بها في ولاء الهراقلة الى ان امتلكوها على يد اولاد بلويس عام ١٣٠٧ ثم كانت حروب ترواده التي بالغ شعراؤهم في وصفها وذكر شجاعة المقاتلين فيها حتى امتزج في تاريخها الصدق بالخرافات وانتهت عام ١١١٠ ثم حصل الوفاق بين الهراقلة والهيلانيين فاستولوا ثانية على البلوبونيزة واخرجوا سكانها بقوة وكان ذلك ابتداء عصر اليونان المعروف بالوسط وهو الذي وقفت فيه حركة نجاحهم المدني الى ان عاودتهم الغيرة فبعثوا بملاحيهم الى سواحل آسية الصغرى وايطالية والغولة وهسبانية وسارت ركبانهم باشعار هوميروس العجيبة التي ترفع الذهن بقوة التصور الى ما فوق رتبة الانسان فاتسع فيهم نطاق الادب وجدَّ بهم الحرص على العلوم والعقائد حتى صار لكل بلد من اقطارهم معبود مخصوص بذلك البلد ووضع لهم ليكرغوس القوانين في اسبرتة عام ٨٩٨ وقامت الجمهوريات في مدنهم لاقامة امور العدل فالغي الملك في اثينا عام ١١٣٢ وفي اركوس عام ٨٢٠ وفي اليدة عام ٧٨٠ وفي قرنتية سنة ٧٤٧ وفي ارقادية

ومسينة عام ٦٦٨ ولم يبقَ محفوظاً الا في اسبرتة · ثم ادخلت الى اثينا شريعه دراكونيس عام ٦٢٤ وشريعة سولون سنة ٥٩٠ ووقعت الحروب المادية عام ٤٩٠ فبلغ ابطال اليونان فيها مقاماً تنخفض لمثله رؤوس الابطال · وفي خلال ذلك نبغ فيهم العلماء وظهر منهم الحكماء الذين فتح عليهم بما كان مغلقاً على سائر الناس فاخرجوا الاذهان من ظلمات الجهالة ومهدوا سبل الخروج من دياجر الضلالة فاشتهر اشيل وسفقيس واوريبدس بفن التراجيدية البديع وظهر ارستوفانوس بفن الكوميدية البهي ونبغ هيرودوتوس وتوقيديدس في صناعة التاريخ وبدت اثار الحكمة والفلسفة من تاليس وذيمقرطيس الذي ينسب الذيمقراطيون اليه ومن فيثاغورس وبرمنيدس وهرقليدس وانكساغورس فانشئت على يدهم مدارس الحكمة الخالدة الآثار وابدع ابقراط في الطب وهو واضع اصوله واول كاتب فيه بلغ من العلم به الى حد ان عد علمه وحياً وبقي من بعده ستمائة عام لم يزد واحد عليه حرفاً الى ان ظهر جالينوس فاخذ ما كتبه ابقراط وهذبه وزاد فيه · وظهر سقراط وافلاطون وارسطوطاليس حكماء الارض غير معارضين واشتهر فيدياس مصلح الهندسة العظيم وبرقليس الخطيب البليغ الذي ولي الامر في اثينا ثلاثين عاماً وغيرهم كثير من العلماء والحكماء والفضلاء الذين ابقوا لبلاد اليونان مجداً ثابتاً على مرور الزمان

ثم اختلت امور اليونان الداخلية بما نالهم من النشوة بالنصر في الحروب الخارجية فوقعت حرب البلوبونيزة ودامت فيهم سبعاً وعشرين سنة ثم اجلت عن حصول الامتياز لاسبرتة على سائر البلاد اليونانية ثم وقع الاتفاق بين تلك البلاد على ضد لقدمونية وعظم شان اثينا باعمال كولون وافقراط ولكن انتالسيداس واثق الفرس ميثاقاً دنيئاً عائباً عام ٣٨٧ فكان ذلك سبباً في قيام اليونان على اسبرتة · ثم جرت الحرب المعروفة بالمقدسة على ضد الفوقيين الذين احرقوا هيكل ذلفة عام ٣٥٥ فكانت وسيلة لتداخل فيليب صاحب مكدونية في امور اليونان فانتهزها فرصة لادخالهم في طاعته فقاومه دمستين اشد المقاومة وذاد اليونان عن انفسهم ما استطاعوا ثم دانوا له بعد يوم شيروني عام ٣٣٨ واستمرت فيهم الحروب الاهلية بعد ذلك حتى وهنت قواهم وعظم اختلال احوالهم وضعفت مستعمراتهم من قلة المدد فباغتهم الرومان على هذه الحال من الوهن واستولوا على ايليرية عام ٢٢٩ ثم نازلوا مكدونية عام ١٦٨

وامتلكوها عام١٤٧ وصارت بلاد اليونان ولاية رومانية عام ١٤٦ ومذ حينئذٍ لم يبقَ لتاريخ اليونان شأن يذكر لما انه دخل في تاريخ الرومان ثم لما شطرت السلطنة الرومانية في القرن الرابع للميلاد ادخلت بلاد اليونان في سلطنة الشرق واخذت هاته السلطنة في التلاشي من توالي هجمات البرابرة من الوسغوط والوندال والاستروكوت والبلغار وغيرهم ثم زحفت العرب اليها في القرن التاسع وتلاهم البلغار في العاشر فلم يفوزوا منها بطائل ثم نازلها فادكسكار بالنورمنديين عام ١٠٨٠ ثم قامت بها الدولة اللاتينية فجعلتها عدة اقسام لامراء من الصليبية يتولونها في حماية صاحب القسطنطينية الى ان تم الفتح الكبير للسلطان محمد الثاني عام ١٤٥٣ فاستولى القائد عمر باشا على اثينا عام١٤٥٦ ودافع اسكندر بك المشهور عن استقلال ابيرة الى ان مات فوقعت بيد العثمانيين عام ١٤٦٧ ثم دانت لهم المورة سنة١٤٦٠ وبقي اليونان في ولاية الدولة العثمانية قرنين الا قليلاً وفي ولاية الاجنبي من قبلها خمسة عشر قرناً صابرين ذاكرين مجدهم السابق مترقبين الفرص لاعادة الاستقلال حتى آن الوقت فنشطوا من العقال وشقوا عصا الطاعة واعانتهم بعض الدول الاوروبية فتم لهم الاستقلال وصار لهم مملكة معروفة بهم عام ١٨٣٠

اما سلطنة الرومان فخلاصة تاريخها ان ايطاليا كانت معروفة منذ القديم باسم ساترنية ثم حل بها قوم من الاركاديين تحت لواء (انوتروس) قبل حرب تروادة باربعماية سنة فسميت (انوترية) ثم استولت عليها قبيلة غير تلك من الاركاديين تحت قيادة (افندر) الذي خرج من البلوبونيزة مطروداً . وكان سكانها الاول من البلاسجيين والابوريجيين واللبرنيين ثم اتاها الهيلانيون من اليونان وجاء بعدهم اقوام من الغاليين فكانت لهم مستقراً مكيناً الى ان اتاها بلوفير في القرن السادس قبل الميلاد فضعفت شوكتهم ومالت سطوتهم الى الهبوط . وكانت رومية عامرة منذ اختطها قوم الي عام ٧٥٣ قبل الميلاد فلما ضعف امر الغاليين عدا اهلها عليهم فدانوا لدولتها خاضعين ثم سار اهل رومية على الملك تركين الملقب بالكبير عام٥٠٩ ق . م فخلعوه واقاموا لانفسهم حكماً جمهورياً فكانت هذه الثورة سبباً في تاخير ظهور آثارهم مائة وستين عاماً على انهم جدوا بعد ذلك في سبيل المجد حتى بلغوا منه غاية لا تدرك . وكان في تلك البلاد على ذلك العهد ثلاث قوى عظيمة الشان قوة الغاليين في الشمال وقوة السمنيتيين في الجنوب وقوة الرومان او اهل رومية فنمتْ

هذه القوة الاخيرة بعد استحكام جمهوريتها وانتظام جنديتها فاقامت الحرب على ساقها من سنة ٣٩٥ الى سنة ٣٥٠ ومن سنة ٣٤٣ الى سنة ٢٦٧ قبل الميلاد فخضع لها السمنيتيون واستولت على بلاد الوسط والجنوب من ايطالية ثم انصرفت الى محاربة الغالبين على ارضهم المسماة بغالة السيسلبية فصبروا لها من سنة ٢٢١ الى سنة ٢٧٣ ثم وهنت قوائم فاستولى الرومان على بلادهم الا نواحي قليلة منها وصارت جمهوريتهم اعظم قوة في ذلك الاقليم بل اعظم قوة في الارض على الاطلاق بما حصل فيها من حب الشرف وحب الوطن وحفظ النظام العسكري فداخلها الطمع في غير ما ملكت من البلاد فانصرفت قوتها الى الفتوح واستولت على سردينية وغولة اي بلاد الغوليين التي هي الان بلاد الفرنسيس وعلى قرطجنة وكانت بينها و بين انيبال قائد قرطجنة الكبير حرب ليست كالحروب اوشكت ان تكسر شوكتها وتبيد سطوتها وتجعلها على شفار الاضمحلال ولكن ساعدتها التقادير فنجت من ذلك القائد وغلبت عليه فبلغت معاوفها الحربية وقتئذٍ نهاية الكمال . ثم اخذت هذه المزية في الضعف بعد سنة ١٢٥ وضعف معها سائر معاوف الرومان وشبت بينهم الفتن الداخلية فادت الى تغيير الحكم فصار ملكيًا و وسد بارادة مجلس الشيوخ الى اكتاف فدعي اغسطس ومعناه الامير والامبراطور ومعناه القائد الاعظم فابتدأ اغسطس ملكه باعادة الراحة والامن فتم له ذلك واجتنب الحرب الا فيما اقتضاه تأمين حدود الملك الى ان مات عنه كاملا محفوظًا فتولاه خلفاؤه من بعده الى ان مات تيودوروس عام ٣٩٥ بعد الميلاد فقسم شطرين امبراطورية الشرق وامبراطورية الغرب فاما امبراطورية الغرب فكانت منقسمة خمسة اقسام بريطانيا وغالية واسبانية وايطاليا وافريقيا ثم قسمت هذه الاقسام اقسامًا واندفعت عليها قبائل البربارة من كل صوب فتلاشت بعد وجودها بمائة عام واما امبراطورية الشرق فتاريخها يبتدي بموت تيودوس و ينتهي باستيلاء العثمانيين على القسطنطينية عام ١٤٥٣ وفيه خمسة فصول الاول من سنة ٣٩٥ الى سنة ٥٦٥ وفيه اخذت ارمينية وسقطت امبراطورية الغرب والثاني من سنة ٥٦٥ الى سنة ٧١٧ وفيه توالت عليها النوائب والمصائب فتمكن اللمبرديون من ايطاليا واستقرّ البلغار والصرب في جنوب الطونة واستولت العرب على سورية ومصر وافريقية وقبرص . والثالث من سنة ٧١٧ الى سنة ٨٦٧ وفيه ظهرت دولة ايزوريان ففقدت ما بقي للسلطنة من الملك في ايطالية وادخل اليها اكرام

الصور على يد سبعة من امراء تلك الدولة وتم انقسام الكنيستين الشرقية والغربية عام ٨٥٨ فكانت رومية مركز هذه والقسطنطينية مركز تلك كما هو اليوم واخذت جزيرة كريد وصقيلة وغيرها ووقعت الحروب البلغارية التي اضرّت بسلطنة الشرق كثيرًا والقسم الرابع من سنة ٨٦٧ الى سنة ١٠٥٦ وفيه ظهرت عليها علائم السقوط اذ هاجمها البلغار والروس والبشناق على انها استعادت بلاد البلغار والصرب وقبرص مرتين . والخامس من سنة ١٠٥٦ الى سنة ٢٦٠ وفيه استولى السلاجقة على ثلثي اسيه الصغرى ومر الصليبيون بها وكانوا من الساعين في تدميرها ووقعت حرب النورمنديين فاستلوا على صقيلة ثم مات كمنيتوس الاخير فازدادت المملكة ضعفًا فاستقل عنها الصرب والبلغار وعادت الصليبية الرابعة من القدس الى القسطنطينية فامتلكتها فصارت عاصمة مملكة لاتينية ثم نازلها الامبراطور ميخائيل باليلوغوس فاستردها لنفسه وبذل المجهود في اعادة المجد لهذا الملك وتلاه ولداه من بعده ولكن تعذر عليهم الامر اذ تايد استقلال البلغار والصرب والبشناق واستولى الترك على سائر بلاد المملكة فاخذ امبراطور القسطنطينية في استنجاد ملوك الغرب وواعدهم بالعدول عن المذهب الشرقي فلم ينجدوه وعظم هذا الامر على رؤساء الدين في المدينة فكانوا اعوانًا للعثمانيين على الامبراطور ثم فتح الترك بلاد البلغار وقاتلوا الصرب وتم لهم فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الثاني وهي الى الان عاصمة دولتهم واسمها اسلامبول او الاستانة او دار السعادة

المقابلة

ليس بالامر اليسير محاولة المقابلة بين هاتين الامتين العظيمتين فقد امتلأت باخبارهما صحف التاريخ وحارت في آثارهما افهام الناقدين واختلفت احوالهما وعاداتهما كما اختلفت آثارهما والمنافع الناشئة عنهما حتى كادت الموازنة بينهما تمتنع لولا ان يكون الغرض منها محدودًا قاصرًا على ما نشأ عن كل من الامتين من النفع الانساني فاذا تبين هذا وعلمنا ان اليونان خرجوا من الحالة الهمجية الى حالة العرفان والتمدن من عام ١٩٠٠ ق م وان الرومان لم يخرجوا الى هذه الحالة الا بعد ذلك بالف ومائتي عام قلنا

ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا　　بكاها وان الفضل للمتقدم

وعلمنا ان اولئك جدوا باكتشاف البلاد المجهولة واستعمار الاماكن المهجورة

وتوسيع نطاق الاسفار في البحار ونشر آثار التمدن بين المتوحشين وفي جملتهم اصحاب دولة الرومان وان هولاء لم يزيدوا على اقامة الحروب واضرام الفتن وفتح البلاد واذلال الشعوب طمعًا ورغبة في الملك قلنا

من اصلح الامر هو السيدُ لا يستوي المصلح والمفسدُ

وان اولئك هم الذين ضربت بحكمتهم وعلومهم امثال المتقدمين والمتأخرين وبقيت آثار علمائهم على كرور الايام والاعصار فائدة للمتبصرين وهم اهل الفلسفة غير معارضين ومنشئو الطب غير منازعين ومخترعو فن الروايات غير مسابقين وموجدو صناعة التاريخ غير مسبوقين ومنهم رجال الاهوال وعظماء الابطال واكابر الخطباء واعاظم الحكما وفحول الشعراء وهم الذين رفعوا في الارض الوية التمدن ونكسوا فيه اعلام الجهل وان هؤلاء وان ظهر فيهم الخطباء والعلماء وكثر منهم الامراء والشعراء وبلغوا من التمدن غاية قاصية ووصلوا من العلوم مكانة عالية الا انهم في معظم ذلك مقلدون وفي كثير منه لاهواء النفوس تابعون قلنا

بين المقلد والمقلد نسبة تحكي التي بين التكحل والكحل

نعم ان الرومان قد نشروا انوار العرفان في كثير من جهات الارض وهذبوا الفنون والصناعات والشعر والخطابة احسن تهذيب وان منهم فرجيل المدعي لهوميروس وشيشرون المضارع لدمستين وغيرهما ممن تضن بمثلهم الايام ولكنهم مع ذلك لاحقون لليونان غير سابقين في شيء من تلك المحاسن فالفضل الاكبر لاساتذتهم على كل حال

اما اساليب الحرب واحكام العسكرية المعدودة من بدائع الحرب فلم يكن اليونان من قبلهم ذاهلين عنها على تقدير ان تكون من المنافع الانسانية كيف وفي اليونان امثال القائد ابامينندس الكبير

وجملة القول ان اليونان والرومان من بعدهم امتان تجارتا في مضمار المجد والسؤدد وتبارتا في مجال العز والنجاح وكانت كل منهما مظهرًا للفنون البهية والعلوم السمية والتمدن الانساني حتى امتلأت صحف التواريخ باخبارهما وتزينت بقاع الارض المعروفة بآثارهما وما برحت علماؤهما اساتذة العالم وحكماؤهما ادلا الانسانية اعوامًا تليها اعوام وهم في المنزلة الاولى من الفضل الى هذه الايام غير ان الامة الاولى كانت الى غايات الفضل اسبق وفي نسب المدنية والمعارف اعرق فالقول الحق انها

بالتقديم احق والله اعلم

الحرب

« لفرنسيس مراش الحلبي »

خربت الارض خرابا · وانقلبت الجماعة انقلابا · لان الحرب انتشبت · والفتنة انتصبت · فتباعدت الشعوب · وتنافرت القلوب · وخيم سحاب البغض · واكفهر محيا الارض · حتى اذا ما كثرت مضارب السيوف · وتطنبت مضارب الحتوف جرت الدماء كالجواري وتضوَّرت الناس كالضواري · فهبطت جواشن النظام · وانقلعت شواجن الانضمام · وانثلت عروش الصنائع · وانسدت مسالك البضائع · وسقطت التجارة · وانقطعت الاجارة · وتقوضت البلاد · وانجزر الامداد وذهب الجار يعوث بالجار · والمزار يشط عن المزار · وراح كلٌّ يزيغ في وعث البلى · ويروغ في وعكة القلى · فما هذا الدثار العام · والدمار التام · انما هو الحرب والطعن والضرب · حيثما الفيالق تحمل على الفيالق · والبنادق تسطو على البنادق · والكتائب تتجاذب الكتائب · والركائب تغور على الركائب · والقنابل تصادم القنابل · والذوابل تستميل الذوابل · فتتكسر السنابك على السنابك · وتلتطم المسابك في المسابك · اذ تلعلع المدافع باهوالها · وتهال الارض فتزلزل زلزالها · بينما تنجف القمائم · وتتطاير الجماجم · وتتساقط الهياكل المتحركة · وتنهدم المباني المدركة · يوم يصفرُّ البحر بالامواج · وتلغط الاودية بالرجراج · ويلبس الجو جلباب القتام وتغور السماء في حجاب الظلام · ترقد عيون الدراري · وتدلهم وجوه الثراري فظلمات بعضها فوق بعض · وبلابل تبلبل السماء مع الارض · فما ذاك من شان الصواب · وما هو الا رجسة الخراب · ووقوع العذاب والمصاب · فكيف تنزل البشر منازل البهائم العاربة · ويفعل الانسان فعل الوحوش الضارية · اذ ينثر عقد شمله · ويفرق مجامع جمله · شاهرًا حسام القراع · وساهرًا باعين النزاع · على عزيمة الصراع · ليختلس جيرانه · ويقتبس اقرانه · محرضًا من عدو الطمع الالد · ووساوس الحسد الاشد · يستزيد ذاته بنقص الغير · وينسج خيره بنقض الخير · ولذلك لا يفتر مشتغلاً بتتميم العدد · وتكثير العدد · فسوف ينجم النقصان عن التمام · ويستقر

الوجود من الاعدام · والحسام يبطل الحسام · فالضرب يغلب الضرب · والحرب تقلب الحرب

السلم

« له ايضاً »

ولما وقعت دول الحروب · وسكنت حركات الشعوب · تبسم ثغر السلم عن شنب الهدو · وطافت كؤوس البشرى على الاصال والغدو · واسفرت الارض عن محيا الابتسام · فاغتبطت الناس في بشائر الامن والسلام · حتى اتشحت البوادي بجلابيب التهاني · وامتصت الصوادي انابيب الاماني · وعاد الوري ينضمُّ الى الورى · والقوم يحمدون السرى · وازدهت البلاد · وازدهرت العباد · وتمكنت مباني الاعمال · وتوطدت مغاني الاشغال · وبذخت قصور العمار · واستقرت متون القرار · وانتظمت سلوك الوفاق · وانفصمت عرى الشقاق · فخرس الفمّ الفاغر وانكسر الذراع الكاسر · وانقبر الطبع القاهر · حتى نام الطرف السهود · وطاب الفؤاد المفؤود · ونعم عوف الجبان · وامن خوف الزمان · وفكّ الغنى طلاسم كنوزه · واخذ الذهب ببروزه · فرنت الاغاني في المغاني وغنت الاواني على الاواني · وقلص نهار الافراح ليل الاتراح · واستظهرت الاقلام على الصفاح · فما هذه الحالة الهادية · والعيشة الراضية انما ذلك طلوع السلام · ووقوع الخصام حيثما تنعم الناس · ويتبادلون الايناس آمنين على بيوتهم · وظافرين بقوتهم فيعيشون حسب خوفهم · يموتون حتف انوفهم · فليعش السلم المبتغى وليمت الحرب والوغى

خطبة

في ان الدين مقتضى الحكمة والكفر مقتضى الجهل

« لسعيد افندي الخوري الشرتوني »

القيت سنة ١٨٩١

احمد الله اليكم ايها المائلون الى الصواب حيث كان · المظاهرون للحق كيف

تقلب بكم الزمان · المكرمون للعقل برد ما يرده البرهان · العائفون للنفس ما لا يجمل ذكره بلسان

وبعد فان الضمير يطالبني ان انبه الخواطر اليوم الى مسئلة هي اعظم من ان يستطاع الاغضاء عليها· وربما استراح من اضطجع على الشوك ولا يستريح من يحسن تصورها ألا وهي الوهم القائم في اذهان جماعة من الخواص ان الدين والعقل ضدان لا يجتمعان الا متى اجتمع الليل والنهار · وعدوان لا يتسالمان الا متى تسالم الهر والفار وهو الوهم الذي سطا زمناً على ابي العلاء المعري الضرير فقال

قسم الورى قسمين هذا عاقل لا دين فيه ودين لا عقل له

ويتبع الوهم ذاك ان كل دائن بدين انما هو جاهل بحت لا حظ له من العقل· وان اهل العلم يتظاهرون بالدين بحكم القواسر المعاشية ولولاها لجحدوه وحرروا انفسهم من ظلمه · وان رؤساء الدين المعروفين بالعلم انما يتظاهرون به وليسوا في شيء منه لكن يبعثهم على ذلك حب ان يستمروا سادة الناس وحكامهم واصحاب الكلمة النافذة في ارواحهم · ولولا تلك ما زينوا للناس الاستمساك باصوله والقيام بفروضه حالة كونهم يرونه حبالة من جد وراء التسلط على القلوب · وبعبارة اخرى نحن معاشر اهل الدين في نظر الواهمين عوامنا جهلة كالبهيمة العجماء ورؤساؤنا وعلماؤنا زنادقة ·هذه نتيجة هذا الوهم الذي كان اول قدومه الينا على يد بعض دعاة البدع ثم افشاه عبيد الشهوات الملقبون انفسهم برجال الحرية حتى صار يتكلم به اليوم على وجه المفاخرة بعد اذ كان يستحي من ذكره

وقد اندس هذا الوهم في كثير من الشبان واعظم داس له امران احدهما معاشرة المصابين به المضروبين بقروحه · وهولاء يتذرعون الى القاء بذوره في اذهان الشبان مرة بالقدح في اصول دينية يخرجونه مخرج الهزل الذي يراد به الجد ليجتنوا من روض البديع عذرًا لهم اذا كان ثم من ينكر عليهم كلامهم · ومرة بتزيين الاجابة لدواعي اللذات البدنية لمن اكبر همهم قضاء اوطارهم منها · وكلاهما من اسهل الطرق التي تدب فيها آفات العقائد والفضائل الى القلوب · والثاني مطالعة المكتوبات التي دس فيها من المطاعن والشبه ما يجر الوهن الى عقائد العوام · وذلك لضعفهم عن ردها وبيان وجوه الفساد فيها · والمتعلمون لعهدنا جلهم او كلهم خالو الاذهان من علم العقائد وحكم الشرائع وتواريخ الاديان ومقتضيات العمران حتى

انها لتدخل على اذهانهم الشبه بصور الحقائق المنزلة

واذا علمتم ذلك كان اول واجب علينا نحن المتشرفين بسمة الدين ان ننبري لدفع هذا الوهم . ونلطخ بعار الجهل جباه اهله . ونخلع ثوب الرثاء والزندقة على ذويه فعل من يفتأت عليه وهو حيّ ناطق فاقول ان القائلين بالدين هم اهل الحكمة والعلم والصدق ولامانة . واما الذين قالوا ان الدين ظلم للعقل فهم الجهلة الاغرار الذين تبرّأت منهم الحكمة واليك اثبات ذلك بخمسة مناهج

المنهج الاول — ان عمار الارض من الآدميين لا بد لهم من اختلاط بعضهم ببعض وذلك بحكم الحاجة ولا يتسنى لهم هذا الاختلاط على وجه الراحة والطمأنينة الا متى كان مطالبًا من قبل نفسه ان لا يخون ولا يغدر ولا يمكر . ووقنًا انه ايان غدر او مكر تعس جدُّه في امر اخراه . وصار مغضوبًا عليه عند من لا تخفى عليه خافية ولا يكون الناس في هذه الحال الا وهم على دين يحرم الضرّ ويأمر بالنفع ويثيب على الحسنات ويعاقب على السيئات . وعلى رأي هولاء الواهمين لا يكون للانسان مطالب داخليّ يطالبه بالتزام الصدق والوفاء والمحافظة على حياة القريب فيضطرب المجموع البشريّ وتختل شؤونه . وليس اضطرابه واختلال شؤونه بالامر اليسير . واذا ذكرتم ما نالكم من ايجاس الخوف عند انتشار خبر الوباء منذ قليل علمتم ما يكون عن اضطراب المجتمع الانساني هذا في جانب الناس . واما في جانب الله فهو غضاضة على حكمته والتواء في تدبيره وحاشا له من ذلك . وان قيل ان كثيرًا مرقوا من الدين والاحوال منتظمة قلت ان السائد حتى الساعة انما هو الدين . وبآثاره الحسنة يتمتع بالاطمئنان اولئك الذين كذبوا به وحاولوا استئصاله من قلوب معتقديه . على ان كثرة الكفار قد اوقعت اثرًا غير محمود في الالفة الا وكل يشعر اليوم بان طمأنينة الخلق قد اعتلت بانتشار ما انتشر من مبادىء المعطلة . وعاد الناس في عناء من تفشي الخيانة في المعاملات . الا قولوا لي ناشدتكم الله أمن يتخذ وقاية لحياته واموره هو الجاهل ام من يعرض حياته للقتل وامواله للسلب فلا شك ان الثاني هو الجاهل الاعمى والاول هو الحكيم البصير

المنهج الثاني ان الرسل الذين جولوا الارض ونثروا حب العقائد في الصدور لو كانوا يعرفون ان هذا الدين اكذوبة ما اقتحموا الخروج من مشارب قبائلهم ولا جافوا اذواق اقوامهم . ولا فروا مما كانوا عليه الى الفقر ومناهدة الناس واثارة

سخط الملوك والاقدام على بذل النفوس · ومن البديهي ان الحامل لهم على الخروج عن كل خير دنيوي انما هو حب الحق الذي رأوا ان لا سعادة للانسان في دار البقاء الا باتباع سنته فمن اين يكون هولاء خداعين مكارين · فدعوى الواهمين اذاً لا يليق ان يرتفع لها حجاب السمع · ولا جرم ان قبولها من اشد ما يحتقر به العقل

المنهج الثالث ان التعطيل على تقادم عهده وجدّ ذويه الى ان يقرروا لمبادئه السيادة في الخلق لم يخبرنا تاريخ من التواريخ انه كان في عصر من الاعصار الخطة المتبعة في مملكة من الممالك مع ان الوثنية على علاتها قد سادت ولم تزل حتى اليوم ديانة عدد كبير من الناس · نعم نقل الرواة ان التعطيل كان يستوبئ في بعض الازمنة كما تستوبىء الامراض فيجرف عقائد الذين يأنسون به جرف السيول ثم لا يلبث ان تنكسر عاديته وتخمد ناره · اما الدين فقد ساد من لدن تالفت الجمعية الانسانية الى يومنا هذا ولن يبرح سائداً يدَ الدهر · والحاصل ان حلاوة ثمرة الدين هي التي سودته واعلت في عيون العقلاء مرتبته · ومرارة الكفر هي التي تسببت في ركود ريحه والجأت اهله في كل عصر الى التستر برداء الدين والاستذراء بظل الايمان

المنهج الرابع ان الحرية التي كانت شعار دعاة الدين وزعمائه واتباعه والشجاعة التي اظهروها بين يدي من كان يخيرهم بين القتل والردّة ومجاهرتهم باختيار القتل على الردّة واستحباب الدين مع المذلة والمتربة على الترف وسعة العيش في ظل التعطيل · كل ذلك يثبت للدين اجمل صورة واعلى قيمة عند اولي الالباب · بل كل ذلك جواب مسكت مخجل لمن يرمي عوامنا بالجهل وعلماءنا ورؤساءنا بالرياء قل لي هداك الله هل تجتمع الحرية والرئاء بل هل يأتلف الجود بالنفس في اعزاز الدين مع الزندقة

فيا ليت شعري لو قدر ان ملكاً وثنياً اراد كافراً على الوثنية فقال له انت بين اثنتين اما ان تعبد الوثن وتعيش واما ان لا تعبده وتقتل أكان يمد عنقه للقتل كما فعل آباؤنا الاولون · كلا بل كان يقول آمنت بالوثن وصدقت ويدخل في الوثنية طائعاً · وهو الصواب بحسب قاعدة التعطيل لانه لا يسخط الهاً يعبده ولا يخاف على ثواب يرتجيه ولكنه يصير كاذباً بدعواه انه انما يفعل عن تلقين العقل وانما يجري على حكم البحث فما ثبت به يكون مقبولاً عنده · وقد صح بعد البحث ان عبادة

غير الله مرفوضة بحكم العقل فلماذا خالفها ان كان ينقاد لاحكام العقل . وكفى بهذا للعاقل دليلاً على ثعلبية المعطلة فما من حكيم يخلصهم من التناقض بين دعوى الحرية والتلبس بالدين

المنهج الخامس ان انوار العلم انما بزغت في الغالب من رجال الدين فهم الذين تولوا تعليم الناس وارشادهم وعنهم أُخذت المعارف والعلوم وقد نبغ عالم من المتدينين و بلغوا شأوًا من العلم قصرت عنه جياد الاذهان . وقد تسهل لبعضهم اسباب المروق من الدين فما فعلوا بل ثبتوا وكتبوا ما هو صريح بان الدين هو مصدر المدنية وحياة الانسانية . فلو ان العلم يبطل الدين ما كان روساء الدين يبنون المدارس و ينشرون المعارف ولو ان العلماء الذين ترقت بهم علومهم الى مراتب عالية من الفهم وصفت نفوسهم من اكدار المطامع والشهوات لو انهم يرون الدين اكذوبة لارتدوا عنه وجاهروا بمقاومته . الا وان حالهم حال من ينصف عقله ولا يظلم حسه . فهذه خمسة مناهج كل منها ينتهي بك ان نهجته الى الاقتناع بان الديانة ثمرة الحكمة والكفر ثمرة الجهل والشهوات والمطامع

ثم انكم تعلمون ان في هذا العصر جمعيات كثيرة بعضها مرفوض المبادىء في مذهبنا كما هو معلوم لكل احد وقد صدرت المناشير البابوية بانشاء اخويات ينضم فيها الشبان الكاثوليكيون و يتعاونون على تاييد الفضائل والآداب واحياء مكارم الاخلاق وكل ما هو ضروري لانتظام الجمعية الانسانية وتوثيق دعائم الملك حتى تكون لهم سيرة حسنة تقرب اليهم من كان بعيدًا عنهم ولغاية تهذيب الاخلاق وتصفية النفوس انشئت هذه الاخوية . والامل معقود بانها تصل الى ما تريد من تهذيب السيرة بعناية غبطة السيد السند يوحنا بطرس البطريرك الانطاكي والسيد المفضال المطران يوسف الدبس مطران بيروت وسائر مطارنة الطائفة الاجلاء وكهنتها الفضلاء ووجهائها العقلاء وكل من يعلم ان تحسين الهيئة الاجتماعية تابع لتحسين الاخلاق حتى تكون في جملة مخلصات الحضارة في ديارنا من علل التعطيل والسلام

الاقتصاد

« اميلي افندي اسكندر معلوف »

(مقالة ادرجت في جريدة لبنان الغراء سنة ١٨٩٢)

بين تبذير وبخل رتبة　　وكلا هذين ان زاد قتل

الاقتصاد وما ادراك ما الاقتصاد هو في النفقة التوسط بين الاسراف والتقتير وفي غيرها التوسط بين امرين الافراط والتفريط فيهما مضر للغاية فلذلك لم نرَ لحده احسن من قول ابن الوردي الذي صدرنا مقالتنا هذه به

وقبل ان نطلق عنان القلم في مضمار البحث عن هذا الامر المهم يجب ان ننظر اليه من حيث الانواع فنقول

الاقتصاد انواع عديدة منها الاقتصاد السياسي وهو عبارة عن معرفة الوسائل التي بها تنمو اغراس الثروة في حقول السعة والهناء وتخفيف ما يتهدد الامم من الكوارث

والوقتي وهو ان يوفر الانسان وقته ولا يدع فرصة تمر سدى حتى لا يذهب شيء من عمره طلقاً وقد قال احد الحكماء (الصناعة طويلة والعمر قصير) وقال الشاعر

اذا مر بي يوم ولم اكتسب يداً　　ولم استفد علماً فما ذاك من عمري

وله علاقة ذات شان بالاقتصاد المالي

والكلامي وهو الاقتصار على ما يفيد منه اذا كان الاكثار مضراً كقول الاخر

الصمت زين والسكوت سلامة　　فاذا نطقت فلا تكن مكثارا

ما ان ندمت على سكوتي مرة　　ولقد ندمت على الكلام مرارا

والمالي وهو ما اتخذناه دستوراً الان فنفيض فيه الكلام على قدر الاستطاعة الى غير ذلك مما يكون الافراط فيه او الاقلال منه مجلبة للاضرار على حد قول القائل

فرط التناهي غلط　　خير الامور الوسط

ولنلم الان بذكر القسم الاخير منها وهو ما يحدو بنا داعي الشوق الى توجيه النظر اليه لاهميته

الاقتصاد المالي هو سبب ذو شأن من الاسباب التي تسني للانسان ان يعيش

عيشة معتدلة في الهناء والغبطة . ولطالما شغل عقول كثير من الامم الخالية و يشغل الان وسيشغل فهو والحق يقال الركن الذي تبنى عليه صروح الغنى والاس الذي تشيد عليه ابنية السعة بل الوتد الذي تشد فيه اطناب الراحة فتمتد عليه سرادق النجاح والفلاح كيف لا وهو الاعتدال بين التبذير والبخل وله من الاهمية ما تضيق دون سرده صدور الطروس وتفلل عند رقشه ظبى الاقلام ولكننا نورد الان من فوائده وشلاً من بحر ونسرد عليك من منافعه ثمداً من قطر

بحث الاوربيون في المجهر ليعلموا طبائع ميكروب يتهدد الانسان اي تهديد ويمزق جلابيب غبطته اي ممزق فهو سيل يجرف ركام الثروة الى وهدة تلتهمها وبركان يدك طود السعة لما يشتعل في داخله من نيران الاسراف وينبعث من حمم التبذير فيذيبه ويذهب به كل مذهب بل يفرق اجزاءه طرائق

وبعد التحري وجدوا ان ذلك الميكروب لا يقتله من الادوية الفعالة سوى دواء مهما تجرمت السنون وانفرط عقد الايام اذ ليس لحمارة القيظ والنار من تاثير فيه ولا لسبارة الشتاء والبرد من فعل فهو بالحقيقة العدو الاصفر

وذلك المرض هو عدم الانتظام في امر المعيشة فمن الناس من يبذر ويسرف جزافاً ومنهم من يحرص ويشتد حرصه على غير جدوى وكلا الامرين يؤثران في المجتمع الانساني واشد تاثيرهما في من ابتلي بهما وانقضت عليه صواعقهما وذلك الدواء هو الاقتصاد الذي لا يصلح ذلك الداء الا به ولا يقتل ذلك الميكروب غيره من الادوية الفعالة

فعقدوا لجنات خصوصية تلافياً للامر ولمّاً للشعث فخففوا بعض البلاء اذ اخذوا يعلمون الناس ان ينظروا في دخلهم وخرجهم . ثم عرفوا معدل ما يصرف كل انسان وما اربى عليه مما كان في نيته ان يبذله وراء مطامع لا طائل تحتها يجمعونه في صندوق فلا يمر زمن حتى يصير ذلك النزر القليل وفراً لا سيما والانسان مرهون لاحكام القضاء فقد يلم به مرض يقعده عن اكتساب معيشته فيجد من الاقتصاد سدّاً لعوزه ولعمري انهم اجادوا كل الاجادة بتمهيدهم الطرق لهذا الامر . وقد فتحوا مدارس عديدة لتعليم المرء (قبل ان يدخل في مدرسة العالم الكبرى) كيف يجب ان يتصرف بثروته ان كان متمولاً وبدخله ان كان صانعاً الخ

ومعلوم ما ينفق من التبغ والتنباك في بلادنا مما يذهب جزافاً ولا يجدي نفعاً

وقد قدر بعضهم كما ذكرت النشرة الاسبوعية الغراء ان نحو ثلاثين الفًا من اهل بيروت يشربون الدخان ومعدل ما يشرب احدهم في اليوم مقدار غرشين ونصف وشارب التنبك نحو غرش واحد فالمعدل ١٧ واذا ضرب هذا في ٣٠٠٠٠=٥٢٥٠٠ غرش او نحو ٥٢٥ ليرة في اليوم فتكون قيمة ما ينفق في السنة ٨٢١٢٥ ليرة واذا حسبنا سكان بيروت واحدًا من ٢٥ من سكان كل سورية كان ثمن ما ينفق من الدخان فيها كل سنة ٢٠٥٣١٢٥ ليرة فالسوريون يتلفون من اموالهم بالدخان اكثر مما يتلفه الصينيون بالافيون وقيمة ما يتلفه اولئك كل سنة (٤٠٠٠٠٠٠) ليرة وسكان سورية نحو جزء من مئتي جزء من سكان الصين وقال احد الظرفا عندما وقف على ذلك

ما من هواء اصفر مثل الهواء الاسود

فضلاً عما يستهلك فيها من الاموال الطائلة على المشروبات والتانق وغير ذلك من اسباب الرفاه التي لا داعي لها للاكثرين وانما التشبه والتقليد قد سريا في مفاصلنا كالدم فاستنزفا اموالنا وفتكا باحوالنا

واشد ما تحتاج كل بلاد الى اصلاح هذا الخرق قبل ان يتسع وزيادة للفائدة نضرب لذلك مثلاً بسيطًا فنقول

لو فرضنا ان صانعًا يدخل يوميًا خمسة غروش ويقتضي له من الخرج ثلاثة غروش ينفقها على عياله فاذا لم يتدبر امره اين يذهب الباقي من دخله الذي هو غرشان كل يوم ؟ لا شك انه يصرف ذينك الغرشين على اشياء كان في غنى عنها ومتى تعود على ذلك يصير فيه ملكة يد الدهر ولكن لو وفر ذينك الغرشين لوجدهما بعد سنة سبعمائة غرش ونيفًا وبعد عشر سنين سبعة الاف وتزيد وهكذا فانه لا يشعر بما ينفقه يوميًا من القليل الذي لا يمضي عليه بضع سنوات حتى يصير وفرًا فتامل

هذا واذا انتقدنا الامر بعين بصيرة نجد ان اقل صنعة يتخذها الانسان يقدر ان يدخل منها اضعاف هذه القيمة وباقتصاده بما يربو على خرجه يتمتع بثروة بعد سنين ليست بالنزر القليل

فيا من قد رزق من لدن العناية الالهية سعة العيش واوتمن على جميع المخلوقات فتستخدم بعضها للقيام باعباء اشغالك والبعض الاخر لقوتك . وتزرع الارض

وتشتغل الادوات وتبيع هذا وتشتري ذاك وانت تزرع الفلوات وتضرب في الارض لتحصل على ما يسد رمقك فمعيشتك من وراء المصاعب لماذا تبالغ في الاسراف الذي هو التهلكة بل الصاعقة التي تنقض على معادن ثروتك فتذيبها كذوبان الشمع في النار وتسلبك الراحة وتقتنص جميع مسراتك كما قيل

وقد تهلك الانسان كثرة ماله كما يذبح الطاووس من اجل ريشه

وانت ايها الانسان الآخر لماذا يشتد حرصك على دراهمك فتدفن بعضها في الأرض وتخزن البعض في مخدعك وتعيش بالتقتير ولماذا تتعبد للمال وتترك البخل يملك قيادك ولا تدع بارة تخرج من يدك لنفقتك ونفقة عيالك فتذوق الامرّين جوعاً اما سمعت قول الشاعر

يفني البخيل بجمع المال مدته وللحوادث والايام ما يدعُ
كدودة القز ما تبنيه يهدمها وغيرها بالذي تبنيه ينتفعُ

اما علمت ان خير الامور الوسط وان شدة التقتير كالاسراف والتبذير او ليس يمر لك في بال ذكر الاقتصاد وهو ان تبذل حيث تجد البذل محلاً وتحرص حيث تجد للحرص موضعاً . فبه تعدل ميزانية الامم فكم احيا من رفات . واقام من موات . والرجل الحازم من تدبر امره بإمعان وعرف خرجه ودخله كهذا الشاعر الذي عير على عدم اسرافه فقال

لعمرك ليس امساكي لبخل ولكن لا يفي بالخرج دخلي
وفي طبعي السماحة غير اني على قدر البساط مددت رجلي

قال الاصمعي سمعت بعض العرب يقول « من اقتصد في الغنى والفقر فقد استعد لنوائب الدهر » وقال عبدالله بن جعفر « كمال المرء في خلال ثلاث . معاشرة اهل الرأي والفطنة . ومداراة الناس بالمعاشرة الجميلة . والاقتصاد من غير بخل واسراف » وقال احد الفرنجة : « الناس اثنان مقتصد ومسرف فكل ما تراه من الصروح الشاهقة والسفن الضخمة والمعامل الرحبة شيده المقتصد على عاتق المسرف وتلك شريعة طبيعية فمن يقول لك ان التقدم يتم بالاسراف فهو خداع تماحك فلا ينطلي عليك المحل ولا تركب متن عمياء

والاقتصاد قديم جداً لشدة اضطرار الانسان اليه في معيشته وعلاقته بالعمران ذات شان وعندي انه اهل لان ينخرط في سلك اسباب العمران مما يتوقف

عليه من الفلاح فمن اتقنها ولم ينظر في الاقتصاد و يبل امره تذهب اتعابه ادراج الرياح

وعلى ما يلوح لي ان الانسان قد اخذ يتشبث باهداب برده ايام اضطر الى الدخول في المدنية والحضارة لاحتياجه بذلك الى خرج اكثر مما كان عليه سحابة ايام طوال في البداوة كما يظهر الان من المقابلة بين البدو والحضر فان الاولين مقتصرون على القليل من الملابس والامتعة وعلى النزر من الاطعمة وسواها فتراهم لا يتعاطون امرًا مهمًا للقيام على معيشتهم بل يقومون على رعاية الماشية فيا كلون من لحومها وتلك كافية لمعيشتهم اما الحضر فبخلاف اولئك لانهم يضطرون الى تشييد البيوت وتكثير الرياش وانتظام المعيشة والتانق في الاطعمة والتبرج في الملابس والانخراط في الاجتماعات المدنية والولائم والوضائم وغيرها فكانوا من ثم اشد احتياجًا الى اتقان اخص اسباب العمران من زراعة وصناعة وتجارة فيربحون الدراهم لكنَّ ثم حجر عثرة في سبيل نجاحهم وهو انه كيف يجب ان يتصرفوا بالدراهم اذا عرفوا طرق تحصيلها فهذا السبب الضروري حبة من عقد اسباب العمران فحقها ان تنتظم في سلك اخواتها الا وهي الاقتصاد فما الفائدة اذا اتقنا اخص اسباب العمران واجتنينا الدراهم والثراء ثمرة منه وبذرت بعد مكابدة عرق القربة واراقة دم القلب وعرق الجبين طلقًا الا نمسي بحالة يرثى لها في المجتمع الانساني بعد ذلك التفريط لاننا لم نعلم كيف يجب ان ننفق ما ندخله فهو لعمري من اشد الضروريات للانسان و بدونه يئن تحت نير الفاقة حيث ليس من يعضده و بعد ان كان قد امتطى صهوة السعة والرخاء وارتقى الى ذروة المجد و يفاع الثراء يرجع القهقرى الى حضيض الفقر المدقع وتلك اشأم الاحوال التي تنقض على الانسان كصواعق ماحقة بايام قلائل جميع ما حشدت يداه بعصب الريق وقتل السنين الطوال فيقرع السن ندمًا ولكن لات ساعة مندم

اجل ان الرجل الحازم من ابتلى الامور وسبر غورها بمسبار الحزم والفطنة ووزن دخله وخرجه بقسطاس الاقتصاد بحيث يحفظ منزلته في المجتمع الانساني حتى لا ينشب الجوع فيه مخالبه ولا تعركه الشدة والضيق عرك الرحى بثقالها عاملاً بقول القائل

انفق بمقدار ما استطعت ولا   تسرف وعش عيش مقتصدِ

من كان فيما استفاد مقتصداً   لم يفتقر بعدها الى احدِ

ولا باس ان نلم الان بذكر طرَف من اخبار الكرم والبخل عند العرب

جاء في كتب العرب عن اخبار الكرماء ان يحيى البرمكي كان يقول : اعطِ من الدنيا وهي مقبلة فان ذلك لا ينقصك منها شيئاً واعطِ منها وهي مدبرة فان منعك لا يبقي عليك منها شيئاً فكان الحسن بن سهل يتعجب من ذلك ويقول لله دره ما اطبعه على الكرم واعلمه بالدنيا · ومن ذلك ما قاله احد الشعراء في محمد بن يحيى بن خالد وكان يوصف بالكرم

سالت الندى والجود مالي اراكما   تبدلتما عزّاً بذلٍ مؤبدِ

وما بال ركن المجد امسى مهدماً   فقالا اصبنا بابن يحيى محمدِ

فقلت فهلاً متما بعد موته   وقد كنتما عبديه في كل مشهدِ

فقالا اقمنا كي نعزى بفقدهِ   مسافة يوم ثم نتلوه في غدِ

ولنسرد عليك مثالاً آخر من قولهم عن البخل والبخلاء ما رواه صاحب المستظرف قال :

قال رجل من البخلاء لاولاده اشتروا لي لحماً فاشتروه فامر بطبخه فلما استوى اكله جميعه حتى لم يبقَ في يده الا عظمة وعيون اولاده ترمقه فقال ما اعطي احداً منكم هذه العظمة حتى يحسن وصف اكلها

فقال ولده الاكبر : أمشمشها يا ابتِ وامصها حتى لا ادع للذر فيها مقيلا

قال لست بصاحبها

قال الاوسط : الوكها يا ابتِ والحسها حتى لا يدري احد لعام هي ام لامين

قال لست بصاحبها

فقال الاصغر : يا ابتِ امصها ثم ادقها واسفها سفاً

قال انت صاحبها وهي لك زادك الله معرفة وحزماً

وكان دأب العرب الكرم فلذا كانوا يفتخرون به ويتناشدون الاشعار المؤذنة بذكره وممن اشتهر به من غيرهم البرامكة ولم يزل ذكرهم الى الان فيقال (فلان برمكي) اي انه كريم يبذل الدرهم ولا يبخل به · ومن المشهورين به من العرب حاتم الطائي وله حوادث عديدة تدل على انه كان مطبوعاً على الكرم وقد ضربت بكرمه الامثال فيقال اجود من حاتم وكثير غيرهم لا محل لاستقصاء اخبارهم الان على اننا

اوردنا ذلك وليس من غرضنا تبيانه زيادة للفائدة وذكرى

وهكذا فانهم كانوا يذمون في اشعارهم البخلاء لان الفريق الاكبر منهم كان يحب الكرم ويقال في امثالهم فلان ابخل من مادر وما الطف قول الوراق يهجو بخيلاً

ومبخل بالمال قلت لعله   يندي وظني فيه خاف مخلفُ
جمع الدراهم ليس جمع سلامة   فاجابني لكنه لا يصرفُ

ومن ذلك قول احدهم

لو ان دارك انبتت لك واحتشت   ابرًا يضيق بها فناء المنزلِ
واتاك يوسف يستعيرك ابرةً   ليخيط قدّ قميصه لم تفعلِ

الى غير ذلك مما يذهب الوقت في سرده سدًى وبالقليل غنى عن الكثير

واما الكلام عن الاقتصاد في كتبهم فاليك نبذة منه من وصية ابن طاهر لابنه قال « وعليك بالاقتصاد في الامور كلها فليس شيءٌ ابين نفعًا ولا اخص امنًا ولا اجمع فضلاً منه والقصد داعية الى الرشد والرشد دليل على التوفيق والتوفيق قائد الى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد ... وآثره في دنياك كلها ... فأته واقتدِ به تتم امورك وتزيد مقدرتك وتصلح خاصتك وعامتك » فانظر كم اطنب بفوائد الاقتصاد وشدد على ابنه النكير باتباعه والسير على جادته حتى يامن العثار

والاقتصاد جدير بكل اطراء لما يمهد للانسان من السبل ويحمله على تدبير كل امر والدخول اليه من بابه قال ابو الطيب المتنبي واجاد

فوضع الندى في موضع السيف بالعلى   مضرٌّ كوضع السيف في موضع الندى

فبه يشد ازر السعة ويرتع الانسان في بحابح السرَّاء ويتنزه في رياض اريضة من السعة والرخاء فلا تمس نعماه يد الفاقة ولا يلم به داء الفقر العياء الذي يجلبه التقتير او الاسراف

وقصارى الكلام ان الانسان وجد بعقل كامل وقوًى وحواس ليختبر كل الاشياء فما يحلو بحواسه يقبل عليه وما هو مرٌّ يعرض عنه فكما يمج ذوقه الاشياء الرديئة الطعم وينبو سمعه من الاصوات القوية ولا تقبل معاطسه الروائح المنتنة ولا تستطيع نواظره الاحداق بالاشياء السمجة لخيفة فهكذا يجب ان يتدبر بعقله امري التقتير والاسراف

فما استكره منهما يتجنبه وما حسن يستعمله ليس في النفقة فقط بل في كل ما يجد الافراط فيه او الاقلال منه مضرًّا ورحم الله شاعرنا بقوله

فضول المال ذاهبة جزافًا كماء صب في كاس دهاق

وقوله ايضًا

من عاش بالتقطير من ذوي الغنى فانه افقر من فوق الثرى

ويجدر بنا الآن ان نمسك عنان القلم عند هذا القدر فان الموضوع ذو شان ويد المقدرة قصيرة عن الخوض في عبابه مختتمين بهذه الابيات

توسط بين تبذير وبخل ولا تسرف بما تلقاه نزرا
فان النزر يمسي بعد حين اذا لم يمن بالاسراف وفرا
وان الوفر في الدنيا بخالٍ وتقتير يريك اليسر عسرا
وكن في حالة تزداد فيها لدى الاقوام مرتبة وقدرا
وخير الناس مقتصد لبيب تفرد في المال بحثًا وخبرا
وكن في كل امر ذا اعتدال فربَّ حلاوة توذيك ضرًّا
فما من باخلٍ احياه مال وما من مسرف يعتز دهرا

حياة بلاد

في الكد والاجتهاد

« له ايضاً »

مقالة ادرجت في جريدة لبنان الغراء سنة ١٨٩١

من انعم النظر في احوال العالم منذ ضربت القبة الخضراء · ومشى ادم على بساط الغبراء · مستقريًا العصور الخالية التي مرت على الكون بتلوناتها العديدة مع ما تهدد بني آدم من الكوارث والبوائق واراقة الدماء التي قضت عليهم مرة بالدمار والدثار واخرى بانقلاب حالهم من ترفٍ الى شظف فامات هممهم وسلبتهم رغيد العيش حتى اصبحوا في كل وادٍ من المشقة يهيمون وآونة باقالة عثرتهم واطلاق سراحهم من سجن الفاقة والقنوط الى صرح المجد الرفيع فملكوا ناصية السعادة ودارت

حركة دولاب سعيهم واجتهادهم حتى تدفقت عليهم سيول الثراء من سحاب الكد والجد وامتد حولهم رواق العز فانلعت اعناقهم ملتوية طربًا فاكلوا وشربوا هنيئًا مريئًا رأى الزمان يتعاوره ضدّان رقدة وهبة ويتعاقب عليه شيئان نومة ووثبة الى ما شاء الله

فهذه بلادنا عمومًا مهد البشرية بل مجدها القديم كم انتقلت من حال الى حال وكم تنازعتها عوامل الرفع والخفض في كل اينٍ وآن . كانت ارياف البحر المتوسط يومًا ما آهلة بالفينيقيين الذين اشتهر امرهم اشتهار الشمس في رائعة النهار وبعد صيتهم في الخافقين حتى ترنحت اعطاف تلك العصور لجدهم ومنعتهم وابتسمت ثغور المدن قاطبة لعزتهم وعظمتهم واشارت اليهم الامم والشعوب بالانامل

هذه صور ام المدن الذائعة الصيت في ذلك العهد كانت فرضتهم ومعين غناهم ومحط رحال الامم المتقاطرة من كل فج وصوب لتشدّ اواخي الاخاء معهم رجاء ان يسلبوهم الصنائع العجيبة ويشاطروهم الارباح العظيمة

قيل هم ابتدعوا صنعة الزجاج ولهم فيها القدم القارعة . وصبغ الارجوان الذي عز نظيره بل هم الذين عثروا على خبايا المعادن التي كان من سلف يدوسها بارجله آنًا انين الثكلى من ضيق ذات يده متضاغيًا تضاغي الجياع مما المّ به . ونظرًا لتوسيع نطاق تجارتهم في اقطار المعمور لم يمسكوا عنان عزمهم عند ذلك القدر بل طفقوا يبحثون عن المعادن في غير بلادهم فتغلغلوا في الاقطار وجابوا القفار ومخرت جواريهم المنشآت (السفن) في عباب اليم الزاخر حتى القوا عصا الترحال بين وهادٍ وجبال في محلات عديدة واخذوا يستخرجون من التراب تبرًا . واذ اعدوا ما اعدوه انقلبوا راجعين على الطائر الميمون بغنائم وافرة وآمال زاهرة وهكذا كانوا لا يدخرون وسعًا في التنقيب والتنقير فتستتب لهم الراحة التامة والخير العاجل حتى اذا نزلوا بطون الثرى خلفوا لنا الآثار العجيبة التي بعضها مطويٌّ عن الابصار والبعض منشورٌ للعيان كأنها تقول بلسانهم

تلك آثارنا تدل علينا   فانظروا بعدنا الى الآثار

ثم اذا خطونا خطوة قليلة متحرين البحث عن احوال اخلافهم من بعدهم وجدنا الدهر قد قلب لهم ظهر المجن فولتهم السعادة اذنابها وتبدلت السراء بالضراء والنعمى بالبؤسى وما ذلك الا شاهد عيان على ان

الدهر لا يبقى على حالة لا بد ما يقبل او يدبر

لكن ذلك الانحطاط لم تثبت قدمه طويلاً بل شق العصا فعقبه انتعاش الاروح وحياة التوفيق بالتشمير عن ساعد الجد والاجتهاد والسباق في حلبة النجاح حيث ظهرت النتيجة التي من ورائها جرُّ مغنم للبلاد · ووجدان معين ثروة لا ينضب للفيف العباد

وهكذا تخرمت السنون والاجيال بين عزٍ وذل وغنىً وفقر وضحك وبكاء حتى اوشكنا ان ندخل بقرننا الحاضر الذي يجب ان نرمقه بعين قسطاس الحكمة والسداد نابذين الاغراض وضاربين صفحًا عن الميل الوطني اظهارًا لحقيقة الحال والحق من وراء ذلك

ليس من الحسن ان نقول ان قرننا الحاضر كانت باوائله اسباب العلوم موفورة واثمار المعارف دانية القطوف بل بالعكس (وان كان قد اشتغل بعض افراد بلادنا بالعلم واحرزوا خصل السبق ونبغوا فيه والفوا كتبًا نفائس تشهد لهم بطول الباع وذكاء القريحة وحصافة العقل) ثم من مضي ثلاثين سنة او اكثر اخذ شذا العلم يعطر ارجاء سورية ولبنان حتى اذا قابله اريجها العطر وعرف ازاهيرها الطيب ائتلفا فرتع في رباها ضاربًا اطنابه في كل انحائهما ومن ثم شرعت غراس العلوم تنمو شيئًا فشيئًا

فاطلقت اعنة الاقلام بحلبة المهارق وابتسمت هذه ببكاء تلك وانتشرت اعلام الفنون على كل اكمة ورابية

فدبجت الكتب ببنات افكار ابكار وزفت لكل طالب علم وادب وانتظمت عقود الجمان بقلائد العقيان وازهرت حدائق الفضل فصار الخريف ربيعًا والجديب مريعًا · تلك بشرى الفلاح

فهبت الجرائد من عالم الخفاء الى عالم الوجود ناشرة عاطر الثناء من طي سطورها مبشرة البلاد وهاتفة حي على الفلاح فها قد دفن القنوط وحيي الرجاء

هي التاريخ اليومي العام الذي ينبئك عن احوال قريبك وجارك تحذو حذوه بالتطبع بلين الجانب وحسن الخلال ويرشدك الى ما يجب ان تتشبث باهداب برده من الفوائد الجليلة والاخلاق الجميلة والمساعي الخطيرة والمآثر المبرورة وهي الخطيب المصقع والشاعر المفلق والتاجر المدرب والطبيب النطاسي والسياسي المحنك

والكاتب النحرير والعالم الخطير والاديب الاريب والزارع المتفنن والصانع الحاذق بل هي خادمة الدولة والوطن مخلصة التبعة وصادقة الصبغة وهي الاثر الذي يتركه الخلف ليفتخر به السلف

فالوقت قد حضر والعلم قد انتشر فلنبادر للجد والاجتهاد في سبيل ترقي البلاد ولو كابدنا عرق القربة اما نظرنا ان حياة البلاد في الكد والالفة والسلام . بل في الاعتناء بتحسين اخص اسباب العمران من زراعة وصناعة وتجارة مما يمد جناح السعة والبسطة في المعاش ونحن والحمد لله قد منحنا من القوى العقلية والاستعدادات الادبية ما يمكننا من زيادة تحسين الاحوال لنخلف من بعدنا الآثار التي تذكر فتشكر . وما لبناننا الشيخ المشتعل راسه شيباً الا مربض امن وسلام فقد هرمت السنون ولم يهرم اذ بقي منتصباً ازاء المخاطر التي تهددته على مر الاعوام وكرور الايام ولم يحن لعظائم الاهوال راساً بل دحرها وثبت يقول بلسان حاله

لمع المشيب وبعد عندي صبوة يبلي القميص وفيه عرف المندلِ

هذه لمحة وددنا رقمها ليس على سبيل التنديد بل استنهاضاً لهمم الاهلين وسعيهم وراء ما يعود على الوطن بالثروة والترقي حتى تزداد اشجار الحالة الحاضرة ازهاراً ونماءً فتجلب غيوماً تتدفق على اراضينا بالقناطير المقنطرة من الاصفر الرنان (ومن جد وجد)

العلم والجهل

«فرنسيس مراش الحلبي»

كان العقل مطبوعاً على الاكتساب . وحاوياً ملكة التمييز بين الخطاء والصواب اوعزت اليه دواعي الحركات الذهنية . وبواعث الحيوة البدنية . واللوازم الدينية ان يرتب تصوراته ويهذبها ويحلل دلائلها النطقية ويؤدبها . وان يبحث في الموجودات ويستقصيها فيدنيها اليه او يقصيها . حتى يستخدم ما طاب له وسر . ويطرد ما خبث وضر . فيستعين بالجوامد على حيوياته . وبالماديات على روحياته . وان يعرف الخالق من المخلوق والصانع من المصنوع . والموجد من الموجود . كمعرفة الوالد من المولود . وهكذا فقد نشأ العلم . وقام الفهم . فالعلم ريحانة النفوس .

وروحٌ قدوس . به تنتشر الافكار . وتبصر الابصار . وتكشف الاسرار . وتجلى السرائر . وتبرز الضمائر . وتسمو العنايا . وتصفو النوايا وبحسنه تحسن الصفات وبكماله تكمل الذوات . وهو الكنز الذي لا يفنى . والجمال الذي لا يشنى قوة الكبير . سند الصغير . ذخر الفقير . فمن حازه حاز الجلال ولو كان حقيرًا . والكبر ولو كان صغيرًا . والثروة ولو كان فقيرًا . والعتق ولو كان اسيرًا . والسطوة ولو كان ضعيفًا . واللطف ولو كان كثيفًا . والعز ولو كان ذليلاً والصحة ولو كان عليلاً . والقبول ولو كان رذيلاً والدخول ولو كان دخيلاً . فيه ارتقى الانسان ونجح . وتجلل وفلح . واصبح اعظم الكائنات . واجود الموجودات . والخيرات اتسعت . والاضرار امتنعت . والنفوس غلت . والحياة حلت . والممالك شيدت . والمدائن تسيدت والصنائع عمت . والفلاحة تمت والمتاجر انتشرت . والاخطار اندثرت . والطبيعة خضعت ودنت . والعاصيات طاعت وعنت . والآفات غلبت . والنوائب سلبت . والمعاملات شاعت . والمعامل ذاعت والسياسة صلحت وتجملت . والاحكام عدلت وتكملت . ولم يعد للظلم مدار . ولا للجور جوار . فما العلم الا جمال الانسان . وكمال الاذهان

اما العلم فهو لذة ثابتة للعالم . وتعزية له في الام العوالم . وبينما ذلك فلا يخلو من النكد والنفث في العقد على ان العالم لا يبرح متبلبل البال . قلق الحال . لا يسكت لبه . ولا يسكن قلبه . ولا تهجع افكاره . ولا تصمت اذكاره . فنومه ارق . وتسكينه قلق . وراحته تعب ووصب . وجهاد ونصب . . ومسروره غموم . وضحكه وجوم . فيرى الدنيا مطارح تعاذيب . ومسارح اكاذيب . فاذا اعتبرته لا يعتبرها . واذا عرفته ينكرها . لانه لا يحفل بكل الاشياء . ولا يعبأ بحركات الاحياء . فالمراتب عنده مكارب والمناصب مغاضب . والاموال اثقال . والاحسان قيل وقال

اما الجهل فهو عدم العلم وآفته . وقاعدة التوحش ودعامته . وعلامته ورايته . وما الانسان انسان الا بالعلم . ووحش ضار بالجهل الملم . فالجهل عثرة السائر . ووعكة الحائر . وعماء الناظر . وتيه الضائع . وغرس الناطق وصمم السامع . واينما حل حلت الملائم . ونزلت القبائح وسقط الغار . ونهض العار . وسكتت صوادح الفطن والفكر . ونطقت جوارح العيّ والحصر . ونكس راس المعلوم والمقبول .

وشمخ انف المجهول والمرذول · ووقح الاجدع · وتسلح الاكتع · وسبق ذو القزل · واصاب ذو الشغل · واغتنى اللئيم · وافتقر الكريم · وهار الهدى والصواب ونتأ الخطا والمعاب · وتتوج راس الاسير وتقيدت رجل الامير · على ان الجهل هو مصيبة الجاهل · وعطشه في المناهل · ومع ذلك فلا يبرح الجاهل صاحب الفرح · عدو الترح · ساكن البال · رائق الحال مرتاح اللب · خالي القلب · يبسم مدى الدهر · ويقهقه في كل امر · ولا يعبأ الا بالحال ولا يفكر الا بالمحال · فتراه هائماً بالاموال · وضارباً في وادي الامال · يتوقع المراتب ولو بعدت عنه ويستعطف المناصب ولو نفرت منه · ويستحب الباغض · ويستفتح القابض · وربما تقلد السيف وهو الجبان وطلب الكرامة وهو المهان

الحياة واركانها الاربعة

وهي : العمل والمال والصحبة والامل

« له ايضاً »

الحياة مصدرٌ يشتقُّ منه نظام الاكوان الطبيعية · واصل تنبعث منه حركات الكائنات العضوية · اذ به تحفظ الجامدات نواميسها وشرائعها وتحرس الناميات اشخاصها وطبائعها فهو التثاقل والتبادل للاجرام السماوية · والنمو والتغذية للاكوان الآلية · والحس والانتقال للخلائق الحيوانية · والاشعار والادراك للطبيعة الانسانية · فبالحيوة يدخل المتحرك في العلاقة مع المحيطات الاجنبية · ويستبضعها اغراضه الحيوية · فبقدر الادراك تتسع الشقة · وبمقدار الاشعار تعظم المشقة ولما كان الانسان جامعاً كل الادراك والاشعار · كان اعظم حامل لاثقال تلك الاثار · وهكذا تكون حياته حية عليه · ووجوده عدماً لديه · حتى اذا ما بلغ حد الانصرام · راى ذاته خيالاً مر في ضغث الاحلام · على فراش الاوهام · اما بناء حيوة الانسان · انما يتوقف على اربعة اركان · وهي العمل والمال · والصحبة والامل

العمل

كل يعمل لحث راحلته واكل عمل على شاكلته · فلما انتقل الانسان من

الوحشية الى الانسية . ومن الطبيعية الى الادبية . اثبت له ذلك الانتقال وجوب الاعمال . ونادته الجماعة حيَّ على التعامل . فمن لا يؤثر ان يعمل لا يأكل . فاندفع كلٌ الى الخبط في مهنته . والغوص في حرفته . فذهب يعارك الجامدات كل كثيف . ويباشر الصنائع كل خفيف . ويمارس العلاقات كل عليل منقطع . ويتاجر بالبضائع كل كليل مبتدع ويستقصي الموجودات كل دقيق مخترع . وهكذا قد انخرط الجميع في سلك الارتباط وغرق الكل في لجج الاختباط فكلٌ طائرٌ على اجنحة الطايش . ليقطع آفاق العيش فترى البعض يشكو الكلل والبعض يندب الملل وهذا يتوجع في التعب وذاك يتفجع من الوصب . فاعينٌ تبكي من العسر وافواهٌ تضحك من اليسر . والزارعون يتمحلون بشح الجدب وعليه يأتمرون . او ينتجعون بسح الخصب فيغتبطون به ويتطوبون والصانعون يستنظرون الطلب . فيحمدون الشبع او يذمون السغب والتاجرون يحشرون البضائع ويرقبون الطلائع . ويعومون في السوق . ويغرقون في الصندوق . ويرصدون افلاك الدوائر . ويترصدون طوالع الدفاتر . فكم اخطأت اسنتهم الحفرة . ولم يصب سهمهم الثغرة

الملل

وبينا يكن الانسان لاهياً عن نفسه باعماله ومشتغلاً عن رمسه باشغاله يدهمه شيطان الملل . ويوسوس في صدره عند كل عمل . وربما يغلب عليه هذ الروح . حتى يغدو نديمه في الغبوق وفي الصبوح . وسميره في الهجر والوصال ورفيقه في الحل والترحال . فاينما رحل رمح امامه . وايان حل كان خيامه وحيثما لفت وقف قدامه . وهكذا يكون الملل المًا في الملذات وغماً في المسرات وترحاً في الافراح وفرحاً في الاتراح . فهو حادي الاجل وشادي الوجل . وبين الاعمال . وابو الامال

الامل

واذ يكون الانسان ساقطاً تحت ثقل الملل . وهابطاً في وهدة الوجل . تبسط له الامال يد الخلاص وتلقي له الاوهام حبال المناص . فيضطجع على سرير الاحلام . ويضرب في وادي الاوهام . فيصعد بفكره من غرفةٍ الى غرفة . وينتقل من حرفة الى حرفة . ثم يرتقي من صغرى الى كبرى . ومن نتيجةٍ الى اخرى . حتى يبلغ من

غناء الى غناء · ومن سناء الى سناء · ولم يزل الى ان يرى ذاته مالكاً كل الاشياء · وسلطان كافة الدنيا · وفيما يكون طائر فكره حائماً في تلك الذروه · ومغرداً بهانيك الثروه ينقض عليه باشق البطلان ويرجع به الى حيث كان · فيغيب عنه كل خيال · وينغلق دونه مرمح الامال فكلما ذهب امل · جاء امل · وكلما غنت خيبةٌ رقص وجل · وعز الدهر وجل · وبالامال يعيش الانسان · وبالاوهام تحيي الاذهان ولكل سنٍ مامولات · وعلى كل مامولٍ مقولات · اما الامل فهو تسلية الانسان · وتعزيته في الاحزان والحدثان · وحلاوته عند الزعاق وغناه يوم الاملاق · ويسره في العسر · وكسبه في الخسر · وسميره وانيسه · ونديمه وجليسه · ولا تنفرط سلسلة الامل الا في بيت الازل

الصحبة

لما كان ليس يحسن ان يعيش الانسان وحده اتخذ له امراةً تكون عونه ورفده · فيخدمها في العيال · ويستخدمها في البعال · فالمرأة خير الاصحاب · واطيب الاحباب ولا تطيب الحياة الا بها · ولا يصحب السرور الا باصطحابها · وهي الشريكة في تقويم الحياة الطبيعية · والرفيقة في تثبيت الحياة الابدية · فاذا كانت صالحة كانت فخرة لاهلها · ونعمة لبعلها · واساساً لدارها ومركزاً لمدارها وتهذيباً لذويها · وتأديباً لبنيها وغنىً في الاقلال · وراحة في البلبال وستراً للطالحات · وكنفاً للصالحات · واذا كانت شريرة انما تكون ذلاً لاهلها · ونقمة لرجالها وزلزلة لدارها · وزعزعاً لمدارها وشكاً لذويها · وعثرة لبنيها · وفقراً في الغناء · وغماً في الهناء وفضيحة للمعائب · ونميمة ومثالب · وهذراً ومذر · وغمزاً وشذر · وانتقالا من وحلة الى طمس ومن رذيلة الى دنس · فهي تناجي بارماز الميل وتحاجي بالغاز الليل · حتى اذا ما جاشت فاجهشت · وبشت فهشت · رجعت مخادعة بلحظ يغزل رموزا · ومخادنة بقلب يحيك نشوزا · فمخفوضٌ ينصب شراكاً · ومقصورٌ يمد شباكاً · فتكون شرَّ الاصحاب · واخبث الاحباب الا للباغي والطارق واللاغي والمارق · ومن شأن الانسان الميل الى الاصحاب · والولوع بالاصطحاب ليتأسى في الشدة · ويستأنس في الوحدة · على انه لا يستطيع اللبوث على الانفراد · والقرار في الامور الشداد

فمن الاصحاب الصاحب الوفيّ وهذا يكاد لا يوجد لشدة ندارته فهو الموافي في

الشدائد · والموالي في العوائد · والمقترب من الابتعاد · والمصلح في الفساد · والصافح في الذنوب · والسامح في العيوب · والمسعف لدى الاقتضاء · والمعين في روع القضاء والثابت على كل اضطراب والراسخ في كل انقلاب

ومنهم الصاحب الغرضي وهو من يصحب لغرض متى بطل بطلت صحبته وربما انقلب الى عدو مبين · وداء دفين · فيرتد على صاحبه بالاضرار · وباذاعة الاسرار ليهتك كل ستر مسدول ويمزق كل حجاب مسبول · فيثلب وينم · ويقدح ويذم · حتى يكون فمه مملوءًا مرارةً ولعنة · وقلبه ينقلب على ضغينة ونقمة · فحذار حذار · وبدار بدار

وقد قيل

عدوك من صديقك مستفادٌ فلا تستكثرنَّ من الصحابِ
فانَّ الداء اكثر ما تراهُ يكون من الطعام او الشرابِ

وربما اعقبت الفة زوال اغراض · وقام جوهر عقب اعراض · فيتلو ذلك صحبة جديدة · وتنشا صداقة حميدة الى ان ينقلب القلب العديم الثبات · ويغفل الود الكثير السبات

ومن اصحاب الاغراض يوجد المملق والمداهن · والمطرىء والملاسن · والناصح بالاباطيل · والهادي بالاضاليل والساعي بالخير على قدم الشر والمهم بالنفع على همم الضر ومنهم الصاحب البسيط وهو من لا يفي ولا يخون · ولا يهتك ولا يصون · ولا يحب ولا يبغض ولا يقبل ولا يرفض · فلا يتقاعس ولا يحفل · ولا ينشط ولا يكسل ويتوجه حسب البواعث · ويتحادث طبق الحوادث · فلا تهمه حضرة ولا معاينه · ولا تمضه غيبة ولا مباينه · فهو يصلح للمنادمة والمجالسه والمفاكهة والموانسه · على انه نعمَ نديم مسامر وخير جليس محاضر

فهناك حيوة الانسان · وما فيها من الاركان · هذا عدا ما يتخللها من العاهات والاسقام · والهموم والآلام · على ان الحيوة هي عرضة المصائب والبلايا · وغرض المتاعب والرزايا · حتى يكاد يكون وجود اللذة في عدم الالم · وحصول النعم في زوال النقم · وربما كان اعظم اللذات · طليعة لهجوم الحسرات ونذيرًا يهتف بالمضرات

خطبة

في ممثلي الامم والممالك

« لسعيد افندي الخوري الشرتوني »

(القيت سنة ١٨٩٢)

احمد الله اليكم ايها الممتازون بالانفة في مواقف الحيف والهوان · المتبرمون بسطوة المين والبهتان · ثم اقول قد سبقت لي خطب في مثل هذا المشهد تتنزل من خطبة هذا اليوم منزلة الاساس من البنيان · وها اني موافيكم الساعة بما لم يكن في الحسبان مبرز لاعينكم صورةً يهولكم منظرها · ويروعكم مخبرها · وهي لديكم ومن العجب انكم لا ترونها · تلك صورة آفة هائلة لكنها ما تراءت لامة الا استلت السخائم من صدور آحادها وازالت ما كان من التقاطع والتدابر بين افرادها وبدلت القطعية بالوصال والتخاذل بالتناصر لا تعدو بذلك سنة الشرع ولا تفوت حدود النظام حتى تصورها لسائر الامم صورة الرجل الواحد في الاقبال على ما ينفع والادبار عما يضر والتزام ما يفتح في وجوهها ابواب العلم والثروة ومجافاة ما يدحرها الى مهاوي الجهل والفقر

تلك صورة من يرتدون مجد الامم والممالك وتهمي عليهم غيوث الرزق باسمها ثم يتثاقلون عن تلافي شوونها و يدوَون عند هجوم المخاطر على كرامتها و يسجلون الكلام في حرصهم على حقها وهم يبيعونها بما استحي ان اذكره واخجل ان اعين مقداره فربما كان اقل مما باعت الاسباط به يوسف ذلك الصديق بل اقل مما باع به عيسو بكوريته · مع انهم لو عقلوا ما حجبوا عن مقاماتهم نسمات الشكر ولو فكروا لتبينوا انهم ما ارتفعوا الى مناصب العز والوجاهة الا على مناكب تلك الامم والممالك ولا استقرت لهم قدم فيها الا بنعمة انتمائهم اليها فما كان جائزًا لهم بوجه ما ان ينسوا سبب ارتفاعهم و يذهلوا علة ارتقائهم ولكن من لا يتدبر العواقب تبطره النعمة وتاخذه سكرة العز و يرين على خلائقه الصلف فيعود مثله في تصوراته مثل من تخبط في ظلمة وتورط في حيرة

فمن كان هذا شأنه فقد قاطع الحق · وجافى الشرع · وقلب للانصاف ظهر المجن وتبرأ من قومه بل تبرأ من عقله ونادى لسان حاله بعداوة ملكه وخيانة

مملكته · وصاحت عليه احكام القانون بانه عدو المملكة وخصم الشريعة · الا وان من يتولى النظر في شؤون الناس ينبغي ان يضع نفسه من مقامات الامانة والحزم والعلم حيث وضعه الناس كما ينبغي له ان يلتزم ارادة سلطانه ويتبع في احكامه شريعة مملكته اتباعاً خالصاً عن التمويه والخداع بحيث لا يحكم الا بما تقتضيه شريعة المملكة ليخلص من معاذلة وجدانه ووخزات ضميره وان نكب عن هذه الخطة فقد نكث الذمة وخان عهد المملكة وذلك هو الاثم الذي لا كبيرة وراءه تجاه قوانين الممالك بل تجاه احكام الشريعة الالهية

واذا تقرر ذلك فنقول ان راحة المجتمع الانساني وتقدم العمران معقودان بحافظين احدهما الوازع الباطن وهو الدين والثاني الوازع الظاهر وهو الحكومة · الوازع الباطن فهو سائد على كثير من عباد الله · واليه يستند كل ما نجده من الخير في المعاملات المطلقة من قيود الوثاق والشهود المؤمنة من يخل بها مس صيته عند من يجتهد ان يصور لهم نفسه بصورة الامين · ولكنه قد اعتل في صدور اذا عرضت لهم الشبهة ترددوا · وترحل عن صدور ادعياء العلم الذين لن يوجد ابعد منهم عن الصواب في هذه المسألة وانخضدت شوكته عند من في صدورهم استعداد لقبول العدوى وفي الجملة فقد ابتلينا بضعف سطوته وقعدنا نتململ على نار علته · ولكن صبراً فما نحن بالمنفردين في نقمته · فقد انتشر ضرره في اطراف المعمور فنحن اذاً في زمن احد الوازعين فيه عليل والاخر صحيح

وهذا الوازع الصحيح هو في اصل طبيعته لا يبصر ما يبصر ذاك ولا يتوصل الى ما يتوصل الى معرفته من الحوادث السرية والوقائع الخفية · وشتان ما بين الغائب والشاهد فكيف به وقد صار ملتزماً ان سد مسد اخيه عند من لم يبقَ لهم والعياذ بالله وازع باطن

وانفع علاج لهذا الداء انما هو تسليم امور الامة الى من له علم يهديه ودين يحميه فبالعلم يطلع على الحق وبالدين يرتدع عن الخيانة

واذ قد انجرَّ بي الكلام الى هنا ترتب عليَّ ان اذكر ممثلي الامة بافل ما يكون من الكلام فاقول ممثلو الامة ولا يخفى عليكم هم الذين يتقلدون مناصبها · ويتبوؤن مراكزها ويرجع اليهم في شؤونها · ويطالبون بترويج مصالحها وتعزيز كلمتها ولكن على طريق الشرع ومن وجه النظام · ذلك كفاء ما تلبسهم من شرف المناصب

وتدر عليهم من الوظائف فهم صورة الامة عند الناس · وعنوان حالها في اعينهم · ووكلاء حقوقها وحماة عرضها وشرفها · ومن ثم ينبغي ان ينتقوا من اوسع رجالها علماً وابلغهم حجة وارسخهم امانة ووفاء واشدهم مروءة · واعلاهم همة · واثبتهم جأشاً واقواهم جناناً · وارحبهم صدراً من كل من يخوض الغمرات الى الحق ولا تشرف نفسه على طمع · وقد اتفقت الامم على اشتراط هذه الاوصاف في كل من يقوم ممثلاً لامه في منصب ما · واي امة لا تتبع هذه الخطة في اختيار ممثليها تكون كمن يهدم بيته بيده · و يقوض اركان مجده بسعيه ويجعل حقوقه عرضة للهلاك واذا لم تتوفر هذه الشروط في الرجل فيكون وضعه ممثلاً للامة كوضع المدية الحادة على عنق الحق وابشع احوال الممثل ان يجتمع فيه العلم بالقانون وحيل الشريعة مع عدم الوفاء وضعف الامانة · وقد اجملت ولكم تركت التفصيل ففصلوا ان شئتم والسلام

بعض البلاء ينتهي الى بعض

«لاديب بك اسحق»

(كتبها في مجاعة حلب عام ١٨٨٠)

هو الظلم حتى تمطر السماء بلاء فتنبت الارض عناء فلا تجد على سطحها الا جسوماً ضاوية في ديار خاوية وقلوباً تحترق في بلاد تحت رق

وهو الجهل حتى تضيع الاخطار وتفنى الاقدار وتبطل الهمم وتزول القيم و يعفو العلم ويدرس الفهم ويستعلي الخامل ويستولي الجاهل وتخفض الارؤس وتنقبض الانفس وحتى ترى

بكل ارض في شرقنا امما ترعى بعبد كانها غنمُ
يستخشن الخز حين يلمسه وكاد يبرى بظفره القلم

قف بالربوع الدارسة المعاهد العافية الآثار وانشد هنالك عزماً اضاعه الاهمال ومجداً اخفاه الخمول الا بقية آثار في المعالم كبقايا الوشم في المعاصم وابك العز وبنيه والفضل وذويه حتى ينبت الآس على القبور وحتى تسمع اصواتهم من وراء حجب العصور بل دع النشد والبكاء في هاته الخطوب الفادحة فلا نفع للثكلى بنوح النائحة واقصد بنا مرابع النعمة ومصانع الرحمة نسأل فيها الاعانة والاحسان لأسد عضها كلبُ

الجوع وارام وقعت في حبائل الفاقة واطفال يتلقون دموع المراضع يحسبونها الباناً فقد الف الغرب الاحسان وتعود اعانة الانسان

واتلُ على كرامه ما جاءنا من خبر المجاعة في حلب وما بين النهرين فقد بلغت الحاجة من اهل الشهباء ان النساء هتكن الستور وخرجنَ من وراء الخدور وطفن بالقلعة صائحات معولات مولولات يلتمسن القوت لرجال اضواهم الجوع فلزموا البيوت فخرج الوالي اليهنّ بوعود لا تغني عن الجائع ولا تدفع آلامه فرجعن عنه آيسات وطفن بالاسواق يبعثن الرجال على الفتنة قنوطاً من زوال المحنة فانقض هولاء على الافران يلتهمون الخبز لا ينتهبونه

اما ديار بكر وماردين وسائر ما بين النهرين من المدن القديمة الشان فلم تقف بها الشدة عند هذا الحد بل اتصل الموات باطرافها على مثل ما سمعناه منذ عامين من اخبار المجاعة في بعض الهند واميركا حتى اكلت اطراف الغصون واصول الاشجار

فعسى ان يكون لصوتنا الضعيف صدًى تردده الصحف الوضاء في هاته العاصمة الزاهرة فيقبل اهلها على مساعدة المصابين ولا يضيع الله اجر المحسنين

« وقد ترجم هذا الفصل عامئذٍ ليثبت في بعض جرائد باريس على رجاء ان »
« تفتح الاكتتاب للاعانة على ما تعودته في مثل هذه الحال »

تأمل

« له ايضاً »

بلادنا احسن البقاع تربة وهواء واصفاها سماء وماء واوسعها مرتعاً وفناء . كانت فيما سلف تقل الملايين من ذوي النعمة والرفاهية يستخرجون منها ما يحتاجون اليه ويفضل عنهم ما يتجرون به وذلك مع توالي الحروب وتواتر ... يات واستمرار المنافسة بين الامراء والدول

ونحن ذوو ابدان شهدت بقوتها حوادث الايام واهل صبر دل عليه ثباتنا في المتاعب وارباب اقدام اقر به الاعداء وحنفاء قناعة اثبتها الجور والفقر . كنا اهل السطوة غير معارضين وارباب الثروة غير منافسين تزين بضائعنا الامصار وتعمر

صنائعنا الاقطار وتنير معارفنا الافكار

فما اتلك البلاد التي وسعت الوف الالوف تضيق عن المئين وكيف صارت قوة اهلها ضعفاً ومتخ مجدهم ذلة وخسفاً

هل انقلبت الارض ام غضبت عليها السماء ام فسدت القلوب ام عميت الابصار ام هذه سنة الزمان في ابنائه ..

كلا . ولا عتب على الزمان فهو النهار تضيء شمسه والليل يطلع بدره والربيع يزين الارض بازهاره والشتاء يروي المزارع بامطاره ولكن هي البصائر غشيها وهم الكمال في العادات ودعوى العصمة في التقليد فاحتجبت عنها حركة الخواطر في بلاد الغرب فسار الناس ونحن واقفون وحركتهم عوامل الغيرة وضمائرنا مبنية على السكون

فمن لنا بذي غيرة تهتك سجوف الاوهام عن البصائر ويجلو حقائق الامور للابصار فترى نفعنا في اعتقاد الكمال وخطأنا في ادعاء العصمة فننبذ ما جناه علينا السلف من اسباب التيه والصلف ونتقرب للنعمة بوسائل الاجتهاد فان قصر العمر عن الوصول الى غاية النعمة ودرجة الهناء فلا اقل من ان يموت الشرقي عن سعي يشكر واثر يذكر

فمن عاش في ذل فذلك ميتٌ ومن مات عن فضل فذلك خالدُ
ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الاسباب والموت واحدُ

فذلكة

قائد الغفلة الامل والهوى قائد الذلل
قتلَ الجهل اهله ونجا كل من عقل
فعلى مَ الوقوف في ساحة العجز والكسل

القمر

نقلاً عن مجلة البيان لمنشئيها الشيخ ابرهيم اليازجي
والدكتور بشاره زلزل

هو بعد الشمس ابهى الاجرام السماوية على العموم . ونكتة الفلك الارضي

بل اغرب ما يرى الناظر في تمام النجوم · اذا استقل في فلكه يسبح فوق الوهاد والآكام · ورأيته يتراجع مع النجم وهو مجدٌّ في وجهته الى الامام · فتخطى الابراج وكأنه واقف لا يحس به الناظرون انتقالا · وظهر باشكاله من الهلال الى البدر حتى يعود هلالا · فكان قيد الابصار تراه ابداً جديدا على تقادم عهده · وتتوهمه على قيد اميال منها وهو الشاسع في بعده · على انه ادنى العوالم من الارض مقيلا واعلقهنّ بها حبلا واقربهنّ تمثيلا · فهو صورة الارض في السماء · ورفيق طيتها الى حيثُ لا تدري في احواز الفضاء وشريك بختها فيما أُرصد لها من احكام القضاء · بل هو وليدها وان مضى قبلها شبابه وشابت دونها اترابه وقد دفعته عنها منذ فصاله فر الى حيث لا مطمع في ايابه · ثم عز عليها الا ان يكون بحيالها فاخذت عليه طريق انسيابه · فهو ابداً يدور من حولها مقطع النياط · ويقطع معها اضعاف ما تقطع من الاشواط

***

بل هو مثال الرونق والجمال · وآية الابهة والجلال · اذا برز من الافق فانهزمت من وجهه جيوش الظلماء · وانفرجت الكواكب لمره في عرض السماء · فاقبل يتنقل بينها وهو يسير الهوينى عزة وخيلاء · فسمت اليه الابصار اعجاباً واكبارا وانصرفت اليه الوجوه ابتهاجا واستبشارا وارسلت له النفوس نشاطاً وارتياحا · واتسعت به الصدور انبساطاً وانشراحا وخلا اليه العاشق يتذكر وجه حبيبه ولها به المحزون فسلا من حميمه ونسيبه واوى الى المهد فكان سميره في مهده واتخذه المسافر رفيقاً فذهل به عن مخاوف سفره ومشقة جهده وجلس اليه الشرب يتعاطون مثل الشمس في مثله وتساير نازئه المتعاشقان يستبصران نوره ويستتران بظله وقد تخالل شعاعه نسج النسيم · حتى اتحدا اتحاد الماء بسلافة النديم فكان الطف ما مر ببصر في الين ما التحف بشر · [illegible] هدان ليال [illegible] صفو الاوقات · وانه الجالي لاكدار النهار كما تجلى به كدورة الظلمات

***

لا بل هو محدث الوحشة ومحزن الاشجان ومثير هواجس الصدر وبلابل الجنان · اذا طلع في ليله وقد سكتت الاصوات وسكنت الحركات ولم يبقَ الا

تموج الهواء باختلاج الانفاس الصوامت وحفيف النسائم بين ورق الشجر المتخافت ويرسل نوره الضعيف سابحًا في اثناء الفضاء مترقرقًا على وجه الغبراء : تظهر من تحته الوهاد المنبسطة في العراء والاكم الشاخصة في الهواء . لا يمشي فيها حيوان . ولا تسمع نأمة انسان فوقف المتأمل امام مشهد ذلك الجمود . وقد ملكت عليه مشاعره حتى توهم نفسه بمعزل عن الوجود تتخيل ما حوله من الارض مجاهل خالية او اطلالاً بالية بل تخيل الارض كأنها يوم خلقت فهي ادغال وتنائف . وتصور نفسه آدمها وقد وقف فيها بين الدهش والخوف فخيمت فوقه وحشة العزلة واحاطت بنفسه هيبة الوحدة وانبعثت الشجان في صدره فتفرع لمناجاتها . وهاجت الذكر في نفسه فغاص بين تياراتها وتواردت عليه من الخواطر ما حبب اليه اللحاق بعالم الفناء . ثم استهواه ما يرى من جمال الطبيعة فثابت اليه الرغبة في البقاء . فتمنى لو اتخذ سبباً الى هذا العلم الماثل فوق راسه او تعلق بما تدلى اليه من اشعة نبراسه فربما تخيل ان هنالك حدائق غناء ومدائن عامرة وقصوراً شاهقة وانهاراً دافقة . واقواماً يمرحون في نعيم ويرتعون في خصب مقيم . وما ثمت لو يعلم الا كون جامد . وقفر هامد . وسكون مؤبد وخطط خلق بامد لا يخطو هنالك غادٍ ولا رائح . ولا يسمع صوت نغمٍ ولا صادح ولا يسبح طائرٌ في السماء . ولا يدبّ حيوانٌ على الثرى ولا يخضر وادٍ ولا اكمة ولا تسحب اذيالها نسمة ولا ينتشر سحابٌ ولا ضباب . ولا يترقرق ماءٌ ولا سراب ولكنّ جملة ما هنالك طللٌ داثر وعالمٌ من عوالم الدهر بل جزءةٌ يدور بها حول الارض وان لم تحملها المناكب وقد صلت عليها الدهور . فترحمت عليها الكواكب

***

لا بل هو خليفة الشمس ومصباح الظلم ومقياس الازمان وموقت الامم . عنه اخذ حساب الاسابيع والشهور . وبحركته حددت الآجال والتواريخ من اقدم الدهور فكان المرجع الذي يرجع اليه في المعاملات والامام الذي ينزل على حكمه في توقيت الحوادث بل طالما عبده المتقدمون لانهم راوا في فعله ما يشبه افعال العاقل وانه في صورته يقرب من هيئة الناطق وشاهدوا من بقائه ما نزله عندهم منزلة الحاكم له الحكم في السعادة والشقاء . والاعتلال والشفاء . وصلاح الغرس والزرع وصحة الجنى والقطع وعلى الجملة فقد كان الحاكم في الاحوال والاعمال

والمستشار في العزائم والآمال · بما يبدو عليه من نقص او تمام او يتفق له من اقتران بغيره من الاجرام مع اعتبار ما يقع ذلك فيه من الايام[1] شؤون ساق اليها ضعف الاحلام · واستيلاء الاوهام · والله وراء ما يفعلون وهو العزيز العلام

***

لا جرم ان اول ما يبدو للناظر من مرأى القمر وهو في اوان البدر وما حواليه انه يراه على خلقة وجه الانسان فيه العينان والحاجبان والانف والفم وذلك بما يتخلل سطحه من نحو اي السواد المنتشر على وجهه بحيث يتبادر منه الى الخيال هذه الهيئة الغريبة فهو في ذلك على حد ما يتخيل احيانًا في قطع الغيم المتراكمة من هيئات الاناسي والدواب وغيرها بما يعرض لها من اختلاف الاشكال وما يتخللها من الظلال في جنب ما يقع عليها من ضوء الشمس · وهذا المنظر في القمر يستمر من لدن طلوعه من المشرق حتى يبلغ الزوال فاذا مال بعد ذلك وانقلب الى جهة المغرب تبدل منظره واستحال الى صورة رجل جاثم على ساقيه وقد مد ذراعيه الى الامام كانه يدافع بهما الا ان كل ذلك انما يكون في نظر العين المجردة فاذا نظر اليه ولو بمنظار ضعيف انتسخ ذلك بجملته ولم يبق له اثر

ثم ان هذا المحو كما كان سبب تضليل للامم الاولى ومن بقي على شاكلتها ليومنا هذا من العامة فقد كان محل حيرة للعلماء واهل البحث منهم وقد اختلفوا في امره اختلافًا بعيدًا وافترقوا في ماهيته على مذاهب نورد بعضها تفكهة للقراء · فمنهم من ذهب الى ان ذلك ناشيء عن شكل القمر وخلقته اذ هو مخلوق على هيئة وجه الانسان على نحو ما تقوله العامة فهو عند هؤلاء القائلين تمثال راس ضخم بمنزلة راس ابي الهول مثلاً · وزعم آخرون انه شبح ما ينطبع فيه من السفليات من الجبال والبحار يعنون ما في الارض من ذلك وهذا مبني على ان القمر جرم صقيل كالمرآة بدليل عكسه لضوء الشمس على ما سيمر بك من مذهبهم · وقال غيرهم انه السواد الكائن في الوجه الآخر منه اي النصف المظلم الذي لا يقع عليه ضوء الشمس وهو

---

(١) كان يوم القمر عندهم يوم الاثنين ولا تزال تدل على ذلك تسميته عند اكثر الامم الافرنجية واذا اتفق ان يكون القمر في ذلك اليوم بدرًا ففيه تمام السعادة · وكثير مما ذكر من هذه العقائد باق الى الآن ومنها هذا ولا سيما عند اهل الفلاحة

قول من يزعم ان الكواكب اجسامٌ شفافة . وهناك مذاهب اخرى لا تقلّ غرابةً عن هذه كانوا يقولون فيها بالحدس و يبنونها على قواعد فلسفة ذلك العصر مما لا محل للافاضة فيه في هذا الموضع . والصحيح وهو الذي يشاهد بالآلات المعظمة ان بعضه لون الظلّ الذي تلقيه جباله على وهاده و بسائطه واكثر ما يكون ذلك وهو في احد التربيعين وما اليهما لوقوع شعاع للشمس عليه حينئذٍ منحرفًا والبعض الاخر لون صحاريه وما يتخلل جبالهُ من الاتربة والرمال و بقايا الخلق الداثر . واما في اوان البدر الذي يكون فيه صفحه المواجه لنا مقابلاً للشمس وحين يكون ظل جباله محجوبًا عنا بقمم تلك الجبال انفسها فلا كلام في انه لون تلك الاتربة

اما شكل القمر فالظاهر لنا انه كرويٌّ على الجملة الا ان الذي يستقبلنا منه انما هو احد صفحيه دون الآخر اذ هو يوجه الى الارض جهةً واحدة ابدًا كما يظهر ذلك بمراقبة محوه وتتبعه من اول الشهر الى آخره واما الجهة الاخرى فلا يكاد يرى منها الشيء النزر من اطرافها لاسباب ليس هذا موضع بيانها ولذلك لا يعلم شكله من تلك الناحية وبالتالي لا يعلم قطره المسامت لخط النظر * قالوا وعلة ذلك قوة جذب الارض له وممانعتها اياه من الدوران على نفسه الا في القدر الذي يدور به احد وجهيه حول الارض فتكون له حول نفسه دورةٌ اضافية يتمها مرة في الشهر عند تمام دورته حول الارض على انه قد رُؤِي احد اقمار المشتري وهو اقربها منه مستطيلاً من القطر القائم على السيار فهو اشبه بهيئة البيضة وهو ايضًا لا يوجه الى السيار الا وجهًا واحدًا فغير بعيدٍ ان يكون قمرنا كذلك ويكون ما ذكر هو العلة في وحدة اتجاهه الى الارض

ولما كان القمر يدور حول الارض و يدور معها حول الشمس لزم بالضرورة ان يكون القمر تارةً بيننا و بين الشمس وهو اوان المحاق فلا تتأتى لنا فيه رؤيته اذ يكون الوجه المستنير منه الى الشمس والوجه المظلم الى الارض وتكون الارض تارةً بينه و بين الشمس وهو اوان البدر وحينئذٍ نرى كل سطحه المستنير لوقوعه في استقبال الشمس . وتارةً تكون الارض والقمر متحاذيين على بعدٍ واحد من الشمس وهو اوان التربيع فنرى نصف السطح الموجه منه الينا لوقوع النصف الاخر في جهة الفضاء وكما اننا نرى القمر متشكلاً بهذه الاشكال فلو وقف ناظر على سطح القمر المواجه لنا راى الارض كذلك اي يراها بدرًا عند ما يكون القمر في

المحاق ويراها في المحاق عند ما يكون هو بدرًا واما في التربيع فالمنظر بينهما واحد حتى يجاوزاهُ فيعود الى الاختلاف شيئًا فشيئًا الى ان يصير احدهما بدرا والآخر في المحاق

ومما يستملح ايراده هنا ما جاء في كتاب الكشكول للامام بهاء الدين العاملي من اهل القرن العاشر للهجرة (٩٥٣—١٠٠٣) فانه وصف منظر الارض من القمر بما لا يقصر عن وصف اعظم علماء هذا العصر قال

«كما ان جرم القمر يقبل ضوء الشمس لكثافته وينعكس عنه لصقالته كذلك الارض تقبل ضوءها لكثافتها وينعكس عنها لصقالتها لاحاطة الماء باكثرها وصيرورته معها ككرةٍ واحدة · فاذن لو فرض شخص على القمر تكون الارض بالقياس اليه كالقمر بالنسبة الينا وبحركة القمر حول الارض يخيل اليه انها متحركة حوله ويشاهد الاشكال الهلالية والبدرية وغيرها في مدة شهر لكن اذا كان لنا بدر كان له محاق واذا كان لنا خسوف كان له كسوف لوقوع اشعة بصره داخل مخروط ظل الارض ومنعه اياها من وقوعها على المستنير من الارض والماء بالشمس (كذا والصواب من وقوعها على الشمس) واذا كان لنا كسوف كان له خسوف لوقوع اشعة بصره داخل مخروط القمر ومنعه اياها ان تقع على الارض الا ان خسوفه لا يكون ذا مكث يعتد به لكونه بقدر مكث الكسوف ويكون كسوفه مكث كثير لكونه بقدر مكث الخسوف · لان بعض وجه الارض يابس فلا ينعكس عنه النور بالتساوي فكما يرى على وجه القمر المحو يرى على وجه الارض ... · وهذا الفرض وان كان محالاً لكن تصور بعض هذه الاوضاع بعين الفكر ... تخيل اي وضع اراده بسهولة » اه

وهو كلام في غاية الحسن وقد اصاب في اكثره شاكلة الصواب الا انه جعل علة انعكاس النور على الارض كون اكثرها محاطًا بالماء وهو خلاف الواقع لان شطرًا من النور بل معظم اشعته ينفذ الماء ويتكسر فيه فلا ينعكس الا اقله وبخلافه الارض فانه لا يغيب فيها من النور الا الشيء الذي لا يعتد به وباقيه ينعكس بجملته · ولا اثر للصقالة هنا اذ هي انما تعتبر في عكس النور عن السطح المستوي كما في المرآة ووجه الكاس والبركة مثلاً حيث لا يظهر للماء تحدب محسوس فتنعكس الاشعة كلها الى جهة واحدة وذلك بشرط موافقة خط انعكاسها لاتجاه خط البصر

واما السطوح الكروية فانما يرى النور المنعكس عنها من نقطة واحدة وهي التي يوافق انعكاسه عنها جهة البصر كما ترى في الكرات العاجية والزجاجية وغيرها وباقيها تنعكس الاشعة الواقعة عليه الى غير تلك الجهة فلا يرى منها شيء . ومن هنا يعلم ان الانعكاس عن الارض يكون اشد واكثر لانها لتضارسها تعكس الاشعة عن كل قمة وحيد مما لا بد ان يوافق الكثير منه خط البصر كيف اتفق وضعه بالقياس الى الشمس والى الناظر . وقد ثبت ذلك بمراقبة القمر نفسه في مروره على البر والبحر واختلاف ما يرى عليه من النور المنعكس عنهما حتى يروى ان كستلي وهو تخريج غاليلاي المشهور استدل بذلك على وجود قارة اوستراليا قبل كشفها . وذلك انه راقب الهلال عند عبوره فوق المحيط الجنوبي فوجده كلما انتهى في فلكه الى الموضع المسامت لهذه القارة يقوى النور الضعيف الذي على سائر جرمه المظلم وهو النور المنعكس اليه عن الارض على ما سنذكره قريباً فتبين من ذلك ان هنالك ارضاً واسعة اذا قابلها اشتد انعكاس النور عنها اليه بخلاف ما يكون عليه وهو مواجه لغير ذلك الموضع من البحر

ثم انه يفرض ان الواقف على القمر يرى الارض تدور حوله يعني مرةً في الشهر وقد يتبادر من هذا الفرض ان ذلك على حد ما نرى نحن الشمس تدور حولنا وهو غير مراده قطعاً لانه جعل ذلك مسبباً عن حركة القمر حول الارض ونحن انما نرى الشمس والنجوم تدور حولنا بدوران الارض على محورها لا بدورانها حول الشمس فالاظهر ان لهذا الفرض وجهاً اخر وهو انه يقدر ان القمر يدور حول الارض واقطاره الاستوائية موازية لنفسها بمعنى انه لا يتحرك على محوره البتة فهو يستقبل الارض بجميع اجزاء سطحه على الولاء ولذلك يخيل الى الواقف عليه ان الارض تتحرك حوله . وهذا ايضاً ليس بصحيح لما ابنا من ان القمر يولي الارض وجهاً واحداً ابداً فالذي يلزم من هذا ان الواقف على نقطة منه حيثما راى الارض من تلك النقطة سواء كانت على الافق او في السمت او ما بينهما لا يتغير عليه موضعها ولا يراها تنتقل منه الا بمقدار ما يترجح في فلكه على ما سبقت الاشارة اليه وهي حركة ضعيفة لا يكاد ينتبه لها ولا تتم الا في الزمن الطويل

بقي ان قطر الارض يكون نحو اربعة اضعاف قطر القمر فهي ترى من القمر

اعظم مما نرى القمر بما يزيد على ثلاث عشرة مرة فيكون منظرها منه ابهى من منظره من الارض بما لا يقاس والنور المنعكس عنها اليه على ما يقرب من تلك النسبة حتى اننا نشاهده من هنا على المكان المظلم منه واضحاً وذلك في وقت الهلال وابين ما يكون بين الليلة الثالثة والسادسة منه حين يرتفع القمر عن الشفق وقبل ان يعظم القسم المستنير منه بحيث يكسف رؤية النور المنعكس عليه من الارض وهذا ما يسميه علماء الافرنج بالنور الرمادي لمشابهته لون الرماد فانك اذا تاملته رأيته يتم دائرة القمر واذا وجهت اليه المرقب امكنك ان ترى ما فيه من المحو الذي تراه بعد ذلك تحت ضوء الشمس . واذا اردت ان تستوضح النور الرمادي وترى القمر معه بصورته البدرية فقف بحيث يحتجب عنك القسم المستنير من الهلال وراء طرف جدار ونحوه و يبقى القسم المستنير بنور الارض وحده فانك تراه في تمام الوضوح ما يكسفه من حاجب الهلال

وهنا مسئلة نختم بها هذا الفصل للتفكهة وهي ان الناس يختلفون كثيرًا في تقدير دائرة القمر فمنهم من يتوهمه بمقدار الصحن الذي لا يزيد قطره على عشر المتر ومنهم من يتوهمه بمقدار الطبق الذي قطره نحو نصف متر ومنهم بين ذلك وهي مسئلة كثيرًا ما يتحاور فيها حتى لا نكاد ترى اثنين يتفقان على قياس واحد . ولعل فصل الخطاب في ذلك ان تؤخذ قطعة ورق او نحوه ويثقب فيها ثقب مربع كل من اضلاعه نحو نصف سنتيمتر ثم تثقب من موضع اخر و يدخل في الثقب طرف عصاً بحيث تجري الورقة على العصا و بعد ذلك يوضع احد طرفي العصا عند موق العين و ينظر الى القمر من الثقب المربع وتدنى الورقة وتبعد حتى تماس دائرة القمر اربع اضلاع الثقب فاذا انضبط ذلك يؤخذ صحن او شيء اخر مستدير و ينظر اليه من الثقب المربع على نحو ما نظر الى القمر فيدنو الناظر منه او يبعد عنه حتى يتماس محيطه واضلاع الثقب فتكون دائرة القمر بقطر ذلك الصحن على البعد الذي رؤي عليه والله اعلم

جمل ادبية

« لاحمد افندي فارس صاحب الجوائب »

من الناس من يتعلم العلم لينفع به نفسه وغيره فتراه ابدًا حريصًا على جمع

فوائده وايضاح منهجه وتسهيل وعره فاجل امنية عنده ان يفهم القول كما عناه قائله وان يفيده غيره كما فهمه فمثله كمثل الكريم الذي يستفيد و يفيد وفي الحقيقة فان الكرم كما يكون في افادة المال كذلك يكون في افادة العلم فالكريم من العلماء يفرح لسؤال الطالب ولا يمل من السائلين واذا اجاب عن شيء او الف شيئًا جعل اقصى همه وعنايته في توضيح عبارته وتصريحها حتى لا تكون مظنة للتاويل والقال والقيل فهؤلاء الذين ينفع الله تعالى الناس بعلمهم وعملهم وهؤلاء الذين بعد وفاتهم يتخرج عليهم كثيرون من الطلبة كما كانوا في حال حياتهم فلا يزال كلامهم نورًا يضيء على الناس ولا تزال بركة مساعيهم ومقاصدهم نامية الغراس ومنهم من يتعلم العلم لينفع به نفسه دون غيره الا ان ذلك النفع الذي استاثر به يعود بالضرر عليه كمن يتعلم الفقه مثلاً ليصير به عونًا لواحد على اخر فيبذل جهده والحالة هذه في ان يصير الحق باطلاً والباطل حقًا وما ذلك الا ليكسب بعض دراهم ينفقها في رياشه واثاثه اذ يزعم ان الاكثار من الرياش والاثاث يكسبه المهابة في عيون الناس فاذا قصده غريم مثلاً ورآه على هيئة الغنى عظم في عينيه واجزل له العطاء لان الناس في الغالب يراعون الظاهر دون الباطن فيكون قد اتخذ العلم سببًا للاكثار والتشبع والاكثار والتشبع سببًا للجشع فيضل عن طريق العلم ويتيه في مهامه التكسب والاستغناء واذا ساله احد الطلبة عن شيء تعاظم عليه وازدرى بسؤاله واخذ يشكو من قلة فهم الطلبة في القاء السؤال وتلقي الجواب فاذا اجاب عن شيء لبس في القول ووارب حتى يزيد السائل حيرة وارتباكًا فاذا انصرف السائل من عنده على هذا الوجه قال انه لم يبق من اهل عصره من يفهم كلامه بل العلماء ايضًا تقصر عن ادراك معانيه وتلك مزية فضله الله تعالى بها على جميع الناس اذ جعل اقواله اعلى من اذهانهم وليست عبارته فيما يكتب باقل ابهامًا وتلبيسًا مما يقول وهو داء فاش في كثير من المصنفين الذين يقصدون من التصنيف اظهار علمهم ودقة افكارهم وتصوراتهم لا افادة الطلبة واذا مدح بحضرته احد على علمه وفضيلته امتعص وامتعض فلا يريد ان يكون احد من الخلق شريكًا له في العلم بل يمتعض ايضًا من مدح غيره على علم شيء من اللغات الاجنبية فاذا قيل له ان فلانًا على امامته بالعربية يعرف اليونانية قال وانا ايضًا اعرفها تيكاني ايلادو قالون واذا قيل له فلان يعرف الفارسية قال دوست برادر خوش الا ان الله تبارك وتعالى قد فضلني منذ

الصبي على اهل العصا فكنت اقرئ الناس وانا ابن خمس عشرة سنة وصرت احكم وافتي وانا ابن عشرين سنة فدانت لي الامراء واقبلت عليّ العلماء فما منهم الا من اخذ عني او استملاني او استجازني او سألني فشرحت وامليت واجزت واجبت وبكل احسنت واصبت ومع ذلك فاني غير معجب بنفسي ولا شامخ بانفي كما يفعله كثير من العلماء الا ترى اني لا استنكف من مجالسة الناس ولا آنف من ان اصحح لهم كتبهم اي كتب كانت وما ذلك الا عن كرم وحب للخير فاني مجبول عليهما اذ لو كنت ممن يطلبون الغنى لملكت الدنيا بحذافيرها و يا طالما انفقت وجمعت وفرقت واقتنيت وبذلت وادخرت وافضلت ولست ممن يحرص على قطع ارزاق الناس واظهار معائبهم وانما حبب الي الحق ونفع الناس وذلك يضطرني الى ان اقول ان فلانًا مراءٍ في الدين فيجب قطع معاشه وان فلانًا غير جدير بوظيفته فيجب عزله وان فلانًا اعترض عليّ في امر كنت فيه على الحق وكان هو على الباطل فيجب قطع لسانه وهلمّ جرًّا الى ان يبدو لجميع الناس ان علمه شرك للاذى والشر ووسيلة للضلال والمتر فلا يسعهم بعد ذلك الا اقصاءه ورذله واهانته وخذله فيصبح بينهم ذميماً مدحورًا داخرًا مبتورًا فهذا مثل العالم الذي يقصد بعلمه نفع نفسه وضر غيره والله يهدي من يشاء

من الناس من يتعلم العلم وهو مجبول على صفات حميدة فيزداد هدًى ورشدًا وورعًا ودماثة اخلاق وحسن تصرف واستقامة طبع ونزاهة نفس وصفاء عقيدة واخلاص مودة وسلامة نية وعفة قلب ولسان وانبساط يد فمثله كمثل الجوهر الشفاف اذا قابله شعاع الشمس او كمثل اناء من زجاج نظيف صاف اذا وضع فيه الماء لم يغير من طبعه شيئًا فتراه دائمًا مقبلاً على نفع الناس ساعيًا في اصلاح شؤونهم وتسنية احوالهم باذلاً اقصى جهده في تسكين خواطرهم ولم شعثهم وتاليف متفرقهم وتسلية حزينهم وارشاد غاويهم وتاييد ضعيفهم وليس من همه التردد على ابواب الامراء والخضوع لحجابهم وملاينة خدمتهم ولا استعطاف ذوي الثروة والعز حتى ينال منهم وظيفة او رزقًا ولا التشدق بالابيات والنوادر حتى يعجب السامعين ويحملهم على اكرامه وتعظيمه ولا التعرض لما لا يعنيه حتى يقال فيه انه ذو همة وسعي وانما همه كله في مراعاة ما يقتضيه العلم وهو فعل الخير لوجه الله تعالى فهذا

هو العالم الذي يحمد حياً وميتاً ويبقى اسمه مذكوراً بالخير في كل مكان وزمان وهو الذي تتبرك الناس بنقل اقواله كما يرتاحون لحمد افعاله وكما ذكرت سجية حسنة وخلة مستحسنة ذكروه بها ونسبوا اليه كثيراً من امثالها فان من طبع الناس ان ينسبوا الى من عرف بالمحامد والفضائل في عصره كل حمد وفضل عرفا لغيره ومنهم من يتعلمه وهو مجبول على بعض صفات ذميمة فيتهذب به بعض التهذب ويتغير به بعض التغير فشأنه ان يبقى فيه علمه وشره كالقرنين المتكافئين فمرة يقوى علمه على شره وذلك اذا تذكر ما مر به من قصص الصالحين وسيرة اهل السمت والخير فيؤثر الاقتداء بهم ومرة يقوى شره على علمه اذ يطمس الله على قلبه فينسى ما قراه وسمعه ويتبع هواه فمثله كمثل الشمس في شهر الغيم تبدو مرة وتختفي اخرى وهذه الحالة هي التي تحير الناس في وصفه فترى بعضهم يمدحونه كل المدح وبعضهم يذمونه كل الذم وكل في نفس الامر صادق الا ان العادة ان خلة واحدة مستهجنة تمحو خلالاً كثيرة مستحسنة فكأي من محسن مجبول على الاحسان زلت به قدمه مرة فصارت حسناته كلها في اعين المتعنتين عليه سيئات ومنهم من يتعلمه وهو على الاخلاق الذميمة فلا يزداد به الا طيشاً ونزوعاً الى الشر واضطراباً في الراي وحدة في الطبع وشراسة في المعاملة وتطاولاً على حقوق الناس وتهافتاً على الطعن فيهم فمثله كمثل شمعة موقدة معرضة لعواصف الرياح فلا تزال الرياح تعبث بها يمنة ويسرة حتى يتمنى الناظر اليها اطفاءها بالمرة ثم ان كل علم نافع وكل نافع ممدوح الا انه ينبغي النظر في حقيقة معنى النافع فان من يقصد العلم لينفع به نفسه دون غيره لم يبق ذلك النفع الخاص مستوجباً للمدح العام وكيفية اقتصار الانسان على نفع نفسه هو ان يزدري بغيره حتى يصير مرجع المسائل اليه وان يستحل اموال الناس بما تسول اليه وساوس نفسه من انهم لم يحرزوها على وجه الحق وان يتهددهم باظهار عيوبهم في الاماكن التي ينتابها حتى ينيلوه كلما يقترحه عليهم وان يغري زيداً بعمرو ويضري عمراً على زيد ويتربص بهما الرزايا والبلايا ليبرزأ من كل منهما واقبح من ذلك ان يتعرض لغيره اذا عرف انه ينال رزقاً فيسعى في قطع رزقه وان لم يعد عليه ذلك بعائدة فنفع نفسه هنا غير حقيقي وانما هو باعتبار ضر غيره وهو مثل ابليس لا محالة لان ابليس لا نفع له من وقوع البشر في المهالك الموبقات الا الشماتة بهم او مثل الجعل الذي يرتاح لحمل الاقذار ويانف من رائحة الطيب ومن العيب كل العيب ان يظل العالم مترقباً

زلة غيره ومتربصاً لحلول الشر بهم ولا لذة له من ذلك ولا نفع سوى مجرد وقوع الضر بمن يكرهه فاذا اردت ان تختبر جليسك لتعرف من اي صنف هو من هذه الاصناف الثلثة فاذكر له نعمة انسان وفضله وعلمه فان رأيته قد فرح بذكرها وتمنى بقاءها عليه فهو من الصنف الاول وان رايته قد سكت او نسب ذلك الى بطر الزمان وعوارض السعد فهو من الصنف الثاني وان رايته قد امتعص فهو من الثالث وهو الذي لا يحب خير احد وهو الذي علمه نيه كالقرط في اذن السنور او كالنعومة في بطن الثعبان وهو الذي يجب الاحتراز منه كما يحترز من الجاهل بل اكثر لان كلام الجاهل لا يؤثر في احد وانما التاثير لكلام العالم الا ان الحق عصمة كل معتصم به وفعل الخير جنة كل من تحصن به فاذا واظبت على حب الحق وفعل الخير فلا تخش شر احد من الناس وما عليك اذا تجنى الناس عليك وانت بري عند الله فعليه وحده عول وبه اعتصم واليه التجىء ومنه استهد والله يهدي من يشاء

من الناس من يكدح لمعاشه كانه لا يموت ابداً فتراه دائماً مهتماً بالاحتراف والاصطراف والاجتراح والاقتراح والاكتساب والاختلاب والاهتبال والاجتداء والاعتداء والاستكثار والامتيار والاستثمار والادخار وما يبالي ان فقد صاحباً بتحصيل درهم او غنم من حيث لا مغنم او ان انشب مخلبه في غير منشب او ان بادهته الناس باللوم والسب فان حب المال اذا استولى على قلب المحتال خيل له السراب شراباً والوشل عباباً فاذا اعتاد كسباً من جهة اتخذ تلك الجهة قبلة له وناط بها امله ومعوله واذا استفاد من احد فائدة ظنها قد صارت عليه فرضاً مكتوباً واداء محسوباً لا يبرح من باله ولا يشغله عنه حال من احواله فاذا خاب يوماً امله ظن ان قد ادركه اجله فيعول ويشكو ويصيح ويمكو ويقول بالارجال اين المال واين الامال واين من كان يلقى السائل بالنوال فقد فسد الزمان وضاع العرف والاحسان وقلت الاخوان لقد طالما اعطيت ولم اسأل واليوم اسال ولا اعطى وهيهات من بذل وصان وجه الحر عن ان يبتذل هذه الارض واسعة رحيبة والناس عليها اكثر من ان يحصوا عدداً وما اجد ممن يؤاسيني منهم احداً فما لي احرم وهم يرزقون وما لي اخفق وهم يتانقون فباي شيء فضلوني وعلام خذلوني وابسلوني فتخيل اليه وساوس طمعه انهم جميعاً اعداء له الداء وانهم جديرون بالارداء حتى يكون

هو وارث الارض والمتصرف فيها وحده وحسبه اذا فقدوا جميعاً دون ان يفقد فيها جده فمثل هذا لا ينفع فيه لوم ولا نصيحة ولا يثنيه عن الكسب فضيحة واذا ذكرت له المنية اشتغل عنها بذكر الامنية واذا ذكر بهادم اللذات اعرض عن الذكر ببشرى ما هوات فياللعجب كيف يشغل الانسان نفسه بالاماني الوبيلة ويستغرق في المطامع المستحيلة وهو يرى نكبات الزمان وصروف الاحوال لا تبقي شيئاً على حال فكم اعدمت من فتي وافقرت من غني ووضعت ذا رفعه . واجاعت ذا رتعه وكم من رفيع سفل ونبيه خمل وذي امرة في الناس صار ماموراً وذي خطر وشان عاد وضيعاً حقيراً هكذا دأب الايام في الانام ترفع وتخفض بين قعود وقيام وتعز وتذل بين يقظة ومنام من ذا الذي دامت له السيادة وصفت له مشارب السعادة فاذا كانت الدنيا منذ خلقها الخالق لم تصف لاحد في المغارب والمشارق ولم يهنأ بها عيش فاجر ولا بر ولا حلت بها ساعة الا ومر بها دهر فكيف الاغترار بها والارتواء بخلبها وهي تقول بلسان الحال الذي هو افصح من لسان المقال اني اعامل بني جميعاً على حد سوى وما لدي من ثنيا فان كنتم تشكون من الظلم فها انا قد عدلت بينكم وعممت حينكم فكلكم مرتد يوم حينه بثوب واحد وكلكم له حشرجة واحدة عند ذوق حمامي الراصد فمن كان سكران من حبي فليستفق من سكرته ومن كان قد اخلد اليّ فلينتبه من غرته وليتخلص من غمرته لعمري ان حال الدنيا هذا مقالها وهذا انذارها وتعذالها فما احد من العرب والعجم الا ويفهم معناها ويفطن لفحواها ولذا قلت ان لسان الحال افصح من لسان المقال ومنهم من هو مجبول على الزهد في الدنيا لكنه غير زاهد في المسعى ولا متطلع الى ما في ايدي الناس ولا يصرفه عن سعيه ظفر ولا ياس وانما يسعى لوجه الله الكريم في الطريق المستقيم ويخلص ما يعمله ويمحص من ياتيه ويفعله فان انتفع به غيره فذاك اربه وخيره والا فانه يحتسب به عند الله اجراً ويزداد اليه ارتياحاً وسراً وهو مع ذلك غير غافل عن ميعاد الحمام الا ان الحمام لا يصرفه عن نفع الانام فلا يقول ان لهم من يرزقهم ويكفلهم ويقوتهم ويشملهم فعلي الاشتغال بنفسي وهذا ابداً طبي وقنسي فانظر الى الفرق ما بين هذين الرجلين وهما من طينة واحدة وانظر الى تناوت مآربهما المتعاندة لا جرم انه ليس من فرق في شيء من الاشياء كالفرق في بني آدم فمنهم من تسمو نفسه الى المعالي وطيب الشيم فيقرب من الملائكة المقربين ومنهم من

تسفل مروئته وتسقط همته فيدنو من حد الشياطين ومنهم من بوحدة رأيه يسعد الوفا عديدة من الناس ومنهم من لا لذة له الا في اشقائهم وابقائهم في الباس ذلك حكم الله الذي تقصر عن ادراكه الحكماء وعن علمه المحيط تتقاصر العلماء وهو الذي خلق الداء والدواء وجعل من خلقه اسعادًا واشقاء فاسالك ياذا الجلال ان تجعلني ممن يطلب الرزق الحلال ويوثر السعي النافع على القيل والقال ولا تكلني الى الاماني الباطلة والمطامع الزائلة واقرن قصدي بالاصابة وعملي بالاثابة انك ولي الاجابة

من الناس من يتكل على حسب ابائه فيفتخر به لدى جلسائه واخلائه في صباحه ومسائه فلا ينهض لمأثرة ولا يصبو الى مفخرة فشانه ابدًا ان يقول في كل مجال من القول ان ابي كان ذا فضل وطول وانه كان يقري الضيوف ويرضي الالوف وكان السائل ياتيه فيرجع وهو غني عليم ويشور رايه المستشير فيعود وهو نطس حكيم وكان له ملكة في التاليف ومزية في كل عمل رصيف وكان مغناه مقصودا ومحياه مشهودا ونواله قريبا ومقاله مصيبا وهو الذي انتهى اليه علم الاوائل والاواخر وصار نبهًا في جميع المحامد والمفاخر فما احد من الناس يجهل قدره وشانه او ينكر عرفانه واحسانه حتى سارت بحمده الركبان وشدا بمديحه كل قاص ودان فلا تسالوني على ذلك دليلا ولا تطلبوا له فيمن غبر وحضر مثيلا فما من فاضل الا وكان بالنسبة اليه مفضولا وعلى هذا الاتكال يبغي فخره ويشيد ذكره فيصبح عاجزا وكلا متقاعسا عن المكارم والعلى وما يهمه ان ندب الى اغاثة محتاج واعانة ذي الفاج وايواء طارق مضطر واجداء طارىء معتر وتراه ابدا عند ذكر الاموات ينتفخ وينتفش حتى يتوصل به الى ذكر ابائه فينتعش واذا ذكرت له الاحياء قال الولد سر ابيه ولا يلد النبيه الا النبيه ثم اذا قيل له هذا فقير كثرت عياله فساءت حاله وقد طال ارقه وبدا خلقه بعد ان كان يتأنق في ملبسه ويجود على ملتمسه وهذا تاجر استخرب ولم يبق له وجه مطلب فآل امره الى القشف والم به الضفف قال ما انا على الخلق بمسيطر وحسبي اني على تشييد مجد آبائي مقتدر فقد قالوا ان اشتقاق الابن من بنى بمعنى انه يبني ذكر ابيه ويديم عليه الثنا وهكذا يصم اذنيه عن ذكر كل من طرق اسمه سمعه ويقسو قلبًا على كل من يقصد صنعه وينشد نفعه ومنهم من يكون له ذلك الاتكال ويفتخر بما كان

لابائه من شرف الفعال وكرم الخلال وصالح الاعمال الا انه يدأب في الاقتداء بهم والسلوك على مذهبهم وفى اتمام الامر الذي قصدوا والارتواء من الورد الذي وردوا والتخلق باخلاقهم الكريمة والاستقراء لمكارمهم العميمة حتى يزيد عليها ان كانت الزيادة مما يطاق كانه واياهم في حلبة السباق وعلى هذا ترى كثيرًا من ابناء العلماء قد حاكوا اباهم ادبًا وعلمًا وفضلاً وفهمًا فهذا لعمري هو الفخر والشرف الباقي على مدى الدهر وهو الذي يجب ان تحث عليه البنون ويكون امامًا يقتدي به المقتدون وينبه له الغافلون ويعتبر به المعتبرون وهو اشرف من ميراث النضار والعقار وابقى ذكرًا على ممر الادهار فان النضار يزول والنعمة تحول ولو بقيا لاحد لحال بينه وبينهما الهرم فلا يتمتع بهما الا بمثل ما يتمتع احالم بما حلم والمتمني بالعدم اما العلم فانه كنز لا يفنى على الانفاق ولا يخشى على ثروته حؤول املاق فهو قرين صاحبه نفسه الى ان يودع في رمسه وهو في الشباب له جمال وفي المشيب كمال يقوى عند وهن العمر ويزيد عند نقصان الخصب واليسر ومنهم من يقر بخسة اصل اجداده لكنه يفتخر بجده واجتهاده وبعدته وعتاده وكسبه واعداده حتى يحاول ان يستر بفضله ما بدا من عيب اصله فاذا ذكر لاحد حسب قال لا حسب الا الادب ولا فخر للمرء الا بنفسه فلا تسأل عن قنسه وهذا القول هو في نفس الامر صواب وهو الذي يعتمد عليه كثير من ذوي الآداب وهو راس مال الذين لا حسب لهم وعليه يحملون معولهم الا انه لا ينكر ان للاصول تاثيرًا في الفرع عظيمًا فلا تكاد ترى ذا اصل زكي الا وتتوسم فيه خلقًا وسيماً وشانًا كريمًا فاذا اجتمع الاصل والفعل واقترنا كان ذلك غاية المنى والا فان هذا الثاني خير من الاول واكرم منه وافضل وبقي الكلام فيمن لا حسب له ولا ادب وهو مع ذلك يفتخر في كل مطلب ويتيه على من شرق وعلى من غرب ويملأ المكان من دعاويه ولا يبالي لاحيه فعدم نول انا جواب عن كل سؤال وتخليص لكل اشكال فهو الذي يجانب جهده ويتعب به مصاحبه فلا ينبغي ان تضاع في معاشرته ساعة ولا ان يكون مع الجماعة فانتذ عنك كل من يكثر من قول انا وهو بمعزل عن الثنا ولا عائدة منه ولا غنى ... من يذكر محامده غيره وينوه بخبره وخيره ومن يشيد بذكر الاكياس ... عما بدا في انحائهم من التباس فان الطباع تعدي كما تعدي الادواء وان العمر قصير لا ينبغي ان يضاع في سماع هذر وهراء واتباع اضلال واغواء ولا يكن ... ينفق زينة في الليالي سهرًا على ذكر الاعصر الخوالي

فحسبك من آثار الزمن الحاضر ما يلهيك عن ادكار الغابر الا ان تريد بذكر الماضي عبرة تحض على اصطناع مبرة واللبيب من استفاد علماً وحكمة من كل ما يمر عليه ويذكر بين يديه ولا يشتغل الا بما يعنيه ولا يطلب ما يشقيه و يعنيه والسلام على من اتبع هذه النصيحة وتوخى المقاصد الصحيحة وجد واجتهد فيما يحمد وسعى وقصد وكان من امره على رشد

من الناس من يتصدر في المجالس ويحادث كل مجالس و ينافث كل موانس فيطرب المسامع بما يورده من الفقر النواجع ويسلي النفوس بما يسرده من الحكايات والنوادر والابيات و يواصل الاخبار ويروي الاشعار و يصل قضية باخرى و يقول تلك حرية وهذه احرى و يلتفت و يستطرد ويتمثل و يستشهد ويلمح الى وقائع وفنون و يفيض في حديث ذي شجون حتى تقول ان صدره مستودع لجميع الاخبار وفكره محور لكل الاسرار وانه مورد المسائل ومصدرها وخبير الفضائل ومخبرها وانه فضاض المشكلات ومستفاض البينات و بديع البيان وحسان الفصاحة والتبيان وان له مصنفات كثيرة ابدعها ومولفات وفيرة اخترعها حيث قالوا ان اللسان ترجمان الجنان والاخذ في فنون الكلام منبأة عن العرفان فيعظم في عينيك قدره و يثبت لديك فضله وفخره وتهابه مهابة التلميذ لاستاذه وتوقره توقير المضيم لمعاذه فاذا اخطأ في شيء خلت ان الخطأ من فهمك لا منه وانك محتاج الى الاخذ عنه فاذا اخذ القلم وكتب ابان عن قصور في علمه وفتور في فهمه فغربت عنه تلك القريحة السياله وخانته تلك الفكرة الوصاله فلم يجد لارتباط الكلام بابا فكانه لم يقرا في العلم كتاباً ولا درى من فنون القول ايجازاً ولا اطناباً وكان لسانه الذي كان يتكلم به انما كان مستعاراً وتلك الفصاحة كانت اضطراراً لا اختياراً مع ان من العادة ان الانفراد للتاليف والانشاء يظهر فضل المرء في علمه اكثر من المجالس ويكون ادعى للايشاء ... في الخلوة يصفو الذهن من كدر القيل والقال و ينشرح الصدر من عنت الار... فيسهل فيها ايقاع الالفاظ مواقعها والتاليف بين المعاني فلا يختار منها الا بدائعها فاذا التبس شيء من الكلام فالكتب تكشف عنه اللثام فكيف تكون الخلوة باعثة على التقصير والزحام ادعى الى البيان في التعبير وان كثيراً ممن يتفصحون و يتحذلقون والناس بهم محدقون واليهم محدقون ليتعمدوا حفظ بعض القصص والحكايات لمجرد سردها على السامعين

بينة على ما لهم من البيان والتبيين والاطلاع على سير الاولين والاضطلاع من علوم المتقدمين فترى احدهم ينتهز الفرصة لبث ما حفظه ووعاه ويزاحم غيره في الكلام لاظهار دعواه فاذا كان في المجلس ثلثة منهم او اربعة سمعت لهم ضجيجاً وعمعمة حتى كانك في جيش لجب و بحر مضطرب ومنهم من يحضر المجالس وهو صامت ويسمع ما يقال فيها وهو ناصت واذا عن له ان يورد نادرة على سبيل المحاضرة تذكر انها غير خافية على احد من الحضور او انها ليست من القول المأثور فيضرب عن ايرادها و يقيس عليها غير من انداد ها وهكذا ينفض المجلس وهو لم ينطق ببنت شفة ولا اظهر على السكون اسفه فيظن جليسه انه ذو عي وغيره من المكثرين كان اللوذعي فان الناس يظنون غالباً ان الفخار في الاكثار والقصور في الاقتصار فاذا حضر المجلس مرة اخرى لم يرفع له احد منهم راسه قدراً واتخذوه كلا وقالوا ان سكوته انما كان جهلاً وان حضوره لما يلى فن من شهد خفلاً ولم يتكلم فيه كان كانه يتطلب عد معايبه وحصر مساويه ولكن متى خط هذا الصامت بنفسه واجرى جواد قلمه على ميدان طرسه ارانا من فنون الكلام عجباً واذاقك من حلاوة البيان ضرباً وانشاك من انشائه وسلب لبك باساليبه وانحائه فتود لو كنت له تلميذاً وخديماً او سميراً ونديماً ولا جرم ان من البيان لسحراً وان من الصمت لسراً فليس كل من اورد النوادر كان ادبياً ولا كل من تمثل بالابيات كان ناظماً فما العلم الا ما استقر في البال لا ما ورد في المقال وهذا الذي يفيد الطالبين ويؤدب المتأدبين وقلما اجتمع لمرء فصاحة اللسان وبراعة اليراع والناس في تفضيلهما ليسوا على اجماع وعندي ان الثاني العلماء اليق والاول بالخطباء وذوي المراتب البق فان هؤلاء محتاجون الى ... الناس بالقول الرائع وان لم يتحروا في قولهم التحقيق مما لا بد منه ولم ذي التدبير ... كلتا الملكتين مزيه وفضيلة وتفيه فاما من خلا عنهما ولم ... عادة الناس ان يرموه بالمعايب ويشنوا عليه المثالب وما يكادون ... الاحسان لانهم حصروا الفضل في فصاحة اللسان وبراعة البنان وهو ... جملة غير الصواب والقائل به انما يقول مجازفة بدون حساب ... كثير ممن ... احد هذين الشأنين يحسنون مباشرة الامور والتقلب في الرئاسة من ... كم من امي ساس العباد وعمر البلاد وليس له في صناعتي ... حتى كان لا انامل له ولا لسان وانما هو نور يقذفه الله

في قلبه فيرى به سليم الامور وسقيمها ومنتجها وعقيمها والحري منها بالاجراء والنافع منها عند الاستقراء فيشمر له عن ساعد الهمة و بوفقه الله الى اصلاح امر الامة وانما يكون هذا في افراد الناس نادرًا ولذلك قلما ترى له منهم ذاكرًا واحسن الملكات واجل الغرزيات ما نفع النات ودفع عنهم الترهات والفهم على المودة والاخاء وازال من بينهم العداوة والبغضاء والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ويمد بالتوفيق من اتاه بقلب سليم

من الناس من يتسنم اسنى المراتب واسمى المناصب فيحاول المطالب ويزاول المآرب ويحكم السياسة ويرأم الرئاسة ويراعي فيهم رضاء الخالق والمخلوق وثناء الرازق والمرزوق ولا يلهيه نعيم الصفاء وصفاء النعيم عن تعهد الضعيف وتفقد اليتيم وعن اسداء المبرات الى ذوي الحاجات واستماع شكوى المظلوم واستطلاع دعوى المهضوم حيث يعلم ان احب الناس الى الله انفعهم لعباده واكيس الكيسى من عمل لمعاده وعلم ان الله لا يضيع اجر المحسنين وان الدنيا لا تبقى لاحد من الموسرين ولا من المسيطرين وان من ولي الامور وجب عليه اسعاف الجمهور الخامل منهم والمشهور فمثله مثل الربان الذي يدخر الزاد في سفينته ويحكم السكان ولا يبحر الا على امان ولا يرسو الا وهو ذو اطمئنان جيران احوال الانسان في معاشه تشبه السفر في الابحار اذ هي محفوفة بالاخطار والاكدار فبينا يكون فيها رخي البال مغبوط الحال ذا اهل ومال واعوان واخلال اذا بالزمان قد اضطرب عليه فاحاط به تيهوره وهاج عليه معسوره والتفت به كوارثه وشملته حوادثه حتى تكاد تنضب عنه مزاياه وتشين سجاياه فيخيل للناس ان تلك الرئاسة التي نالها والمعالي التي طالها انما كانت عرضًا واتفاقًا وانها كانت عارية عنده لاخلاقًا وان في وسع كل انسان ان يدركها مثله اذا ساعده الزمان ولكن ينبغي ان تعلم انه لا يتأتى لاحد ولي الرئاسة وان انتهت اليه الاداب والكياسة ان يرضي جميع الناس ويستخلص مودتهم له من دون التباس فان اغراض الناس متفاوتة متباعدة ومقاصدهم متباينة متعاندة واهواءهم كهبوب الرياح لا تستقر على اصطلاح فبعضهم يرى ان الرئاسة تستلزم الملاينة والمياسرة وبعضهم يرى انها لا تستتب الا بالمشادة والمعاسرة والمثرون منهم يشيرون بالضن والاقتصاد والمعسرون يوثرون الكريم الجواد ولذا نرى الورخين

لا يتفقون على اوصاف من نبغ في ايامهم من اهل الامارة فلا تكاد تتحرى من اقوالهم عبارة وذلك لعدم انفاق اهوائهم ولتشتت انحائهم وابعد الناس عن الرئاسة من كانت نفوسهم في الدنيا زاهده ومن نظروا الى الاشياء كلها بعين واحدة زمن استهوتهم فلسفتهم الى التسوية بين الضار والنافع والسار والفاجع وذلك يؤدي الى اهمال الاحكام واعزاز اللئام اذ لا بد من ان يكون الرئيس ذا بوادر تخيف اهل الكبائر وتردعهم عن التمادي في الشرور والمعاير ولهذا كانت خطة كل من ولي الرئاسة صعبة متعبة وحالته حالة من وقع بين اضداد متألبه واعداء متحزبة فمرة يلزمه ان يكون متشدداً مستقصياً ومرة اخرى يرى الاولى ان يكون هيناً ليناً مسترضياً وتارة يتحرى الامساك والمنع واخرى الاجداء والنفع فاذا لزم لغيره راس واحد لزم له رؤس متعددة فلا يهنئه مع تراكم الاعمال وتخالف الاحوال حظ ولا جده هذه حالة الرئيس الذي يجتهد في ارضاء الله والعباد و يلزم الارق حتى يذيق غيره لذة الرقاد و يواظب على اقامة الحقوق وتبيين الحق من المحقوق والناس له حاسدون ولفضله جاحدون وما يدرون ما يعاني من الجهد والعناء من جد في كسب الحمد والثناء ولعمري ان من ظن اعباء الرئاسة امراً يسيراً وخيلت اليه نفسه انه مع اخلاده الى الراحة يكون اميراً فقد اخطأ الصواب واخطأه الطلاب ومنهم من المناصب تتسنمه والمراتب تتتممه وهو غير مترشح لهـا ولا مترتب وصلها فتجمع به الى حيث تلتوي عليه الامور وتتجاذبه جواذب المحذور من المقدور و يعاصيه من الصروف اقصاها ومن الحوادث ادناها واقصاها فيخبط خبط عشواء و يركب راسه في كل فيفاء ثقة بسعد طالعه ومجد مطالعه فان ساعده الجد استمر في ولايته واستقر على غايته فجار وظلم وعال وهضم وغدر وتذمر وتجبر وتكبر واكل اموال الارامل والايتام وسلط اللئام على الكرام ولم يراع عهداً ولا الاً ولم يراقب ولياً ولا خلاً ونسي من كان يالفهم في المنزل الخشن وركن الى الزمان ومن صروف احواله امن وهو دليل على ما للخالق عز وجل من الاسرار الخفية والحكم المقضية لانه تعالى حين يرى عباده قد آثروا الفساد وعدلوا عن محجة الرشاد يسلط عليهم متمرداً جباراً ومتحكماً قهاراً ليعتبر به من اعتبر و يزدجر من ازدجر فلا تحسبن امهاله اهمالاً ولا تنسبن الى تدبيره خللاً تعالى ثم تعالى ومنهم من لا يرتاح الى رتبة ولا رئاسة و يرى انها توجع راسه وتذهب نعاسه وتنضب ارغاسه فيختار ان يكون محكوماً لا حاكماً ومظلوماً لا

ظالماً بناء على انه حليف الامانة والاستقامة واليف الصدق والسلامة فما احد يغشاه بظلامه او يلقاه بملامه فالخمول عنده خير من النباهه والتعامي اذ السيف حرب للمكان العالي وليس سقوط من كان على مرقبه كسقوط من كان على عتبه الا ان الحق يقضي على امثال هذا ان كان في رئاسته نفع للناس ودرء للباس ان يسارع اليها ويحرص عليها لما حسن ان يكون للانسان راس مال وهو يخفي منافعه ويكتم صنائعه فان فان الاريب الكامل واللبيب العاقل من توخى نفع سائر البشر بما خصه الباري تعالى به من المزايا الغرر لا من اجتزأ بنفع نفسه وعليها اقتصر والله يهدي من يشاء

من الناس من يتعب في شبابه لراحته في مشيبه لعلمه ان زمن المشيب يحول بينه وبين دؤوبه ونصيبه اذ يستحوذ الاعياء على رجليه والكلال على يديه والكلول على عينيه والخؤول على اصغريه والوهن على جلده والافن على خلده والنسيان على ذكره والاشتباه على فكره فيرى اليسير اذ ذاك عسيرا والبشير نذيرا ويخيل له التصفير زئيرا فتخونه مشاعره وتبسله خواطره ويلازمه البلبال وسوء الظن في كل حال ضرورة ان وهن القوى طليعة وهي النهى فلا تكاد ترى ذا اعتلال الا وفي عقله اختلال وما قالوه من ان الشيخ يستحكم رأيه ويتسدد حزمه فيصيب ظنه ويقرطس مهمه فانما هو مبني على سلامة البدن او ان شيخيته لا على مجرد طول سنيه مع الضعف الذي يعانيه وهيهات في هذا الزمان الذي يختنق فيه الطلب وترهق النوب وتتعاقب المصائب وتتراكب النوائب ويخذل الجار ويخس الاحرار ويشط الجير ويسلو النصير ويكثر الشامت ويهتر المائت ان تدوم لمعمر صحته وتسلم له منحته ولهذا ترى المعمرين في هذا الزمن قلما ينتفعون بتجاربهم او يفضلون بها على متاعبهم وهذه الخلة اعني التعب في الشباب لحصول الراحة في الهرم تكاد ان تكون من خصوصيات الافرنج دون سائر الامم فهي عندهم اصل الهم والالم ومنتهى النهم فتراهم يتغربون عن اوطانهم ويبتعدون عن اخوانهم واخدانهم ويجدون ويدأبون ويكدون وينصبون ويقتحمون الاخطار ويتجرعون الاكدار ويسهرون الليالي في الاختراع والاستنباط ويطلبون المعالي بمبالغة وافراط حتى يترفهوا في اخر حياتهم ويطيب لهم الاجتماع باهلهم واحبابهم ولداتهم ومنهم من لا يفكر في العواقب عند التعب ولا يدخر شيئاً مما اكتسبه من الطلاب فكل ما يكسبه في يومه ينفقه ويقول ان الحق

تبارك وتعالى يكفله ويرزقه فما ينبغي له ان يكون مدخرًا شيئًا الى الغد اذ الغد موهوم وليس على الموهوم من معتمد فذلك عندهم داب اولي الرشد وشان من آثر ان يحمد حتى اذا اعيا عن السعي وفاته الطلب فلا تماسك عنده ولا وعى وراءے ان ربيع ايامه الذي غبر لم يترك لشتائها ملجأ من الغير وموقى من الكدر اخذ يتندم على ما فات ويرمي الدهر بالاعنات ويتاسف على تهافته في الموبقات وانصبابه الى الشهوات وهيهات هيهات فهل ندم على فائت ينفع وهل في استرجاع الشباب مطمع وتلك في الغالب خلتنا بل بالحري علتنا وبكل من هاتين الخطيتين وردت اشعار المتقدمين وتبين منها رشد الرشيد وافن الافين يعلم ذلك من فطن الى انحاء الكلام واختلاف مقاصد الانام والراي عندي الاول ولا يتم ذلك الا بثلاث خلال الحزم والمواظبة وكتمان الحال ولا بد من شرط القصد مجانبة الشطط وهي حالة وسطى بين من افرط وفرط اذ كل من الافراط والتفريط مذموم والكلف باحدهما ملوم الا انه ينبغي ان تعلم ان حصول الراحة بعد التعب كما تقدم انما يتسنى للذين يلون الاعمال العظيمة والمساعي الجليلة من نحو التجارة والصيرفية والمعاملات العديدة الجزيلة اما اصحاب الحرف والصنائع فلا يزالون في بوس فاجع ونصب واضع وتعب باخع وذل تابع ولهف يتضاعف ووجل يتكاثف فانهم لا يزالون مشفقين من البطالة وهي للمحترفين شر حالة ولا سيما اذا اقعدهم السقم وارقهم الالم وكانوا ذوي عيال معولهم عليهم ومستندهم اليهم فيكون همهم في هذه الحالة متضاعفًا وحزنهم مترادفًا واذا نظرت الى هذه الطائفة من الناس وتاملت في احوالهم تامل منصف غير ناس للحقوق البشرية ولا متناس راعك خطبهم ولاعك نحيبهم وانساك شانك ما تراه من شانهم واذهلك عن فنك ما تشاهده من افنانهم فانك اذا دخلت قصور الملوك والامراء وذوي السعادة والاثراء واهل السيادة والوجاهة والنبالة والنباهة ورأيت ما فيها من التحف الباهرة والامتعة الفاخرة والحلى والجواهر والانية والذخائر والفروش المرفوعة والتكات الموضوعة والمحاريب والتماثيل والتصاوير والتشاكيل والزينة والنقوش والبهجة والرقوش والتذهيب والترصيع والتنضيد والتنويع وغير ذلك من كل ما تتوق اليه النفس ويشتهيه الطبع وتقر به العين ويطرب السمع علمت ان ذلك كله من كد هؤلاء العمالين وان شقوتهم في العيش انما هي لسعادة المترفهين الكسلين لا جرم انه لولا كسب ايدي هؤلاء العملة المتواصل وشثنهم وشزنهم وشثلهم كثفنات البوازل لما نعمت المترفين

نامل ولولا مشي اولئك لما ركب هؤلاء ولولا ظمأهم لما طاب لهؤلاء الطلاء ولهذا لا ينبغي ان تحتقر احدًا ممن يعملون بايديهم ويمتهنون انفسهم لصيانة وجوه معمليهم فان زينة الكون بهم وعمران الدنيا متوقف على دابهم فهم اولى بالاكرام ممن يصرفون اوقاتهم في اللهو والمدام والقصف والاثام وسواء منهم من يكسو الراس بعمله او يكسو القدم ومن يطبع سيفًا او مبراة للقلم فهم جميعًا بمنزلة اعضاء متعددة في جسم واحد فليس لك ان تقول ان هذا العضو مستغنى عنه او انه من الزوائد ذلك صنع الله الذي خلق الناس فاحسن خلقهم وجعل من ابواب متفرقة رزقهم فما يعجز عنه واحد من خلقه يقدر عليه اخر وكلهم مشترك في العمل الى ان يحين الاجل

من الناس من يبالغ في مدح وطنه ويحن اليه حنينه الى سكنه فيصف مروجه ورياضه وبروجه وحياضه ووهاده وجباله وتلاعه وتلاله وربوعه ودياره ونباته واشجاره وبقوله وثماره ودرجه واطياره وطيب هوائه ولذة مائه ويزعم ان فصوله كلها كالربيع حسنًا وان جميع اقطاره تتدفق بركة ويمنًا وان شهرًا فيه خير من الف عام في غيره وان كل بلد مستمد من خيره ومحتاج الى ميره ثم يزفر زفير الثاكل الحيران ويصرخ صراخ الولهان الا ان حب الوطن من الايمان لقد جبت السهولة والحزون وركبت الذلول والاموت وطوفت في الامصار وجولت في الاقطار وضربت في مناكب الارض مستقصيا واختبرت احوال من عليها مستفتيا وسبرت اطوارهم واوطارهم وعلمت قوافيهم واسرارهم فلم اجد عيشًا هنيئًا الا في بلادي ولم يرقني شيء غير ما رايته فيها من طاريء وعادي فنعمت البلاد مثوى وطابت مقامًا وماوى فهي الجديرة بان تكون مقامًا للملوك وما غيابهم عنها الا من النوك فمن اين يجدون لها مثيلًا ومن ذا الذي يبغي عنها حولًا هي البلاد التي تغزلت بها الشعراء فقال فيها فلان ابياتًا وقال فيها فلان قصيدة غراء واسمع ما قيل في جداولها ونواعيرها وبلابلها وعصافيرها وخمائلها وازاهيرها وصروحها وقصورها ومصانعها ودورها وظبائها ومراتعها وزرائبها ومواقعها وفي اريج افاقها وبهيج اشفافها ونضرة حدائقها وبهجة شقائقها بل قد ذكرت ايضًا بعض الكتب المنزلة في عدة مواضع مفصلة فقيل انها معدن الخير والكرم ومثوى الصالحين من الامم ومنها كان مبدا الصنائع والعلوم وفي كل مجهول ومعلوم فاذا قلت له كيف جارك الادنى لعله كان لك عونًا وخدنًا قال وبي منه شر

جار وهو على البلاد عار وشنار فكيف جاره الذي يليه عسى انه ممن توالفه وتصافيه قال ويلي انه شر من اخيه فكيف اهل الحارة طرًّا قال ويلي انهم كانوا كلهم عليّ شرًّا ولم اجد منهم الا ضرًّا فكيف اهل البلد اجمعين قال ويلي ما منهم امين ولا معين فما كانهم خلقوا من ماء وطين قال ويلي اني قد اختبرتهم جميعًا فلم اجد لاحد منهم من خلاق وان هم الا جهال اغبياء ينقادون لمن يامرهم من الاغنياء فانهم عبيد الدرهم والدينار ولا يبالون الا بملء بطونهم ولو من الخشار فكيف اهل المدن والامصار قال ويلي انهم اولو غبن وغش وتغرير واخفار ما تعامل منهم من احد الا ويمنيك بالكمد والنكد والخسار لانهم لما كانوا متقلبين في امور المعاش ومنهمكين في اتخاذ الاثاث والرياش ظنوا ان سائر الناس همج فما عليهم في غبنهم من حرج فكيف اهل الجبال عسى انهم ممن صفت طويتهم وطاب منهم البال فتلك خلة قد اختصوا بها في جميع الازمان وشان قد عرفوا به في كل قطر ونعم الشان قال ويلك ومن اين لهم الصفاء وقد فطروا على الشراسة والجفاء فابتعدوا عن الاداب فكادوا ان يحصوا مع الذئاب فان احدهم ليقتل اخاه على خبزة يسد بها جوعه ويسلب صديقه في اكلة ويحرمه هجوعه هذه حالة سكان البلاد الحاضر منهم والباد فلا تكثرن من السؤال ولا يخطرن ببالك غير هذه الحال فان قلت له ولكن كيف اشتملت بلادكم على تلك المحاسن واهلها على هذه المساوي، الشوائن قال ان اهلها الاولين كانوا من الخيرين فحرثوها وزرعوها وعمروها وامرعوها ثم فسد الزمان فجاءت خلفاؤهم فاسدة لكن بقيت تلك المحاسن فيها فائدة ، لكن ما معني الزمان وهو لم يكن صالحًا قط منذ خلق الانسان والتواريخ على ذلك شاهدة ونصوصها عليه متساندة متعاضدة ثم كيف فسدت الناس وانت بقيت من بينهم صالحًا ترى كل من سواك طالحًا ولو كنت من الصالحين لما رأيت في غيرك خلقًا يشين فانما ينظر في عيوب الناس من كان اسوأ منهم حالاً (ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرًّا به الماء الزلالا) كذا قال الشاعر الحكيم فما انت في طعنك على جنسك الا مليم وان امرءًا يحسب جميع اهل بلاده دونه لجدير بان يشيعوا مقتونه ويذيعوا جنونه ويتجنبوا محضره ويتنكبوا منظره فيا للعجب ممن يمدح وطنه ليرجع المدح الى نفسه مع ذم قومه وجنسه وممن لا يعجبه شيء مما يقال الا اذا كانت ذاته وصفاته محورًا للاقوال ، مع ذلك فانه يقول حب الوطن من الايمان هو لاهله شنآن ، يذكر عيوبهم

شكران وعن عيوب نفسه وسنان هكذا حالة اكثر الناس في هذا الزمان وهذه محبتهم للاوطان وهي محبة كاذبة ودعوى عائبة ومنهم من يغار على وطنه و يجتهد في نفع سكنه واذا ذكر من قصور اهل بلاده شيئاً فانما هو لتنبيههم لا لتشويههم ولحثهم على الوصول الى الكمال لا للتنديد بهم لدى الاجيال ولكي يحملهم على عظائم المساعي لا لان يقوم بالنعي على افعالهم مقام الناعب الناعي فتراه كلما سنحت فرصة لنفعهم انتهزها او لبانة لخيرهم تنجزها فمثله كمثل المربي الشفيق والمتعهد الرفيق الذي يحزن لحزن من يتعهده و يفرح لفرحه ولا يطيب له عيش الا اذا رآه مثله في غبطته وسروره ولا جرم ان العيش لا يطيب الا اذا كان لكل واحد من رغده حظ ونصيب فاما اذا اختص الانسان بنعمة وراى غيره في كرب وغمة فلن يهنئه ورود مشربها والتمتع بها وقولنا الانسان المراد به من كملت انسانيته وصفت سريرته ونيته فهو يرى سعادة جاره داعية لبلوغ اوطاره وتشييد داره لان من كان ذا عينين ولسان يطعن بلسانه طعن السنان و ينظر بعينيه معايب الاقران فشتان ما بينهما ثم شتان فقد عرفت ان بعض الناس يمدح ولا غيرة له وبعضهم يغار ولا يمدح وان هذا هو الاصلح الاول لمن يطرئ نفسه ، يزكيها ان انت بهذه التزكية الا مذكيها وان ما خفي عليك من شينها اكثر مما ظهر لك من زينها وانك كما تدين تدان كما تهين تهان فان كان قد استحوذ عليك الغفول لعلمك رفع الفاعل ونصب المفعول واستهواك المغرور لمعرفتك بون جور فاعلم انك ما علمت شيئاً الا ما علمت ولا فهمت معنى الا ما فهمت فبم تفتخر ومن الذي تحتقر ولم لا تعتبر فتنزجر وفيك يدخل الطاهر فيستحيل نجساً ولست ترى الا مفراحاً اشراً او جزعاً مبتئساً فاقن الحياء وليكن عرفانك بقدرك اول ما تعرفه من الاشياء ان الله عليك رقيب ولا يخفى عليه مغيب

من الناس من يولد في النعمة اي ينشأ وحوله من يخف اليه بالخدمة و يكسبه كلما يشتهيه من ماكول ومشروب وملبوس ومركوب واذا نظر راى كل شيء انيق واذا استمع لم يستمع الا ما يليق فتمتلئ عينه من اماني النفس ومطامح الحدس وتجالسه الاكابر فيطرب به خطابهم وتقصده الاماجد فتعجبه ادابهم فاذا دام على هذه الحال جد في التفرد بحسن الخلال وكرم الفعال والوصول الى درجة الكمال واذا زاد عزّاً واقبالاً زاد شيئاً وجلالاً فلا يكون صلفاً مفراحاً ولا شرساً

متباحاً ولا لهجاً بذكرها لديه ولا فخوراً بما حصل عليه ووصل اليه حتى يستوي عنده الكثير والقليل والحقير والجليل وهي الحالة المستفادة من التفلسف الحاضة على التقنع والتعفف فاذا حط الدهر مرتبته وخفض منزلته كما هو شانه في دورته وتقلبه وثورته وتغلبه صبر على الغير والقدر وتذكر انه احرز من رغد العيش نصيباً وافراً فاذا غبر قرب غابر يعود غابراً فاذا لم يعد اليه ما فقده اكتفى بما عنده من المحامد وهي عند اللبيب خير جده فهي التي لا يعتريها نقصان ولا يتطرق اليها عدوان الزمان وهي ذخر للمذخر وفخر للمفتخر فكما خاض الناس في ذكر المآثر وعددوا المناقب والمفاخر افتتحوا الذكر باسمه واطنبوا في مدح يذمه وتاسفوا على تقلص ظله من رفع الى خفض وتغير حاله من وفر الى برض ورجوا له العود الى شانه الاول وتفاءلوا له بالخير بكل ما وقع وحصل حتى كانهم مشاركون له في احواله او انهم من بعض عياله ولا يخفى ان اقبال الناس على من دهاه الزمان سلوان وان سلوان وان بقاء الحمد والثناء عليه تسلية له عما شمله من المصائب وتطييب لنفسه مما اعضاه من النوائب اذ الانسان ما دام عائشاً بين الناس وله بهم اتصال ان يستغني عن ايناسهم له ولو بالمقال وكثيراً ما تغني فوائد اللسان عن فرائد الجمان وقلائد العقيان فاما من لم يبال بما يقال فيه ولا يكترث لذم ذاميه ومدح مادحيه فعليه ان يعتزلهم ويعيش في قنن الجبال وحينئذٍ فما عليه من القيل والقال والا فانه يستهدف لالسنة شانرة صادرة باترة تصيب منه الحز وتبلغ منه مبلغ البز ولقد رأينا كثيراً ممن ذهبت عنهم السعادة والجد لم يذهب عنهم الفضل والجد لم يبرحوا قدوة للناس في افعالهم وكالمثل السائر في كلامهم وكلمهم والى هذا المعنى اشار الشاعر وهو قول حكيم ماهر * ان الامير هو الذي يغدو اميراً يوم عزله * ان زال سلطان الولاية لم يزل سلطان فضله * غير ان من كان في السيادة اصيلاً ليس كمن كان فيها دخيلاً وانك اذا توسمت طلعته وتفرست في احواله لحت الرئاسة من خلال افعاله واقواله فتلك خلة ترافقه وصفة لا تفارقه ومنهم من يولد في البؤس والشقاء وينشأ في الخمول والضعة والخفاء فان ساعده الدهر على تبديل هذه الحالة بحالة هي فوق السفالة ودون النبالة فاحرز من الدنيا بعض حطامها وجالس بعض كرامها فرح وبطر وتاه واشر وظن انه ارفع الناس قدراً واجلهم شاناً وذكراً فقال انا الذي تتودد اليه الامراء وتهاب مقامه الكبراء فلو شئت لنفيت من البلد كل من عاداني وحرمت

الرزق كل من جافاني وانا منار العلم ومداره ومرجع الفضل ومحاره ومعدن الفضائل ومحتدها ومصدر الاداب وموردها وقبلة المعالي ومقصدها قد ذاع صيتي كالمسك نشراً وتارج عبير مدحي فملأ الارض قطراً قطراً وان كنت لم اصل بعد الى درجة الوزراء فانما هو لعفة مني تابى الا السراء فان الوزارة تعب والامارة نصب اؤ ليس ان الناس جميعاً يقولون انك امامنا ونعم الامام ولا نطيق بعدك يوماً من الايام لا جرم انهم لا يستغنون عني ولا يسمعون الا مني وهذا شأني في كل بلد سكنته وقطر استوطنته فمن ودعتهم فهم الخاسرون ومن سلمت عليهم فهم الظافرون واذا خلع عليه احد الكرماء جبةً و فروًا جاب الناس وتاه عليهم زهوًا فظن انه الكاسي وكل الناس عراة وانه المنعم على من انعم عليه سواء بلباسه وقراه اذ يزعم ان مجرد ذكره لانسان احسان له وامتنان وان جحد صنيعه وكتم دسيعه وما درى ان الكفر مخبثة انفس المنعم وانه اذا التهم طعام غيره لم يقل فيه الا انه شر ملتهم واجشع ملتقم واشنع من نهم كذلك شان من هو حديث النعمة ونقيذ البوس فانه يتيه على الجلوس ويبدههم من القول بما تشمئز منه النفوس فلا تراه الا نخورًا متمدحًا وجسورًا متبجحًا وعقورًا مؤذيًا وزنبورًا مدميًا لا يشكر منعماً ولا يحمد مكرمًا لاعتقاده ان اكرامه ضربة لازب وفرض واجب فو بلي على حديث النعمة القديم الهمة الفاسد الشيمة الساقط المروءة والهمة الذي لا يرى لاحد حرمة ولا ذمة واهون شيء عليه نقض العهود وصرم الودود ونسيان المعروف وهجران الالوف وما ذاك الا لانه اخصب بعد المحل ورطب بعد اذ هو محل فياحسرة على من يغتر بالدنيا الغرور وهو يراها في كل يوم بالاحرار تدور وعلى الاخيار تجور ولو دامت لاحد لم تصل الينا ولو استقامت في سيرها لما عاجت علينا فلا يركن اليها الا الغافلون ولا يحرص عليها الا الجاهلون

من الناس من يكلف بعلم واحد او فن واحد او صنعة واحدة فيقتصر عليها ويشتغل بها طول عمره فلا بد من ان يفوق بها على اقرانه ويصير بها علمًا مشهورًا حتى انه لو قصر فيها مرة او اخل بها من وجه من الوجوه لوجد من يعتذر عنه ويغضي عن قصوره فيجوز على الناس ما اخل به كما جاز عليهم ما احكمه على حد سوى لانهم قد الفوا منه الاحسان والاتقان وهذا على حد قولهم من عرف بالصدق جاز كذبه ومنهم من ينتف من كل علم نتفة ولا يتمكن من شيء من الفنون فترى

عنده مشاركة فيها بحيث لا توهله للرئاسة ولا باس بكلا النوعين وانما الباس في الاعجاب بهما والتوصل بهما الى الدعوى والمطاولة فان من يقتصر على فن واحد اذا غلب عليه العجب به اخذ في احتقار سائر العلوم فيرى انها فضول بالنسبة الى فنه وصاحب الفنون المتعددة متى جالس احداً وعرف انه من المقتصرين على فن واحد باغته في الفنون التي يجهلها يريد بذلك تفضيل نفسه عليه ونسبة الجهل والعجز الى جليسه وكثيراً ما تودي هذه الحالة المعجب بنفسه في انواع شتى من الفنون الى ان يتوق الى معرفة الصنائع ايضاً لانه يزعم ان تحصيله لمبادىء الصنائع اهون عليه من تحصيله لمبادىء الفنون فترى عنده آلات النجارة والحدادة والصياغة فاذا سأله زائره ماذا اردت بهذه الآلات قال اني اوتيت من كل شيء علماً ثم تتوق نفسه ايضاً الى شراء اشياء كثيرة من قبيل الاثاث والفرش فكلما زاره احد اخذ يصف له خاصيتها واحوالها ويبين المواضع التي صنعت فيه والرجال الذين اخترعوها حتى يقال انه خبير باحوالها فضلاً عن كونه قادراً على شرائها فاذا خرج من داره ولقي بعض معارفه افرد له بالذكر متاعاً واحداً من تلك الامتعة واخذ في اطنابه بان يقول مثلاً قد ملكت بساطاً لم يملك نظيره احد غيري ثم يلاقي آخر فيقول له ان في داري حقنة لم تصنع الافرنج لها مثيلاً وهلمّ جرّاً الى ان يعدد جميع ما عنده من البيات فان لم يجد في الطرق من السامعين قدر ما عنده منها قصد الناس في منازلهم واتم عليهم ذكر الباقي فاذا انتهى من الافتخار باثاثه رجع الى الافتخار والتمدح بفنونه وخصاله وسيرته في الناس واطراء الناس عليه فيقول اني في اليوم الفلاني من الشهر الفلاني اجبت عن مسألة في النحو وبعد هذا التاريخ بشهر اجبت عن مسألة في الصرف وفي كذا من شهر كذا زرت فلاناً فجاءني بخوان الطعام على رأسه وفي ليلة كذا زارني فلان مساء بغتة فقدمت بين يديه عشرة الوان من الطعام فلما كان اليوم القابل خرجت الى السوق واذا بالناس يضربون المثل بتلك الالوان والامراء يرتاحون الى لقائي ويهشون لقدومي والحكام لا تفصل امراً دون مشاورتي والتجار يأتمنونني على جميع اموالهم ويود احدهم لو اشتري منه شيئاً ولو نسيئة وان اهل البلدة لا يستغنون عن وجودي ما بينهم حتى انهم لما بلغهم ذات مرة اني مفارقهم اقبلوا اليَّ جميعاً وحكموني في اموالهم وذلك من فضل ربي فانه حببني الى الناس اجمعين وجعل قلوبهم في قبضة يدي وهو الذي يرزقني بغير حساب ويهديني الى طريق الصواب

فلم اعلم من نفسي اني ضللت يوماً عن محجة النجاح ولم ابت ايلة الا وانا موقن باليسر والفرج عند الصباح وكل ما يسمعه من كلام الناس في غير مدح نفسه فهو عنده سدًى وكل ما يجده مسطورا في الكتب على غير هواه فهو باطل فاذا كان المتمدح بنفسه على هذه الصفة مضطلعاً بجميع العلوم والفنون وخبيراً بسائر الصنائع والحرف فهل يطيق احد معاشرته وهل تغني عنه فنونه في ادب المجالس شيئاً مع انهم شبهوا العالم بالغصن المثمر فكلما زاد علماً زاد تواضعاً وانما يحرص على التمدح الجاهل الذي لا يشعر بقصور نفسه وعيب كينته فتسول له الغواية والضلال ان جميع مساوئه محاسن ومحاسن غيره مساوىء واذا سمعته يمدح احداً على شيء فانما يكون المدح راجعاً الى نفسه لانه مبني على ان ذلك الممدوح قد اجله واكرمه او وصله ببعض دراهم فهذه صفة العالم المعجب بنفسه سواء كان علمه مقصوراً على فن واحد او فنون متعددة فخير منه الجاهل المتواضع والغر الموادع والله يهدي من يشاء

اني كثيراً ما فكرت في فن البديع الذي هو من بعض الادلة على فضل اللغة العربية على سائر اللغات فاحببت هذه المرة ان انشيء مقالة برمتها من نوع الترصيع ومثاله في الكتاب العزيز ان الينا ايابهم ثم ان علينا حسابهم فها انا ادعو جميع من على وجه الارض من الافرنج لمعارضة هذه المقالة وهي

من الناس من تخلج فكره من فنون الاقتراح خوالج وتلعج صدره من شجون الاجتراح لواعج وتزعجه المآرب الى اقصى المرامي وترعجه المطالب الى اعصى الموامي وتستفزه وتستهويه وتستبزه وتستغويه لكنه يفتح لها صبره ويشرح صدره ويجتنب منها بوارح الغصص ويرتقب لها سوانح الفرص ويتحين انتجاعها ويتبين انتفاعها ويخبر مشروعها ويسبر موضوعها فلا يبغيها الا حذراً ولا يأتيها الا ظفراً ويرى ان الانتظار احسن معين على تحصيل الامل والاصطبار ايمن قرين لتسهيل العمل ورب عجل اهب الاجل ولا يخلو ابتسار عن انهيار ولا تحلو اوطار مع اخطار ولا يعلو منار في مغار واذا دانت ثنيه او هانت ثنيه او حانت امنيه لمن غادر التبصر وبادر التهور فطال طلباً ونال ارباً فانما يكون من قل النوادر ولا يهون لكل مخاطر فاللبيب الحازم ما تأنى فيما تمنى والاريب العالم من لا يتمنى الا لما به يتقنى اذ ليس الاستكثار مظنة للرفاهة والا الاستهتار مئنة للنباهة ومن تبصر في العواقب وتدبر

في النوائب ايقن ان الرزق قدر على مقدار لا يتعداه والرفق حصر في مضمار لن يتخطاه فلا زفور التردد يكوره ولا ندور التعهد يحوره ولا ملازمة الارق تعجله ولا مداومة التدفق توجله ولا شيء من الاشياء يفقده ولا حي من الاحياء يوجده جير ان الرزق محدود كما ان الحق موجود والخلق معدود الا انه من الراتب المتبين اداؤه والواجب المتعين قضاؤه على من اتصف بالسداد واعتكف على الرشاد وكلف بالحلال وانف من الحرام وعزف عن الجدال ووزف الى السلام وصان وجهه عن الابتذال وزان كنهه بالاعتمال ان يكد قاصداً ويجد راشداً كيلا يكون كلا على غيره او علا لميره فيقلى لقاوه ويتلي هجاؤه وتشنأ لهجته وتبذأ بهجته وتبدو محاسنه مساوي وتغدي ميامنه مغاوي وحينئذٍ فما جاء من اثر عاد عليه وبالاً وما شاء من وطر فاد لديه تبالاً ومنهم من اذا طلب بغية او خطب منية امهرها عرضاً مباحاً واصدرها عرضاً متاحاً واعد لها صدغاً لا تعمل فيه المعاول واجدلها نزغاً لا ترسل عليه المقاول بين اقبال وادبار وابطال واصرار فكر وهر وعر وغر وبربر وثرثر وصرصر وقرقر همزة لمزه نبزة نغزه لزمة نشبه حطمة نقبه ملح ملحف بحبح مجحف لا يصيك به كلام ولا يحيك فيه ملام ولا تقمعه المقامع ولا ترده الروادع وما من جابه يحمله على الهيبة ولا من ناجه ينقله الى الخيبة فلا يزال يغدو ويروح ويندو ويبوح ويشدو وينوح حتى يعتصر مار به ويهتصر مطلبه فهذا في عصرنا يعرف بالحول الماهر ويوصف بالمزيل الظافر بل الاول الاخر اذ العمدة في حوز ما قام بالنفس والعهدة في فوز ما حام على الحدس كيفما كان من وسائل الانتجاع وهان من وصائل الانتفاع ذلك داب اولي الجشع وطب ذوي الطمع فلا يانفون من سوال ولا يصدفون عن محال ولا يعرفون من محال وما لهم بالعواقب من مبالاة ولا في المناقب من مغالاة سواء جاروا عن الام او حاروا في الذم او لبسوا الفضائح او قمسوا في القبائح حتى اذا هناهم الادام ومرأهم المدام سنحروا ممن نولهم بطرا ونفروا عمن خولهم اشرا ونسبوا بذلك الى الاضطرار وحسبوا فضله من الاغترار وهو كفران مبين وخسران مهين ومنهم من يقر على الكسل ويفر من العمل ويقول ان الله جل سلطانه وهل احسانه خالق الاسباب ورازق النعاب فهو يرزقني بغير حساب ويرمقني من ضير الذهاب والاياب اذا لزمت معاني فهو يغنيني وان اقمت اتاني لا يعنيني فحدى ان ابتهل اليه داعياً وجدى ان اتكل عليه راجياً فلا اجري ولا اسعي ولا اسري ولا اشقي واذا كان قد تميز عن امثاله برسم

من العلم وتحيز عن اشكاله بوسم من الفهم راد في سرفه وزاد في صلفه فصادرهم بمؤونته وناظرهم على معونته اعتماداً على فضائله واستناداً الى شمائله وانه اكرم منهم وافضل واعلم وامثل واحلم واكمل وهذه محنة اخرى ومهنة خسرى بل فتنة كبرى لا جرم ان الله هو الخلاق العليم والرزاق الكريم وانه قدر كل سبب فاحسن تقديره ويسر كل طلب فاتقن تيسيره وانه يلهم خلقه صنيع النعم ويفعم رفقته على جميع الامم وان منهم الحاكم والمحكوم والخادم والمخدوم والقاصد والمقصود والحامد والمحمود والجادي والمستجدي والهادي والمستهدي الا ان الاليق بمن صفت سجيته ووفت مروءته وزكا اصله وذكا نبله ان لا يكون وكلاً عاجزاً وفشلاً عاشزاً متناوماً عن المعالي متشائماً بالليالي متودداً الى المائح والمانح متردداً في البارح والسانح اسير الوساوس حسير الهواجس اليف الظنون حليف الشجون قرين الاوهام خدين الاحلام فان ذلك من عوائق النجاح ومغالق الفلاح وان ذا الاحسان من هذا وعى ان ليس للانسان الا ما سعى

من عاشر الناس وقام فيهم مقاماً مشهوراً وحل منهم محلاً مذكوراً وجب عليه ان لا يقول لهم الا الحق وان كان في ذلك العبء الاشق فان الحق ثقيل بالطبع على سامعه وقائله وراويه وناقله وما تكاد تجد واحداً من الف من الناس يرتاح اليه او يعوج عليه فقد الف الخلق منذ القديم التلهي بالاكاذيب فلم يبق لهم من دونها خلاق من الصدق ولا نصيب ومعلوم ان ما جاء مخالفاً للطبع تشمئز منه النفس وينبو عنه السمع ولست اعني باصحاب هذا المقام المشهور من قلد امور الجمهور من اصحاب السيادة والرئاسة والحكومة والسياسة فان براعة هولاء انما هي في كتم ما في ضميرهم واخفاء الظاهر من امورهم على ما يقتضيه منصبهم ويوجبه ماربهم وانما اعني الوعاظ والخطباء والمولفين وكتاب صحف الانباء فهؤلاء مكلفون من قبل الباري تعالى الذي فاض عليهم فضله وتوالى بما اتاهم من الحكمة وفصل الخطاب واهلهم للاطلاع على الحقائق من دون حجاب بان يبلغوا الناس اجمعين كلام الحق المبين فان سمعوه فقد نالوا اربهم الى قصواه وان تولوا عنه فاجرهم على الله ويبقى ما قالوه وما كتبوه شاهداً لهم نواهاً على انهم ادوا الامانة حق موداها ولا غرابة في ان من اخلدوا الى اللذات وتشاغلوا بالترهات يعرضون عن سماع انذارهم ويظلون

عاكفين على اوطارهم وانما الغرابة في ان ينكر كلامهم من قام مقامهم ورام مرامهم وهو كشف نقاب الغواية عن افهام الناس واطلاعهم على الحقائق من دون التباس وقد كان ينبغي لهم ان يكونوا جميعًا كالعازفين بآلات الطرب فانهم يتواطأون مع اختلاف آلاتهم على ضرب واحد ونغمة واحدة وبذلك تمام الارب فاذا رأى رئيسهم من احدهم خروجًا نبهه الى المتابعة وارشده الى المواضعة والا حكم عليه بالجهل او العصيان واخرجه من زمرة ذوي الالحان . لكن من عساه يكون رئيس هؤلاء الكتاب الذين يهدون الناس الى الصواب او زعيم اصحاب الخطب الذين يامرون باتباع ما وجب و ينهون عن مجاوزة حد الادب وكيف السبيل الى ابلاغ الحق وارضاء الخلق ثم هل يجب السكوت في مثل هذه الحال والاغضاء عن فشو الضلال وهل يظن من فعل هذا وانفرد عن الناس في قنة جبل انه يسلم من العذَّل (جمع عاذل) ولا يقيض له من عين الجماد ما يكون له ضدًا من شر الاضداد وحينئذٍ فما احد يسمع شكواه ولا يرثي لما دهاه مع انه لا بد في المحنة من بث الدعوى ونث الشكوى ولو لم يعقب ذلك سوى اظهار التوجع واشعار التفجع لوفى وكفى فلا بد للانسان من صديق يشكو اليه وحميم يعتمد عليه ولهذا يحرص على ان يكون له اهل وذرية واخوان فانهم في المحنة خير سلوان ثم افكر واقول ان من كثرت اخدانه كثرت اشجانه وان مخالطة الناس توجب البوس والباس فان الماء الصافي المورد متى كثرت عليه الوراد تكدر والثمرة الناضجة متى لمستها الايدي الكثيرة قاناها المذر وقد قالوا ان السلامة في الوحدة والمخالطة مفسدة للصفاء اي مفسدة ولقد طالما فكرت في امر النساك والزهاد والرهبان واعتقدت انهم اغبط نوع الانسان لانهم قطعوا علائقهم من الدنيا وتركوا همومها لذي القينة والقنوة وعاشوا عيشة اهنأ وارضى فليس لهم هم في المكاثرة والمنافسة والمفاخرة فكل ما اتاهم من رزق شكروا عليه وما ياتيهم الا ما تجنح النفس اليه ثم افكر واقول انه حيثما اجتمع بشران انفتق شران وانه لا يمكن لاحد من هؤلاء ان يعيش منفردًا وحده او يلزم حالة حرده فعيشتهم اذا نكده وصفتهم صفة الحيوانات المتابدة وقد فاتهم الاجر العميم والثواب الصميم في ارشاد الناس الى الصراط المستقيم وفي تعريفهم المعوج من القويم وتلك لذة لا يدريها الا من مارسها وغبطة لا يقدرها الا من لابسها ثم اعود وافكر ان الخلق اعداء للحق فلا يسمعون النصيحة ولا يقلعون عن الفضيحة فلا فرق عندهم بين من ضرهم ونفعهم ووضعهم ورفعهم وانما يحبون

التملق الكاذب والاطراء على المعايب وتحسين القبيح وتشويه المليح واذا قلت لهم يا قوم ما كان لكم ان تخوضوا في هذا الحديث؛ تبتدلوا الطيب بالخبيث فقد وردت به النواهي وقد خاض به اناس من قبلكم فمنوا بالدواهي ولا تاتوا ذلك الامر فان موارده وخيمة ومصادره غير سليمة قالوا اجئتنا اليوم لتجملنا من العجاوات فما نراك الا ذا هنات فانت واحد ونحن جماعة فاي سلطة لك علينا واي استطاعة افانت وحدك على الهدى ونحن جميعاً سدى فان لم ترجع عن الفتن لنبلونك بالمحن ان هي الا بدعة وان انت الا مجعة فما ظنك بهذا الجواب لمن تحرى لقومه وجه الصواب وظن انهم يشكرون له صنيعه ويحسبون نصيحته صنيعه فياليت شعري اي الخطتين اولى واي العدالتين من العدل أإلى ايعتزل الناس طرًّا ويعيش في البراري والجبال حرًّا ويتخذ له من اهل الشنفرى اهلاً وينسى ما وجب عليه من وظيفة الارشاد فرعاً واصلاً ام يظل بين قومه هدفاً للملام طبيباً لاسقام الافهام فما احد منهم على سعي يشكره او على هفوة يعذره بيد اني اعلم امرًا واحدًا واياه اتحرى عامدًا وهو ان الله لا يضيع اجر المحسنين وانه تعالى قال فاصدع بالحق والمراد في كل حين وانه قدماً مني المرشدون بالتكذيب ورموا بالمعيب لكن الباري تعالى قيض من برأهم ولو بعد مماتهم واظهر صدق كلامهم وصالح اعمالهم ونياتهم فاصبح الساعون يستنيرون بهديهم وسنتهم ويسلكون على سعيهم وامتلأت الصحف من اقوالهم ولهجت بحميد افعالهم لا جرم ان من يغرس في ارض شجرة لا يترقب ان يجني منها في الحال ثمرة وما جدير بمن قرا ودرى وقدر الامور ويرى ان يكف عن البلاغ اذا علم ان ليس له عند سامعه مساغ فرب كلمة اثمرت نعمة ورب محنة انقلبت منحة وضنك عاد ندحة فما يغلب الايام الا من صبر وما يستوجب النعم الا من شكر وعلى هذا وطنت نفسي وامكنت حدسي عالماً ان رضى المتعنت صعب وان لزوم جانب الحق لا يضيره ثالب فاما من آثر رضى المخلوق على رضي الخالق وظن ان الشقاشق تغلب الحقائق فانه لا يلبث ان يرمى به من حالق فيقال له يومئذ لقد اوقعت نفسك وغيرك ايضاً في الغرور وعميت عن القول الماثور فها ان من حالفك على الضلال صار لك خصماً يرميك بالاضلال ويقول ان تظاهرك بالمحاماة عن زيد وعمرو لم يكن الا عن غش وختر ومداهنة ومكر وان مدحك من لا يستحق المدح لم يكن في الحقيقة سوى عين الذم والقدح فابتدر لاصلاح ما افسدت واعتذر الى من اضللتهم الى ما اردت فما عساه ان يجيب به ويدفع عن

حسبه الا ان يقول ان متاع الدنيا انساني حساب الآخرة وما هذه الحال من الاحوال النادرة فياويح من اضله هواه عن اتباع الرشد وظن ان لن يقدر عليه احد وقد رای بعينه ما صارت اليه الغواة من قبله وما حاق بالضليل من سوء فعله وخطل قوله وخطا رايه وخطر جهله ولكن كيف يدعى لاتباع الهدى من طمس الله على قلبه وبصره فلم يبصر قصداً ولم يذكر امداً ولاحداً ومن زعم المواربة اربا والرياء طلبا فحسب قائل الحق ان يبقى كلامه لمن بعده حجة ودليلاً ودستوراً يرجع اليه في ملمات الامور جيلاً فجيلاً فيذكرون اسمه بالرحمة ويسمون ذكره كانه لهم للمكرمات سمه وحسب قائل الزور اذا كبا به جده وافل سعده ان يقال له فضح الله حاله وما قاله وكفي الناس اضلاله فهوذا قد جزي بعمله وخاب من امله ومهما يكن عند امرء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم

من تبصر الامور وتدبر المقدور وتقلب في حالات الدنيا وذاق منها البوسى والنعمى وراقب الناس في معاملتهم وتصرفهم وتفرقهم وتالفهم ومقاصدهم ومساعيهم وظواهرهم وخوافيهم ونفعهم وضرهم وخيرهم وشرهم تاه عن الصواب وراءَ في الارتياب ومد على فهمه حجاب فانك ترى الانسان من وجه خلقاً شريفاً ونوعاً لطيفاً لا بل قيل انه اشرف المخلوقات واكمل المبروات لكونه عاقلاً بصيرا سميعاً خبيرا قادراً على اعمال حواسه واعضائه وبها يدني كل ارب لحوبائه يستخرج من السماوات والارضين ما خفي علمه وعز رومه ويسخر جميع الحيونات لمآربه المخترعة ويصور الجماد على اشكال مختلفة مبتدعة واذا شاء جعل البر بحراً والبحر براً والحر عبداً والعبد حراً والبرد حراً والحر قراً والظلام نوراً والمغمور معموراً والحزن سهلاً والبور حقلاً والوعر نجا مسلوكاً والغفل ملكاً مملوكا والسم دواء والسقم شفاء والزعاق فراتا والارق سباتاً والبعيد دانياً والمريد عانياً وبالجملة فان كل شيء في الوجود كانه لخدمته موجود وعلى ارادته مرصود ومن جهة اخرى تراه عتلاً زنيماً شريراً لئيماً مريداً عنيداً حسوداً حقوداً شرسا شكسا ضبساً طفسا قذراً مذراً ذعراً دغراً يفكر في السوء على جاره الخدين ويخاصمه على شفرة سكين فاذا تمكن منها بها نحره نحراً وعاد وهو يجر عطفيه تيهاً وفخراً ويحسب انه قد احرز بذلك ذكراً وتراه غير قانع بالكفاف ولا راجع عن الخاف ولا مقلع عن هوى ولا سالك طريقاً سوى ولا يزال ينكت

في الارض حتى يجد له سبباً للخصام وذريعة للانتقام فيقول لقد شهد لي شاهد من الارض بمقنع مسجل عادل معدل على اني المحق وغيري المبطل فاني لي خلقت هذه المرئيات وبي اختصت فوائد المخلوقات فما كان لاحد ان يشاركني في منافعها او يسابقني الى مطامعها فهذا الانسان الذي هو مصدر التمدن ومورد التفنن يفعل ما لا تفعله الضبع في وجارها اذ يريد ان يشتف الدنيا الى اصبارها ويبتلعها بجذافيرها ولا يرى لاخيه معه شركة في قليلها فضلاً عن كثيرها وكثيراً ما فكرت في هذا التمدن الباطل والملوعنه عند الاوائل فوجدت انه صار سبباً للشرور والعدوان وشغل النفس بالهموم والاشجان وباعثاً على الاسراف والتبذير والعداوة والتوغير والمحاسدة والمنافسة والمعاندة والمشاكسة وتحميل النفس ما لا يطاق من النفقات والتعرض للهلكات فصار من عنده غنى لا يقف على حد من المنى فكل شيء تاقت نفسه اليه حام قلبه عليه وظل لسانه به لهجا وصدره به ملتعجا فلا يقر له قرار ولا يهدأ له عرار حتى يناله ويقصر عليه باله ثم يزهد فيه ويرغب في حاجة اخرى يرى حوزها اولى واحرى فيزيد بها ولوعاً ويسعى اليها سريعاً فيصبح وهو اسير الشهوات صريع اللبانات لا يصحو من التشهي ولا يصح من التلهي ولا ينهض لمكرمة ولا يبالي بمندمة وصار من دونه درجة يحرص على ان يكون مثله ويفعل فعله فتراه يتهور في المهالك وينشب في المرابك ويرد الغذمرة والصلف ويتهافت على الخطر والتلف حتى يعد من المثرين المكثرين ويحسب في جملة الموسرين اذ يرى القناعة دون مقامه الاعلى ولا يتصف بها الا من كان وغلاً نذلاً اما الغنى فلا ريب في انه نعمة من الله تعالى بحيث يكتسب حلالاً لا بالقمار والاحتكار ولا بالمخادعة والمصانعة ولا بالنميمة والجريمة ولا بالظلم والعسف ولا بالخلس والخطف بل بالسعي والكد والاجتهاد والجد فانه نعم العون على اعانة المعتر واغاثة المضطر وجبر الكسير وانعاش الفقير وعلى اداء المساعي الجليلة واسداء الخيرات الجزيلة ولكن هيهات فانك لا تكاد ترى غنياً الا وقد جمح في السرف وجنح الى الصلف فيرى ان جميع الخلق دونه وانهم محتاجون منه الى المونة والمعونة فيترفع عنهم قدراً ويتيه عليهم كبراً وقد فاته ان حاجته الى الفقير اشد من حاجة الفقير اليه وانه لو ترك وغناه لما نفعه شيء مما بين يديه اذ لولا الحارث والزارع لهلك جوعاً ولم تنفع نافحة نمايه ولولا الخياط والتاجر لما لبس خزا ولا ديباجاً ولولا الاسكاف لما سلك منهاجاً ولولا الفعلة لما تبوأ داراً فيحاء ولولا غارس الكرم لما

شرب الصهباء فما فضل الغني على الفقير وما بون الكثير على اليسير والمرء يكفيه في الدنيا القوت الزهيد والثوب الكسيد بل المقلون اصح ابدانًا من المكثرين. واطول اعمارا ولهم طاقة على تحمل المشاق لا تبارى ويهنئهم الرقود اكثر مما يهنئ البطن المجدود والرغيب المعمود كانما هو على فراشه زق منفوخ او بو مسلوخ يتقلب يمنة ويسرة و ينفخ عليه كأنّ في احشائه جمرة حتى اذا اصبح دعا بالطبيب وخاف شر ذلك اليوم العصيب فاقعدوه وسندوه ودلكوه ووسدوه ثم جاؤوه بماء الورد فنفحوه على جبينه ومسحوا عن فمه ما سال من عرنينه وساح من ذنينه ودعوا له بالسلامة والعافية واستبشر بان ما اواتهم له كانت شافية وعما سواها كافية واذا بالاسي وافاه وهو آس اواه ومعه زجاجات شتى مذهبة متنوعة المياه من بين اصفر فاقع واحمر ناصع واخضر ناضر وازرق زاهر فسقاه من احداها واشمه من اشذاها حتى ايقن بزوال الباس ومرى عنه ما كان يقلقه من الوسواس اذ ظن ان تفجع به الكاس ويغادر ثروته للناس واذا بالعراف اقبل ومعه صحف استاجرها من عند الصحاف ففتح احداها وقرأ اسطرا من اعلاها وقال له ابشر بالسعد والاقبال وغبطة الحال مع العمر الطويل والسودد على كل جيل فما كان الله ليحرم هذا الكون من وجودك وامثالي من كرمك وجودك واذا بالمطربين وافوه بالعزف والتلحين فاطربوه وحبروه وهنأوه وبشروه ثم قام ونظر وجهه في المرآة وقال انه بعينه ما علا شيء مما شان وشاه تلك ثمرة الغنى والايسار ولو هرا ما عراه ذا اعسار لخلت منه الدار فويلي على الرجال المتأنثين وويلي على هذا التمدن في هذه الاحايين فقد كاد يسقط المروة والفتوة ويطوي الهمم تحت الارائك المحشوة فاصبح كل مشتغلاً بنعيمه حتى قيل ان همته في اديمه ومن العجب ان هؤلاء المترفين مع اعتقادهم ان سلامتهم سلامة الناس اجمعين وحرصهم على صحتهم حرص البخيل على الرفين لا يزالون في الالتهام منهومين وعلى اللذات متهافتين وهو مجلبة للاسقام وداعية للآلام فهلا كانوا يقتصرون على الكفاف ويلزمون العفاف اذا كانوا حراصًا على سلامتهم وعلى تعميرهم وكرامتهم لا جرم انا رأينا من يومن بالاخرة يحرص على ان يبقي له بين الناس ذكر حسن ومأثره وهذا الحرص هو عين الدليل على خلود النفس من دون لبس فاما من كان همه في بطنه وعقله في صحته فليس له من هذا الاعتقاد نصيب وهو في خسران وتتبيب الا ان مثل الدنيا كمثل الماء الاجاج كلما شرب منه الانسان زاد ظماء او كالشجرة الشائكة

كلما زاد فيها نوغلاً زادته ارتباكاً وادماء فمن يرد ان يراها حق رويتها فليبعدها عن عينه والا فتدخل فيها وتمنيه بحينه فطوبى لمن تناىء عنها وتبرا منها

من عرف الدنيا ثم ركن اليها كان من احمق الحمقى ومن لم يعرفها بعد ان راى تقلبها فهو اعمى حقاً الم ترَ ان فرداً من الناس قد خرب وحده مملكة قديمة كانت ثابتة الاساس وجلب على اهلها وهم ثمانية وثلثون مليوناً ذلة وانكسارا وهونا بعد ان اهلك من جيوشهم مئات الوف وعرضهم لبلاء غير معهود ولا مألوف فابح العدو يتحكم فيهم تحكماً ويقترح عليهم اشياء لم تخامر خاطراً ولا وهماً فيشكون وليس من يسمع شكواهم ويدعون وليس من يجيب دعواهم وقد ارملت نساؤهم ويتمت اطفالهم وتضورت شيوخهم وتعطلت اعمالهم وبارت اراضيهم ودكت صياصيهم وثلت معاقلهم وانتهكت موائلهم ونضب ايسارهم واقل اكثارهم وغلت ايديهم وخلت نواديهم وتفطرت منهم الاكباد وتقطعت بهم اسباب السداد فكانهم لم يكونوا امة متالفة ولا دولة ذات انفة وكأن مغانيهم لم تكن مختدًا للقصاد ومعالمهم لم تكن مورداً للارشاد فصار من يراهم ينكرهم ويهجرهم ومن كان مشمولا بنعمتهم يكفرهم ولا يشكرهم والدول تنظر اليهم نظر الشامت وتعظم قدر عدوهم وكلهم عن نصرتهم قاعد ساكت او في لومهم صائت وقد طالما هابوا ذلك الفرد الذي سعى في خرابهم وتوصل الى تبابهم وكانوا ياتونه زائرين ويحرصون على ان يكونوا له مجاورين بل الملوك ايضاً كانت تتنافس في مصاحبته وتتهافت على مصادقته اذ كان بيده الحل والربط والضبث والضبط والسلم والحرب والامن والرعب وكان اذا ناجى احداً بكلمة عدها منه نعمة وافتخر بها على الاقران واتخذها ذخراً لصروف الزمان فلم يكن في زمنه من يعصى له امراً او يضمر عليه شراً اذ كان يقال ان الله تعالى كان حارساً له وساتراً زلله فكان اذا اخطأ في امر او قصر فيه قيل ان السياسة كانت تقتضيه واذا اعتراه النقرس فالزمه الفراش قيل ان الارض اهتزت وشمل اهلها الارتعاش وكانت حركاته وسكناته قسطاساً توزن به الاحوال واسطرلابا يوخذ عليه تقويم الحال والمآل وهو الذي كبح الصقالبة والروس فعنت له منهم الرؤس واخاف اهل الصين وانفذ في محافل الملوك رايه الرصين وكان اذا ركب كرم واذا مشى عظم واذا عطس سمت وباحسن النعوت نعت واذا نظر شزرا ملأ القلوب ذعرا حتى اذا اطغته النعمة وظن انه وحده امه وان القدر يلبيه

والسعد مزرف على شحرفيه فار راسه بالوساوس وسولت اليه نفسه ان يلتهي حيناً بحز الرؤس الشواخس اذ راي بعض رؤس قومه صغيراً و بعضها كبيراً ، بعضها مستطيلا و بعضها ممطولا فنادي بجمع الجيوش وقال اني ليعجبني ثل العروش وحشد العجول الجيوش الذي بضرب القرن و يشفي منه غليل الضغن ان لنا لضغائن مخبأة في الصدور هي لذة الجسور وشفاء الصدور وان قرننا ما وراء النهر وانا نفاجئه ونقهره اي قهر ثم نرجع وفي صحبتنا العز والنصر والسعد والفخر فاذا صبغنا ماء النهر بدمه كان ذلك عبرة في التواريخ تسطر وعلى مدى الاحقاب تذكر فمن كان منكم متحمساً متوعدا او متهوساً معربدا فموعده غدا فاني ارى بطالتكم عارا واخلادكم الى الراحة شنارا فان من شرط من تقلد الحسام ان يكون ضاربا به على الدوام ولا يغمده على احد من الانام فهذا وقت الانتقام وكسب الثناء من الخاص والعام انظروا الي والى ابني المترعرع فكلانا بالحرب ولع والى النزال متترع فقالوا يعيش مولانا المحارب انا معك نحارب ونضارب وانا بسعدك نقهر المخاصم والمشاغب وان هو الا اسبوع ثم نعود الى اوطاننا فائزين غانمين فتتسع لنا الربوع ويهنئنا الهجوع و يصفو لنا الرتوع فزحفوا متكتبين و بالسلاح متاليين وجالوا جولة واحدة وشدوا شدة جاهدة واذا بالعدو انبعث عليهم كالسيل الهامر وفاجاهم كالاسد الزائر اذ كان قد استعد لهم حين كانوا يرقصون في المغاني و يمرحون مع الغواني وكان اكثر منهم ضعفين فقابل كل صف منهم بصفين فابلوا جهدهم وتذكروا رشدهم فراوا ان الرجوع اولى وان للعدو عليهم صولا وطولا و ياله من رجوع قرن بالفشل وبخيبة الامل و يالها من خطة مكنت المعقب لهم من بلادهم اي تمكين فدخلها وتبوأها وشدد وطأته عليها فكانما هي تحت قدمه جرين وكان حصونها وقلاعها كانت مبنية من ماء وطين فما ترك حصناً الا وفتحه ولا سترا الا وفضحه ثم صادرهم بالاموال وكاثرهم بالسلاح والرجال حالاً بعد حال اما اميرهم ذاك الغضنفر فانه كان قد حصر في واقعة منته بالفشل والخور فغاب فيها رشده وبطل جهده فلم يسعه الا الاستسلام فاخذ اسيرا وصار امره عبرة للانام وتبعه من قومه الخذل والملام فقالوا انه هو الذي اضلهم واوقعهم فيما اذلهم ففقدوا بسببه اكثر من تسعمائة الف اسير صاغر ومن ستة الاف مدفع داسر ومن مئات الالوف من البنادق والسيوف البواتر ومما لا يحصى قدره من المهمات والذخائر ما عدا القتلى الجرحى وما حرق من المدن والقرى بغيا و برحا حتى قيل ان العدو كان اذا احرق

دارا قفل بابها على ساكنيها حتى لا يستطيعوا فرارا فكم من نساء واطفال هلكت في هذه الحال ولم يعلم احد بخبرهم ولم يشعر باثرهم الا وكم من عزيز اذل ومصون اذيل ومستور فضح وبريء مني بالتنكيل وكم من مخدرات ابتذل ماء وجوههن الناضرة وكم من دموع اسلن كانما هي امطار هامرة فيا من راى امة فخمة ذلت ودولة ضخمة اضمحلت وبلدانا عديدة صارت بلقعا وكتائب فرسان لافت باجمعها من الحمام مصرعا وجيوشا جرارة عنت باسرها خاضعا وكهت ولم يقل لها احد اما ماذا ترجي بعد من الزمان وكيف تامن من غوائل الحدثان وانى للدول الوضيعة الشان ان تستبد بامرها وتتمتع بحقوقها التي ورثتها مذازمان فان الحقوق الان قد نيطت بحد الحسام لا بتعريف الكلام فما عسى ان يجدي الكتاب عند انقضاض الكتائب او يهدي الخطاب عند اعتراض المضارب فكيف تكون الحال اذا ضمت هذه الدول كلها الى دولة او دولتين او ان يذهب بالجنسية التي هي علة الضم بالامين وعند بعضهم ان الجنسية مبنية على وحدة اللسان فاذا كان لقبائل شتى لسان واحد عدوا جميعهم قبيلة واحدة ولم يقم على ذلك برهان فانا نرى لسانا واحدا مستعملا بمملكتين مستقلتين متغايرتين في الاحكام والسياسة منفصلتين وانما هو ان اليد الطولى هي التي تتناول الحقوق قسرا وطولا وعلى ذلك دارت مسألة تلك المملكة العانية والامة الوانية الا ان الدهر غدار شيمته ارهاق الاخيار وايناق الاشرار ورفع الخسيس ووضع النفيس و... كثيرا ما يدخل البريء في السجون ويخرج منه اللص الخؤون ويجرئ السفيه على الحليم ويولع اللئيم بعرض الكريم الا ان ذلك من البراهين الساطعة والدلائل القاطعة على عقوبة المجرمين في الاخرة وعلى انه تعالى انما يمهل العبد ويستدرجه بحكمته الباهرة اذ يستحيل انه يسوي الابرار بالفجار وينزلهم منزلة واحدة في تلك الدار فيومئذ يجزي المحسن باحسانه والمسيء بطغيانه فلا ينبغي ان نقيس هذه الدار الفانية على تلك الديار الباقية فلا يفرحن الاشر باشره ويظنن ان الله غافل عن قدره فقد قدر له مصرعا ووبيلا وعذابا طويلا وانما تجري الامور هذا المجرى لتكون لنا عبرة وذكرى فطوبى لمن اعتبر بما مضى واستسلم للقضا

اذا اعتبرنا اتقان الصنائع دليلا على جودة العقل وحدة الذهن وصفو القريحة وسلامة الذوق واستقامة الطبع كان لا بد لنا من ان نحكم بان الافرنج هم اجود

الناس عقلا واحدهم ذهنًا واصفاهم قريحة واسلمهم ذوقًا وطبعًا لانا نراهم قد اتقنوا جميع الصنائع فلان لهم الحديد وسائر ما صلب من جواهر الارض واتقنوا التجارة والنساجة والخياطة والصبغ والنقش والتصوير والطبع والبناء وكل ما يمكن للانسان ان يتعاطاه من اسباب المعاش كالحراثة والزراعة والتجارة ونحوها فما وضعوا ايديهم على شيء الا واستخرجوا منه مرافق ومنافع حتى انهم ليبرزون النحاس في رونق الذهب والقصدير في بهجة الفضة وان يكونوا قد قصروا في بعض اشياء عمن تقدمهم من الامم او عاصرهم منها مثال ذلك صنعة البناء فاني ارى ان الاولين قد احرزوا قصب السبق فيها فلا يمكن للافرنج ان يجاروهم فيها وان بذلوا غاية اجتهادهم وطاقتهم اذ لا يمكن الان لدولة من دول اوربا ان تبني شبه اهرام مصر غير ان الافرنج يعتذرون عن هذا بقولهم ان ما يفعلونه فانما يريدون بها النفع لا مجرد الفخر والاقدمون انما كانوا يفعلون للتفاخر اذ لم يظهر لهم في بناء الاهرام نفع يساوي ما انفق عليها من الاموال وما تحمل فيها من الاتعاب والمشاق و يقولون ايضًا ان الملوك الاولين كانوا يسخرون رعيتهم في عمل ما يريدونه ولا يبالون بما يقاسونه في انفاذ امرهم وهذا لا يجوز عندنا الان ثم لا بد لنا من ان نستنتج من بناء الاهرام ونحوها اشياء اخرى وهي ان بناءها لم يتم على هذه الصورة البديعة بمجرد كثرة الذين كانوا يعملون فيها او بطول الزمن او بعظم النفقات بل لا بد من ان نعلم ايضًا انهم كانوا بارعين في الرسم والهندسة وجر الاثقال واصطناع الآلات حتى امكن لهم اتقان العمل و بذلك نحكم ببراعتهم على الافرنج في هذه الفنون ايضًا ومثال ما قصرت فيه الافرنج عن الامم المعاصرة لهم صنع الشيلان الكشميرية والزرابي العجمية واشياء اخرى كثيرة تصنع في الهند والصين مما يبهر الابصار ويحير الافكار ويمكن ان يتمحل للافرنج بان يقال ان الباري عز وجل قد خص كل بلاد بمزية ما فضلت به عن غيرها من نحو الماء والهواء والتراب وبعضه متوقف على التراب و بعضه متوقف على الماء والهواء فلا يمكن ان يؤتى بهذه الخصائص من بلادها الى بلاد اخرى ومن الغريب هنا ان الافرنج يدعون بانهم اخترعوا اشياء كثيرة وهي كانت معروفة عند اهل الصين فهل يحسب ذلك من توارد الخاطر على الخاطر ام نقول انهم لما سمعوا بوجودها اتخذوها وانتحلوها لانفسهم وفي الجملة فان للافرنج فضلاً عظيمًا في تجويد الصنائع واتقان الآلات وان يكونوا قد اخذوا بعضها عن اهل الصين و بعضها عن العرب ولا سيما عرب الاندلس واعظم ما

اخترعوه استخراج منافع البخار الذي مكنهم من اتخاذ البواخر وسكك الحديد وصنع آلات الحلج والنسج وغير ذلك واذا اعتبرنا العادات والكلام والاخلاق دليلاً على تلك المزايا التي تقدم ذكرها كان لنا ان نقول ان الافرنج لم تزل تغلب عليهم حالة التوحش والهمجية كالزمن الذي كانوا يلبسون فيه جلود الحيوانات ويجولون في مناكب الارض بلا صنعة ولا عمل اما العادات فانهم الفوا اكل الحيوانات القذرة فكل ما ساغ منها في مزاردهم فهو طاهر والانكليز ياكلون اللحم المنتن الذي تشم رائحته الخبيثة من مسافة بعيدة ويتنافسون في اكل الجبن المدود فكلما كثر دوده عندهم غلا ثمنه ولا يخفى ان عادة الانسان فى طعامه وشرابه هي اول علائم التمدن والتظرف ويلي ذلك عادته في لباسه ورقاده ومن اقبح عاداتهم حلقهم شواربهم ولحاهم فترى الشيخ الهرم منهم كالقرد مجردًا عن الهيبة والوقار كتجرده عن الشعر وما كفاهم هذا حتى شغفوا بالنساء اللائي لهن شوارب او عنافق او عوارض تخالفوا الطبيعة في الحالتين ولو كانوا من ذوي اللحى ورأوا غيرهم على هذا المراى الشنيع لكان اول ما يصفونه به ان يقولوا انه اقرب الى الوحش من الانسان وهناك عادات اخر كثيرة قد تلبسوا بها تلبسًا ذميمًا مما لا يمكن استيفاؤه في هذا المحل لضيق المجال عنه اذ ليس المراد هنا سوى ذكر الانموذج دون الاستقراء والاستقصاء وكذا نقول في كلامهم واصطلاحهم في التخاطب والتفاهم فان استقراءه ينبغي ان يكون في سفر على حدته وانما نقول هنا قولاً مجملاً وهو ان احدهم اذا اراد ان يعبر عن معنى وان يكن من اوضح المعاني وابسطها واقربها رأيته قد اشط فيه وربكه وعقده بالاستطراد والحشو واللغو من الكلام حتى لا تعود تعرف له راسًا من ذنب ولا شرفًا من سرب ومع ذلك فانهم يقولون انهم يعلمون في مدارسهم المعاني والبيان فاي معنى بالله اقولهم ما دامت هذه البلدة لم تفتح فانها لم تفتح واي بيان في قولهم سقط فلان عن ظهر دابته فاخذ عضوًا مكسورًا يعني فكسر عضو من اعضائه وغير ذلك من التعبير السخيف وهذا مبحث طويل ينبغي ان يفرد له تاليف مخصوص ليعلم منه فضل اللغة العربية على جميع لغاتهم وان ما يدعيه الافرنج من التمدن في جميع الاحوال المعاشية لا تقوم به حجة ومن الحمد فتح الانكليز معرضًا للمصنوعات في هذه الايام على حين يرون جيرانهم الفرنسيس منوا بمحن ومصائب غلت ايديهم عن العمل ورمت براعتهم بالانكساد مع ان من حقوق الجوار ان يفرح الانسان لفرح جاره ويحزن لحزنه فما معنى

هذا المعرض في هذه الايام وذلك يتحاشاه العرب احتراماً للجوار ومراعاة للولاء والاخاء غير ان الافرنج لا يفكرون الا في منافع انفسهم فقط فلو اهمهم تهذيب اخلاقهم قدر ما يهمهم ملء اكياسهم لكان اولى فسبحان من يرضي الناس بعقولهم

من اعجب العجب ان الانسان لا يدرك حقيقة حاله وهو مع ذلك يتطلع الى معرفة احوال غيره فيترك شغله وعمله و ياخذ في الاستقصاء عن حال زيد وعمرو اما كونه لا يدرك حقيقة حاله فقد يتوهم احياناً انه اشقى الناس اذ يرى نفسه مقيدا بخدمة ما او عمل ما ويرى بعض الناس مطلقي العنان ينتقلون من مكان الى مكان ويصرفون اوقاتهم في اللعب والمزح والقصف والبطالة فيود لو كان نظيرهم ولكن اذا سمع بان احدا منهم هلك لانهماكه في الشهوات او لتحويله الليل نهارا والنهار ليلا او لغلبة الهوى على عقله حتى ترك طريق القصد والرشد واتبع طريق الزيغ والاسراف رجع الى الحزم وراى ان التقيد بالعمل خير من البطالة بل حمد الله تعالى على انه ليس من تلك الزمرة وقد يخطر بباله انه كان في الوقت الفلاني سعيدا مغبوطا اكثر مما هو عليه حالة الذكر ضرورة ان كل انسان يستطيب الماضي ثم يرى انه كان في ذلك الزمن قاصر المعرفة لم يكن له علم باحوال الناس وادارة الامور كما هو الان وعند ذلك يتذكر ما كاده به زيد وعمرو في اوقات متعددة و يحمد الله تعالى على سلامته منهما وعلى ان ذلك الكيد قد زاد في فهمه وفطنته بحيث انه اتخذ جنة للتوقي من امثاله فاغناه مزيد العقل عما حرمه من حظ تلك الايام فان العقل في الحقيقة كنز لصاحبه وما اخال احدا من الناس يجهل قدره ولذلك ترى كل واحد من الناس يدعي ان له منه النصيب الاكبر واذا كان يقر بان غيره ازكى منه حالا وانعم عيشاً واكثر نفقة واقل هماً وعناء فلا يكاد يقر بان ذلك لكونه اوفر منه عقلا وانما ينسبه الى بعض الحوادث والعوارض فيقول ان القدر ساعد فلاناً ولم يساعدني او ان الزمان قد فسد فلا يسعد فيه الا الكذاب والمحتال ولربما يخطر في باله انه غير متمتع بالصحة التامة اذ لا يقدر على اجتناء الملذات واتباع الشهوات كما يقدر غيره ثم يرى انه يمرئه الطعام والشراب ثلاث مرات في اليوم ويهنئه النوم عدة ساعات في الليل وانه قادر على عمل يركز به حاله ويطيب به عيشه وانه لو كان مريضاً لكان ملازماً للفراش وهكذا يبقى فكره متردداً في معرفة احواله فلا يتجه له

وجه منها الا اذا قاسها على احوال غيره وفي الواقع فان انفع شيء لمن اتعبته افكاره في معرفة حاله ان يفكر في حال غيره على وجه المطابقة فاذا كان وضيعاً وجب عليه ان يفكر في من هو اوضع منه لا في من هو ارفع وان كان غير تام السعادة يفكر في من هو محروم منها بالكلية على اني اقول انه ما من احد يكون سليم العقل والبدن الا ويكون له حظ من السعادة عظيم وان كان غير تام الصحة يفكر في من اسقمته العلل واعلته الاسقام حتى اعجزته عن تحصيل معاشه وان كان مريضاً على هذه الحالة يفكر في من هلك فقد تقرر اذاً ان الانسان لا يعرف نفسه حق المعرفة وانما هي وساوس تعرض له فتخيل اليه مرة انه من السعداء ومرة من الاشقياء ومع ان كل واحد من الناس يقول بلسانه ما عليها مستريح اي على الارض فكل يحاول في قلبه ويتمنى في لبه ان يكون حاصلاً على الراحة التامة وهي في عرف الاكثرين كناية عن كثرة المال والاكثار من الخدم والحشم والخيل والديار والفرش والمتاع واحمق الحمقى من ظن ان حظه ونعيمه ولذته في كثرة النساء ولا يخطر بباله ان هذا الاكثار هو عين التعب لان كلاًّ من هذه الاشياء التي يملكها يقضي عليه بتوجيه همه اليه وصرف فكره فيه ولا شك في ان كثرة الهموم والافكار سبب للتعب لا للراحة وانما توجد الراحة الحقيقية في القناعة وفي عزف النفس عن المطامع البعيدة فمتى عرف الانسان كفايته من حطام الدنيا فقد استراح نعم ان الغني يقدر صاحبه على اتخاذ ما يستطيبه من الماكول والمشروب ويستكرمه من المركوب ويستنعمه من الملبوس ويستعذبه من البلاد وفي ذلك رفاهية له وتقوية لبدنه الا انك اذا قست اعمار الفقراء باعمار الاغنياء وجدت ان الفقراء يعمرون اطول من الاغنياء لان الغنى كما انه باعث على الترفه والتنعم كذلك هو باعث على الاسراف والانهماك في اللذات المقصرة للاعمار وكل من تعمد الخدور واصابه منها خدر الشهوات فبشره بانه لا يلبث ان يعدم حركته اصلاً اما من لزم القناعة واشتغل بعمل ما ينفع به نفسه وقومه فهو في الحقيقة سعيد هذا الذي ندبت اليه الكتب المنزلة وحثت عليه الحكماء والفلاسفة من قديم الزمان وهو الذي رغب فيه كل ذي عقل سليم وطبع مستقيم حتى الشعراء الذين لا يتحاشون من التعرض للجوائز والتعريض بها يعلمون هذا ويعتقدونه ويحرضون عليه ومفاد ذلك كله ان الانسان لا يدري ما ينفعه وما يضره وما يسعده وما يشقيه وانما هي اوهام تلوح له فيظن انها اذا تحققت صار سعيداً ولو كشف الغطاء له

عنها لما شغل بها باله ولا اضاع عليها سواله ومن هذا القبيل مثل الذين يتصدون لتاليف الرسائل وانشاء الخطب ونظم القصائد وهم بمعزل عن العلم فترى كلامهم يشف عن سخيف المعاني ومستهجن الالفاظ وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً فهلا عرضوا كلامهم من قبل ان ينشروه على اهل العلم ليروا ما فيه من الخطأ والخطل فيرتدعوا به عن ارتكاب مثله ام يظنون ان كل من قرا شيئًا من كتب النحو والعروض صار مؤلفًا وشاعرًا وليس عليه ان يعرف المانوس من الالفاظ والصحيح من المعاني من غير المانوس والصحيح ام يخالون ان كل ما يخطر ببالهم يعجب الناس او ان هذا الفن لم يضبط في قواعد تعصمه عن الشين وتبعده عن الخلل فلو كان امثال هولاء يعرفون احوالهم و يدرون حقيقة انسانيتهم لما عرضوا انفسهم للهزء والسخرية فان غاية كل واحد من الناس ان يكتسب المدح على ما يقوله و يفعله ويدخر الثناء الجميل عليه ولو ان احدًا حضر محفلاً وعرف انه متى تكلم سخر السامعون منه واحتقروه افعساه كان يجسر على الكلام ام يرى السكوت اجمل به فما الفرق بين المتكلم والكاتب فارى من ذلك كله ان الحياة نفسها هي سكر للانسان يغطي الحقائق عن بصره و بصيرته فيجهل حاله وقدره و ياخذ ان يخبط في الامور خبط عشواء واذا بقي الانسان بعد بلوغه على هذه الحالة فما ظنك بالاولاد الذين لم يجربوا الامور ولم يعرفوا النافع منها من الضار والصواب منها من الخطا ولهذا كان من الواجب على من انتدبوا لتعليمهم وتربيتهم ان يعتنوا بكفهم عن الرذائل على صغر و بارشادهم الى ما ينفعهم في المستقبل بان يبينوا لهم مساوى الصبوة والشباب والكهولة والشيخوخة ومحاسنها ومحامدها ومذامها وطوارئها وعوارضها ولا سيما فيما يتعلق بصحتهم و يديم عليهم عافيتهم على انا نرى المعلمين يلزمون الاولاد ان يعرفوا قدر ما في الارض من الجبال والاكام والاطام والانهار والعيون والجداول والبطاح والسهول المحروثة والبقاع المعطلة وغير ذلك ولا يعلمونهم شيئًا يوول الى صحتهم كالنهي مثلاً عن شرب الماء في التعب والتكشف للريح وكالاضطجاع في مكان ندٍ والاكثار من اكل الفاكهة وارتقاء الشجر وعدم المبالاة بعواقب البرد والحر ونحو ذلك مما لا بد منه و بودي لو ان بعض الاطباء يولف رسالة في هذا الموضوع وتجبر الاولاد على تعلمها وحفظها كما تجبر على تعلم كتب الجغرافيا وغاية الكلام ان اهمال تربية الاولاد اصلاً لمعظم الشرور والفساد الملازمة للانسان حال حياته فينبغي بذل العناية التامة في

حسن تربيتهم وتهذيبهم حين يكون بهم صلاحية واستعداد لذلك والا فانهم متى ربوا على الفساد ومرنوا على الطلاح فقراءة الكتب لا تجديهم نفعًا

تأبين

١

«لاديب بك اسحق في تأبين المعلم بطرس البستاني»

كذا فليجلَّ الخطبُ وليفدح الامرُ   وليس لعين لم يفض ماوها عذر

ان هذا المصاب مصاب جسيم · ان هذا الخطب خطب عميم · انها لمصيبة وطنية يقل في مثلها بذل الدموع · انها لنائبة عمومية لا يكثر في نظيرها تمزيق الضلوع · اجل ان المصيبة فيك مصيبة الوطن يامن انفقت العمر في خدمته · مقدمًا مجتهدًا صابرًا متجلدًا متعففًا مستقيمًا · فلا بدع ان تبكيك العيون · ولا غرو ان تنفطر لفقدك القلوب او لم تكن فينا مثال الفضل والاجتهاد · ونموذج البراعة والادب وعنوان التجلد والثبات في خدمة العلم · بذلت في هذه الخدمة شبابك · ووقفت على هذا السبيل اتعابك وجعلت العلم غايتك القصوى من دنياك فكان لروحك روحًا وكنت لذاته قوامًا

فاي اثر ادبي رأيناه ولم تكن انت البادي به او الداعي اليه واي مشروع مفيد شهدناه ولم تكن انت الشارع فيه او المعين عليه · او لست اول من خط على صفحات القلوب ورسم على صحف الجنان «حب الوطن من الايمان» واول من اقدم على المشروعات الجسيمة العلمية بهمة لا تخاف المصاعب والعقبات ولا تألف الا صدق العزيمة والثبات

باي آثارك لا تذكر · وبايها اذا ذكرت لا تشكر واية عين ترى اعمال يديك ولا تفيض دمعًا بل دمًا حزنًا عليك وما الذي نذكره من آثار اجتهادك في استمرار ارتيادك ولا نجده عظيمًا أمواظبتك على خدمة العلم والادب اربعين عامًا او تزيد ام تآليفك وتصانيفك الغنية بشهرتها عن الوصف أمحيط محيطك ام قطر محيطك · ام مدرستك الوطنية التي ملأت بها الوطن انوارًا · ورفعت فيها للادب الصحيح منارًا · ام جنانك التي غرست فيها اغصانًا من العرفان من كل فاكهة بها زوجان · ام جنتك

الزاهرة الدانية القطوف · ام دائرة المعارف التي · · · كدنا نخاف ان تدور الدائرة عليها لولا الامل فيمن أبقيت لها خلفًا كريمًا · يحقق رجاء المحبين ويتم أمنية المستفيدين · اجل يتم الامنية ويحقق الرجاء فيكون به للوطن عزاء

في الاثر المأثور يا سادتي « من علمني حرفًا كنت له عبدًا » فمن منا لم يعلمه هذا الفقيد حروفًا من منا لم يستفد منه فوائد صنوفًا · تصانيفه في كل فن · من مدرسته الوطنية · من جرائده الزاهرة من آثار معارفه في كل موضوع ومن منا لم يدفع الملل في اوقات الفراغ · ويغلب الضجر في ساعات الراحة · وينزه الفكر بعد تعب الاشغال بتلاوة ما كان فقيدنا يحيي لانشائه الليالي الطوال · فكيف لا نرثيه وكيف لا نبكيه وكيف لا نستعظم المصيبة فيه

اي هذا الراقد تحت ظلال الرحمة والرضوان لقد عشت سعيدًا مفيدًا وقضيت حميدًا فقيدًا · وان كان عموم الاسف وشمول الحزن مما يبرد ثرى و يجلب غفرانًا فقد جادت تك سحب الرضوان والغفران مسوقة الى ثراك من كل مكان مستمطرة على ضريحك بكل لسان

نم سعيدًا يامن قضيتَ فقيدًا بجميلٍ قدَّمتَ بين يديكا
انتَ احسنتَ في الحياة الينا احسن الله في الممات اليكا

٣

« لاسكندر افندي العازار في تأبين اديب بك اسحق »

قال ·

ما طلعت على اديبنا شمس الخميس وما عرف في صباحه وجهانيس استحكمت منه علة الصدر فما دفع الاطباء عنه مقدورًا وما محا الاحباء ما كان مسطورًا وما راقب الموت فيه اهلاً ولا عشيرًا فتلاشى نفسًا في نفس وقبضت روحه عند الغلس فمات وعيناه البرقيتان منفتحتان ترسلان نورًا كانهما محدقتان الى فضاء الابدية

قضى في سفح لبنان حيث التمس العافية من الهواء والماء ومن اين للداء العياء دواء فاتصل نعي وفاته ببيروت الآسفة فلا تسل القلوب عما تمزق ولا الصدور عما توقد ولا العيون عما جرى انك تكاد لا تجد الا رأسًا قلقًا وصبرًا مفترقًا ودمعًا مستبقًا وقلبًا محترقًا فيا لله ما هذه البلية

كان رايتنا في علم اللسان وآيتنا في صناعة البيان وغايتنا في حب الانسان كان والله فتىً ولا كالفتيان جريئًا في الحق ما اخذته فيه لومة وما رهب فيه وعيداً بل ما كان له شعارًا في هذه الحال او مثلها من الاحوال الا قول من قال

واذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز ان تموت جبانا

فعاش حر الضمير فكرًا وقولاً وفعلاً ومات حر الضمير فكرًا وقولاً وفعلاً يبكيه ضمير الاحرار وتندبه الحرية نشأ وطنيًا خالصًا صحيحًا وعاش جنديًا لاشرف الاصول واسمى الغايات وانفق في خدمتها من روحه ما كان ينفخ في القلم من الروح وجاهد جهادا جنسيًا بنفس كبيرة اعيت بدنه وقوضت اركانه فصح فيه

واذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الاجسامُ

فمات شهيدا حميدا فقيدا وحق لاسمه ان يخلد الى الذرية

كان زهرة الادب في الشام وريحانة العرب في مصر فلا عجبًا اذا الفيت بنسيانه احشاء الشآم شحاحًا او لفقدانه امتلأت نواحي ارض مصر نواحًا اي والانسانية كان للانسانية نصيرا ولاعدائها نذيرا وبالانسانية بشيرا فلتبكه الانسانية

و يا اخوان اديب المنتشرين في الارض مات اديب وادرج في كفنه واصابت الديدان مقيلا في بدنه واخرسه الموت في ترابه وحيل بيننا وبين خطابه فابكوا ما وجدتم في العيون دموعًا ولا تسالوا قبلته الوداع فقد قبلته عنكم جميعًا وقد

ودعته و بودي لو يودعني طيب الحياة واني لا اودعه

دفناه وتركناه ولو اقمنا ما نفعناه وهو من قبل قد نزعت اليكم روحه شوقاً فاوصاني بالقاء التحية

وانت ياشقيق الروح يامن اوحشت الدار ومن فيها وانست القبور وساكنيها يا موبن الامراء وراثي العلماء وباكي الادباء والكبراء والفقراء يا ايها الراقد بلا حراك ولا يجدر بتابينك سواك يبكيك القلم يا اميره والحق يا اسيره يبكيك الاهل والاحباء فقد كنت ودودًا حبيبًا و يبكيك الشعراء والكتاب والخطباء فقد كنت شاعرًا وكاتبًا وخطيبًا . تبكيك المجالس ياخير جليس وتبكيك محاضر الانس يا خير انيس تبكيك صحف بعبراتها وترثيك صحف بعبراتها ولا تسل عمن استرهن الامور باوقاتها فترجمة حالك ستفضح ما كان مستورا تبكيك افاضل الكهنوت الحق انك كنت للافاضل عضدا كريمًا تبكيك الجمعيات الادبية تبكيك بكاء اندروماك

انك زهرة الآداب ياغصنًا نضيرا ونسقيك الذكرى في كل عشية

واما الكئيب الكاسف البال رفيق صباك واعمالك واخوك في جهادك ٠فاجثو بالذلة والاكتئاب عند ذلك التراب واستمطر دمع العين لهفًا واستوقد نار الصدر اسفًا وابكيك وارثيك ما بقي لي من الحياة بقية

واقسم بوحشتك آنسها الله وبغربتك رحمها الله اني مقيم على ولائك محب لاحبائك عدو لاعدائك لا عزاء لقلبي ولا سلوان الا التاسي بان تجمعني واياك ظلمة الابدية

فحسبي شجوًا ان ارى الدار بلقعًا خلاء واشلاء الحبيب ترابا

٣

« لسليم افندي نقاش في تابين اديب بك اسحق »

كذا فليجل الخطب وليفدح الامرُ وليس لعين لم يفض ماؤها عذر

امن حد الاقلام ان تجري بعد فقد الاديب من المحابر امن واجب الدموع ان تبقى بعد هذا المصاب مصونة في المحاجر ٠امن العدل ان نعاف اليوم من اثواب الحداد امن الغرابة ان نفقد بهذه الفاجعة الهدى والرشاد ٠ لا والاسف وحر نار اللهف فقد ثل عرش الفضل ودك طود الذكاء والنبل وغاض معين البراعة وشوه وجه اليراعة وبدد شمل البلاغة واختل نظام الانشاء وكان لا ياخذ محاسنه العد والاحصاء وانقبضت الصدور واضطربت القلوب واندهلت البصائر وشخصت الابصار فعمت الاحزان واستولت الاكدار وحارت الافكار

وغاضت ينابيع المسرة وانقضت ليال بها كم كان للانس اوقاتُ

واصبحت الآداب تندب حظها تقول مضى سعدي واهلي قد ماتوا

كيف لا

والدهر فوق نحو العلي مهمًا وهذا السهم كان المصيب

تبًا لهذا الدهر من خائن لم ينج منه فاضل او اديب

اجل لقد ارسلت المنية رسلها فاختطفت زهرة الفضل الزاهرة وفغرت الداهية الدهماء فاها فابتلعت درة الادب الباهرة

والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الغوال

ومن ذا الذي يسمع بافول بدر المعارف وغروب شمس اللطائف

ولم يسل من عينه ادمعًا　　تساجل السحب وفيض البحار

ولم تروع قلبه حسرة　　تلون الوجه بلون البهار

مضى الاديب الذي كان للعلم حرزًا وللبلاغة كنزًا وللفصاحة ركنًا وللسماحة حصنًا

هيهات ان يأتي الزمان بمثله　　ان الزمان بمثله لبخيل

مضى فكان الهول هولا صير بياض العيش سوادًا ورحل فكان الخطب خطبًا جعل نور الحياة ظلامًا

واني لابكيه واني لصادق　　عليه وبعض القائلين كذوبُ

مضيت واي مقلة ايها الاديب لا تذرف الدمع عليك صبيبًا واي امرءٍ من مفتوني ادبك لا يتفجع عليك بكاءً ونحيبًا فارقتنا ونأيت وما اصعب نأيك وفراقك ورحلت عنا ومضيت ففجعت برحيلك احبابك وعشاقك وقد اطمعتهم يوم وداعك بامل اللقاء ووطدت رجاء الاجتماع يوم لثموك في السفينة لثمة الاخاء فما كان العهد بهجرك ان يكون اليوم مزيل الصفاء مذهب الهناء لا صبر بعده ولا عزاء

ولو قسم الحزن على فقدك اعشارًا لاصاب عشرٌ منها والديك وآلك وعشرٌ اصدقاءك وخلانك والادباء الذين عرفوا قدرك وشانك وعشرٌ كل من سمع بك ورآك او علم برفعة مقامك واصابني انا السبعة الاعشار وما ارضاها قسمة ضئزى اكون بها اقل من الجميع حزنًا عليك لا سيما انك غبت عن العين ولم اثمك لثمة الوداع قبل ان تغمض وا اسفاه عينيك

ولو جمعت في رثاءك ما قيل في الدنيا من رثاء لما جاء وافيًا بجزءٍ من الواجب وهيهات ان يوفيك حقك منه الا من هبطت عليه اسرار بلاغتك وأُعطي منحة براعتك وكان لك في البراعة قرينًا وفي سرعة الخاطر ندًّا ومثلا

وقد شهدناك في ابان شبابك تاخذ بناصر المبادىء [illegible] وتؤيد شأن القواعد الصحيحة فدلنا ذلك على انك لست من ابناء هذا الجيل وليس اهله اقرانك بل انك سابق بمئات من السنين في الوجود او انك وانه سيأتي على الاعصار القادمة زمنٌ يذكرك اهله بما نشأت عليه في زمانك فينادونك قم ايها الاديب هذا عصرك الخليق بك فقد وجد فيه رجالك وهم بك حريون قم وانشر فيهم

مبادئك وتعاليمك فهم لك مصغون وا شأنك معظمون

فقدناك يافتى النبهاء بالغاً مبلغ الكهول من الحكمة ولم تبلغ الثلاثين من عمرك ولكنك ابقيت لك ذكراً يؤبد دهوراً واثراً يخلد من بعدك اجيالاً فعلم بهما الفضلاء كيف يحيا الذكر ويبقى الاثر

وبمَ تذكرك تذكيراً بادبك انطلاقة لسانك وقد كنت واسطة عقد الخطباء ام بتوقد جنانك كنت خيرة الالباء ونخبة الاذكياء

فكم رأيناك على المنابر تجيل عينيك ملتفتاً نحو ملتقطي دررك يمنة وشمالاً فصيحاً بليغاً قوي التصور حاد الذهن حاضر الفكر سريع الخاطر متين الحجة صحيح البرهان ثابت الجنان

وكم عرفناك في مكاتب الصحف متقلباً بين فنون البراعة بما هو بادي الآثار في جرائدنا شاهداً على سعة معارفك وطول باعك في السياسة والمباحث العلمية والمناقشات اللغوية والمنافسات الادبية والمدح والهجاء والتابين والرثاء وحسن الرواية واحكام طرق الاخبار والحكاية والتفنن في اساليب الجد والهزل والعذل والرجاء واللوم والعتاب والتنصل منهما بمناصحة الخلان والاحباب والمغازلة والمداعبة والحزن والطرب وسائر فنون الادب وكليات الامور وجزئياتها على اختلاف احوالها وصفاتها

وبم نستوفي ذكر محاسنك ونستجمع بقية اوصافك واحاسنك ابفن القريض وقد كنت ابن بجدته وقائد نجدته مقتبساً مبتكراً مجيداً مؤثراً مرقصاً مطرباً محزناً مبكياً تلعب بالعقول بين الرقة والانسجام وتاخذ بالالباب على ابدع نظام في نظم الكلام ام برقة جانبك في المعاشرة ولطف محاضرتك في المصاحبة ام بحسن وفائك وجميل ولائك وبشاشة وجهك وكرامة طبعك

وبم نمثلك لدى العين في سجاياك ومناقبك ومزاياك ابالاداب وقد كنت صحيحها من غير تصنع ولا رياء ام باخلاقك وطباعك وقد كنت حاد الطبع سريع التاثر والانفعال غير حقود او جحود طيب القلب سليم النية عنبري الصيت مسكي السمعة مستقيم الشان رضي الخلق لا يتولاك الحسد ولا يتملكك الطمع ملتهباً غيرة على ابناء جنسك عزيز النفس ابيها طاهر السريرة نقيها انوفاً من غير كبرياء مقداماً جسوراً لا ياخذك العجب آن الفوز والخيلاء حكيماً ذكياً منبسط اليدين سخياً محسوداً على ما كان فيك من النباهة مشكوراً على ما كنت مفطوراً عليه من النزاهة

وبمَ نتخذ بعد ذلك من اثار حياتك سبباً للسلوان وموجباً للعزاء اخطبك واقوالك التي ذكرنا او صفات كمالك التي عددنا . نعم هذه اثارك في الادهار تشهد على سعة علمك بغير بيان وهذه باريسيتك الحسناء تنطق بحسن بيانك بغير لسان وهذه رواية اندرومالك التي لو علم واضعها بما لبنانك عليها من فضل التعريب لا نُبعث مطاطئاً في موقف الاجلال لمقام الكاتب الاديب وهذه جرائد مصر والتجارة والعصر الجديد والمحروسة والتقدم وغيرها مما جاء مطوقاً بقلائد فصاحتك السحبانية محلى بفرائد حكمتك اللقمانية وجاء معلناً انك لم تكن فيما اجدت به وابدعت الا ايامي الذكاء اخطلي الادب وهذه المؤلفات العديدة والمنشورات المفيدة التي اشتركت مع اربابها في التاليف والتصنيف فكانت دليلاً على اجتهادك وسعيك في نفع بلادك . وهذه سورية تفتخر بكونها مسقط راسك ومطلع شمسك وهذه مصر تنافس بك الامصار وتفتخر بكونها مظهر فضلك ومجلى افكارك

وكيف يسلوك اهلها وقد كتبتَ اليَّ منذ سنة في احدى رسائلك تقول . آه لو ارى مصر نظرة اخرى في حياتي . وقد نلت اربك وبلغت مناك فجئتها ورايتها فاكرم امراؤها وفادتك ماهلين بك مرحبين ثم نابت عنها على امل العود اليها بعد الشفاء فحال واحسرتاه بينها وبينك الداء فكانوا عليك آسفين وبما ذكرناك به ذاكرين

وكيف اسلوك يارفيق الشباب وكنت ان نمت رايتك في منامي وناجيتك في احلامي وان صحوت رايتك الى جانبي وامامي وان تكلمت كنت موضوع كلامي وان كتبت سبقتني الى ذكرك اقلامي

فمن اين لي بعد ذلك ان اصبر على عظم هذه المصيبة فيك ومن اين لي ان ارى بعدك مثل الدرر التي كانت تتناثر من فيك فوا اسفاه على اوقات نقضت بقربك وواحسرتاه على زمنٍ كان به قضاء نحبك الزمن الذي كان يتوقع فيه ابناء بلادك زيادة النفع باقدامك واجتهادك فتق وانت تحت الثرى اناديك حياً بذكرك اني لا اسال بعد هذا الخطب صبراً قليلاً كان او جزيلاً فقد رايته بعين الحقيقة امراً مستحيلا ولكني اساله لوالديك واخويك وآلك وسائر محبيك وخلانك

وكفى لتعزيتي ان لا اجد على فقدك من

يظنُّ انَّ فؤادي غير ملتهبٍ   وانَّ دمع جفوني غير منسكبِ

« للد ... ور سليم ... في ... بن ... افندي نقاش »

لقد وحدت مجال القول ذا سعة ... وحدت ... قائلاً فقل

نعم وجدت مجال القول ذا سعة وا ... زيادة يحظى فيك الخطباء أيها الشيخ الجليل الفقيد الكريم ... عامل الحزن سطا على الفؤاد فاضحى اللسان قاصرا عن ان يفيك حقك انت الذي عشت مدافعاً عن حقوق العباد

لما وقفت منذ نحو ثلاث سنوات ... فقيدكم العزيز يا آل نقاش الكرام بكيناه اوانئذٍ شاباً في زهرة العمر وربيع الحيوة ... بكينا في موته مستقبلاً منيرا كان ذلك الهلال يؤمله ... اما الان فانا نبكي معكم نجماً معمراً او بدراً كاملاً ... نبكيه لانه كذلك ... لانا فقدنا بفقده رجلاً فاضلاً

اذا عدّت رجال الدهر يوماً ... بواحد ... الغير

نعم ... النقاش ... فنقش ... سينقش ذكره على صفحات التاريخ ... قضى من ... والعلم والهمة والنشاط والغيرة والاقدام ... قضى ... لاعناق لاستماع درر الفاظه عند وقوفه بين ايدي القضاة ... قضى ... كان خادماً اميناً لدولته ورجلاً عظيماً في ...

ايها المتوسد الان ... الموت بعد ان كنت بقوة جنان وسديد ... نعم نبكيك ولسنا في النوح عليك نتفرد ... لانك كنت ... نصرائها ... يبكيك الوطن لانك كنت من ... تبكيك الطائفة لانك كنت عين اعيانها الصدد ... الامور ويبكيك المتداعون لانك كنت ... يبكيك الطلبة لانك كنت لهم استاذا من نخبة ... الاعلام بانبراسها . ويبكيك اصحاب الاقلام بامصباحها . يبكيك ... من اعلى المنابر والشعرا والبلغاء والفصحاء لانهم فقدوا بفقدك ... يبكيك الفقراء لانك كنت لهم في

الحاجة ملجأ كريمًا . يبكيك الادباء والظرفاء لانك كنت سيد الادب والظرف . ومعدن الرقة واللطف . فلا نستغرب اذا رأينا اولادك وذويك يشقون عليك القلوب قبل الجيوب ويزرفون عليك الدم عوض الدمع . لاننا نرى ان كل من عرف بخطبك يشاركهم في البكاء والنواح . على اننا نعلم بانك لم تمت حيث خلفت من بعدك من يخلد لك الذكر الحميد نعم خلفت اولاداً اشربتهم العلوم والاداب وربيتهم على مثالك الكريم وتركت لهم من الصيت الحسن والشهرة الطائرة ما يبقى لهم دعوى في مستقبل الحين وابقيت لهم اصدقاء من خاصة القوم يشاركونهم في السراء والضراء لذكراك تخدمتهم مدى الحياة وبعد الممات وهذا ما يسليهم يخفف وطأة الحزن عليهم فنم الآن مطمئناً ولتسكب السماء على ضريحك غيوث الرحمة والرضوان . ولتسكن روحك في فسيح الجنان وليبقَ ذكرك خالداً على كرور الزمان

٥

« لعزيز افندي صعب في تأبين الشيخ خليل اليازجي »

رنة الخطب

الموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد

جار الدهر علينا فلا ندري انى نتقي فتكات سهامه وحاربنا الزمان فلا نعلم كيف ندفع عنا نوازل احكامه وتوالت علينا الارزاء الوطنية فلا نسلو رزءًا الا وتفاجئنا الايام برزء اشد يسيل له الجماد لا صبر على مصيبة حتى تروعنا بخطب افتك يتفطر منه الفؤاد فانما هي الدنيا تسترد ما تهب وتمحو ليلها جودها كل بخلا . فهي مشغوفة بالغدر لا تحفظ لنا عهداً لا تتم وصلا فكم اصابتنا بالافذاذ ممن بامثاله الاعصار . وآحادا يعدون بالالاف من الرجال لا يشق لهم غبار حرمتنا جهابذة كان وداعنا لهم تباعا وابتزت منا فرادا كان مماتهم ... ثم جلوا بكلامهم الابصار العليلة وشحذوا بريق ... القرائح الكليلة وكم نهجوا لنا الطريق الواضح . واماطوا عن وجه الحقائق غشاوة العمى فاخترمتهم المنون في ... ريعان الشباب وريعانه . وخيم عليهم الموت عند شدة افتقار الوطن اليهم ... ولو امسك الدهر على هذا القدر من الرزايا الجسام ... قصرنا لى خطوبه .

وان كانت امر من الصبر · واحر من الجمر · ولكنه انبثق علينا انبثاق السيل · واندفع اندفاع القضاء المنقض بصواعق الويل · فثكلنا من تقوضت لهول مصرعه اركان العلم والادب · وغيضت لنضوب منهله مشارع الفصاحة والخطب · فهو خطب خفقت له القلوب وشقت عليه الجيوب · وخبر تهدجت به في الافواه لسن الفصحاء وتعثرت في مجال الطروس اقلام البلغاء · ومصاب استكت له المسامع · وارتجت له الاضالع فالدموع واكفة والجوارح واجفة ولو يفتدى الراحل لفدته منا الاحشاء والمهج ولبذلنا من دونه كل نفيس ولا حرج · كيف لا وهو سليل بيت العلم والنباهة · وفرع شجرة الادب والوجاهة · الشاعر المطبوع والكاتب النحرير المغفور له الشيخ خليل اليازجي نجل من صار صيته في الافاق · وطارت شهرتـه حتى كادت تبلغ السبع الطباق · استأثرت به المنية رطب الشباب · غض الاهاب وقد ملأ الاسماع والقلوب من الفاظ خيطت على قدود المعاني · ومعان مبتكرات قد تجلت في ابهى من السندس من فصيح المباني · واسفار علمية وروايات شعرية وقصائد قامت على منابر الفتها خطباء البلاغة · وصدحت على اغصان سطورها حمائم الفصاحة · فكان لا يمر علينا يوم لا نرى له في عالم الادب رثياً جديداً ولا يجتاز بنا حين لا نسمع له في مجالس العلم ذكراً حميداً

فيالك من فقيد قضيت شهيد المحابر · وعزيز مرت بك الكوارث فكنت عليها صابر فهل لنا كلام يفي بتعديد رثائك · ولسان يقوم بمحاسن ثنائك · فلو كنت في موقفنا هذا الحرج لكان لك ما نتمناه ولكنه واحر قلباه · لقد نزلت حفرة اظلم من يوم الكرب واحرج من فناء القلب · واقفر من عيشنا من بعدك · واوحش من انسنا بعد بعدك · فاصبحت بعد النضارة ورونق الحياة جسدا هامدا · ورفاتاً سحيقاً ونفساً خامداً · فاحرص عليه ايها الرمس حرص الايام على اثاره وارحمه رحمة القلوب لشبابه · واعلم ايها الراقد رقدته الابدية بان ليلنا بعدك قص جناحه · وطفىء مصباحه · وضل صباحه

فكيف رياض العيش تبسم بهجة ونرجو حياة بعد ما هلك القطرُ
وكيف يرجى الليل بعدك آخراً وفي ظلمات الارض قد دفن الفجر

لولا انك صبرت قبلنا على مثل ما نرتاد به صبرا جميلا لانفذنا عليك ماء الشؤون · واجـ نا العيون من العيون · اللهمَّ ارحم غربته · وانس وحشته ·

واجعله من تنزلك مقرّبا · ومن لدنك محببا · وجلله بعفوك الكريم واكنفه ببرد النعيم · انك الرؤوف الرحيم

اما انت ايها الشيخ الفاضل (١) · والامام العلامة الكامل · فقد عرفت الليالي فلما دهتك لم تزدك بها علما وسبرت غور الايام فلا تخشى لفتكاتها سهما · اجل ان الخسر لعميم عظيم ولكن العظيم على العظيم صبور · وانت اعلم الناس بان الدنيا غرور · ودار الشرور · ولعل هذا السهم اخر ما في كنانتها · وانكى ما في خزانتها · فلا اراك الله بعده سوءا تنفطر له الاكباد · و ينصدع له الجماد · ولنا بك التعزية اذا كان لا بد من التاسي على فراق الخليل · وبحبيب الرجاء الوطيد ان يقيم بعد ابيه الذكر الجميل · والله يلهمك وايانا الصبر بمنه وفضله · وبيل ثرى الخليل بصيب رضوانه وو بله · انه سميع مجيب

٦

« ليوسف بك اصاف (٢) في تأبين احمد افندي فارس صاحب الجوائب »

خطب جلل

كذا فليجل الخطب وليفدح الامر وليس لعين لم يفض ماؤها عذر

نحن اليوم في موقف حزن ورثاء · ومقام نوح وبكاء · لمصاب عظيم · وخطب جسيم · يقل في مثله ذرف الدموع · ويكثر في نظيره تمزيق الضلوع · كيف لا وقد ثل عرش الفضل · ودك طود العلم والنبل · وغاض معين البلاغة · وقضى مثال الادب ومات قس الفصاحة · فعمت الاحزان واستولت الكروب · وشملت الاشجان · جميع الافئدة والقلوب

جاءنا نعي وفاة « فارس الزمان » بلسان البرق منبئا بانقضاض المنون عليه دون ان ترحم قلبا يتمزق · وشمل رجاء يتفرق · فاسترسلنا الى الكآبة والتاسي · والحزن والبكاء · باكين ولكن بكاء الخنساء · على زوال مثال الشهامة وانهدام

---

(١) يريد اخاه الشيخ ابرهيم اليازجي العلامة الشهير

(٢) كان يوسف بك وقتئذ متولجا ادارة جريدة القاهرة الحرة وتحريرها في القاهرة وما ياتي منقول عن عدد ٥٢٣ و٥٣٤ منها

علم الكرامة

فضى « واحسرتاه » المغفور له (احمد فارس) مأسوفًا عليه . من الادب وبنيه . والفضل وذويه مات ولكن ذكره لم يمت ما دامت الارض ارضًا . والسماء سماء . مات (وا اسفاه عليه) عند الساعة الثامنة من ليل ٢٠ سبتمبر في الاستانة العلية بين ذراعي نجله السليم وما اتصل نعي وفاته بوجهاء الاستانة وعظمائها حتى هالهم الخطب وشملهم الكرب وسكبوا على فقده الدمع سخينًا

واي امرء لا يذرف الدمع عليه صبيبًا ولا يتفجع بكاء ونحيبًا . وقد كان شعلة الذكاء ومثال الولاء . واسع الاطلاع . طويل الباع . في العلم والادب . حر الضمير صحيح القاعدة . كاتبًا مشهورًا طائر الصيت ولغويًا عالمًا فاضلاً . قوي التصور . حاد الذهن . فضى العمر بين الموائد والمحابر فالف وصنف كتبًا نفيسة جليلة الفائدة . جزيلة العائدة . منها (سر الليال . في القلب والابدال وهو يحتوي على تبيين معاني الالفاظ وانتساق وضعها . وكتاب الواسطة في احوال مالطة . وكشف المخباء عن فنون اوروبا والجاسوس على القاموس) وكتبًا كثيرة في النحو العربي والصرف . وفي اللغة الانكليزية والفرنسوية مما يضيق المقام عن سردها

وجاء القطر المصري على عهد ساكن الجنان عباس باشا فتولى تحرير الوقائع المصرية وافتتن قراءها ببلاغة اقواله . وفصاحة الفاظه . فانه كان طلق اللسان . متوقد الجنان . واسع المعارف طويل الباع في السياسة والمباحث ولما بارح القطر المصري تسوح في تونس وباريس ولندرة وله جملة اقوال وصف بها اطوار الفرنسيس وطباع الانكليز وشهامة العرب

وثم اقام في الاستانة العلية فانشأ فيها الجوائب عام ١٢٧٧ هجرية وتقلب في كتابتها بين ضروب البلاغه . وصنوف الفصاحة . فولع الناس بقراءتها وعلقوا بمطالعتها فتهافتوا الى الاشتراك بها . مقبلين عليها اقبال الجياع الى القصاع فانه كتب في جميع المواضع احسن مايخط ويكتب وقد كانت عبارته تنطلق بين الرقة والانسجام فتفتن الالباب وتلعب بالعقول على ابدع نظام وكان العظماء والوجهاء يتباهون باقواله ويتفاخرون باشعاره . يعجبون بالفاظه واي اعجاب

وحق يقال انه خدم العلم وفن الانشاء في الجوائب خدمة جليلة تخلد له الآثار

الجميل والذكر الحسن ما كرت الايام . ومرت الاعوام . فكم من الاقوال النفيسة في اللغة والسياسة والمدح والرثاء والجد والهزل . اللوم والعتاب والحزن والطرب . وسائر فنون الادب عدا عن قصائد غراء . ومنظومات عذراء جادت بهـا قرائح الافكار فكانت درة يتيمة بين القصائد والاشعار

ومجمل القول ان جميع ما فاه به ونطق وجاء مسطوراً على صفحات القرطاس كان مطوقاً بقلائد الفصاحة معرباً عن فرائد الحكمة وجميع مؤلفاته العديدة وكتبه المفيدة جاءت دليلاً على سعيه واجتهاده في نفع بلاده

وله خدامات جليلة قام بتاديتها نحو دولتنا العلية بكل صدق واخلاص فاستحق بذلك ان يكون اهلاً لاسمى نياشينها الافتخارية وقد خدم افكار رجال الدولة العلية في سائر كتاباته السياسة ولم يبخل بارائه السديدة عند كل ملمة كانت تحدث في الولايات (المحروسة) فكان في جميع المعضلات يصف الدواء للداء غير خاش في الحق لومة او ملتبس بمظاهر الخداع والمخاتلة

وكانت جرائد باريس الخطيرة وصحف لندرا الشهيرة . تاتي بذكره كثيراً . في اغلب اقوالها عن سياسة الشرق مستندة في ارائها عليه مقدرة اياه حق قدره . فتصفه بالسياسي المشهور . والاخباري الطائر الصيت . والكاتب الالوذعي الفاضل وغير ذلك من الاوصاف التي لا تليق الا له ولا تجدر الا به

وكانت منزلته عند كتاب الصحف في اوربا وعلماء الغرب والشام ومصر والعراق ونجد و بغداد سامية جداً فمدحه جميع الشعراء . واثنى على فضله جميع الخطبا والبلغاء من سائر البلاد العربية حتى من اقاصي الهند و بلاد فارس

وكان كريم النفس ابيها رضي الخلق لا تاخذه الحدة عند الغضب . ولا يتولاه العجب . عند امتلاك الارب . لين العريكة طليق الوجه . محباً للخير وفعل المبرات ميالاً الى المساعدة والاسعاف وما من قادم الى الاستانة كان يقصده في قضاء لبانة و يعود خاسئاً خائباً

فوا اسفاه عليه . نعى الينا البرق وفاته فكان نعيه رنة حزن في القلوب . اورثت لنا الكمد والكروب فاين نوادب الفصاحة ترثيه وعرائس البلاغة تبكيه . وتباً للموت كيف لم يوقر شيخنا الجليل وعالمنا النبيل . فاقترب منه واخنى عليه دون ان تاخذه هيبة من وقاره او ترهبه هيئة اجلاله . كيف مسه باصابع الاذى الا شلت

بداه كيف اختطفت من كان لعين البلاغة قرة ولفضل والعلم فرحة ومسرة · على حين ما كنا نخال انهدام عماد الفضل وانزواء الانجم الشهب

ما خلت ان عماد الفضل ينهدم حتى قضى الرجل السامي الذرى العلم

وواهفاه كيف يواري التراب شخص الكرامة ومثال الشهامة فان واراه لا يواري معه طيبات اعماله المشكورة وآثار فضله وغيرته المأثورة

ما كنت اعلم قبل موت فقيدنا ان القبور منازل الاقمار

غير ان تحت الارض رجال فضل ونبل وفي القبور درر وجواهر

فالموت نقـاد على كفه جواهر يختار منها الحسان

ولد هذا الحبر العلامة في قرية (الحدث) من اعمال لبنان ولم ينفطم عن الرضاع حتى ظهرت عليه مخايل النجابة ولما ترعرع ادخله والده مدرسة (عين ورقه) فتلقى العربية ونبغ فيها حائزًا قصب السبق على اقرانه وما بلغ العاشرة من سنيه حتى اشتهر في نظم القريض وكان فكره دائمًا يحوم على الشعر ويتصدى لنظم كل ما يخطر بباله من المعاني ولما حضر الى مصر تعرف بالاديب البارع نصرالله افندي الطرابلسي الحلبي والشيخ محمد شهاب الدين فلازمهما واستفاد منهما فوائد جمة في اللغة والادب · ومدة اقامته بمصر طالع كتاب (صحاح الجوهري) وديوان المتنبي وكتب مشاهير العلماء فاقتبس منها اختيار الالفاظ وسبك العبارة · وكان ولوعًا جدًا بقراءة الشروح التي تبين ماخذ الكلام من اللغة · ووجوه التصرف فيه ومن وفرة المطالعة استطاع في وقت قريب بما فيه من توقد الذهن على تصوير معان في الفاظ مناسبة فانصب على الشعر وكان يستعمل في الغزل الفاظًا رشيقة فائقه · وفي الحماسة الفاظًا جزلة فخمة وفي الرثاء الفاظًا محزنة تاخذ بمجامع القلوب وتنطوي على سبك المعاني في قوالب الفاظ تشف عن بلاغة تتخللها انواع البديع كالجناس والترصيع والتورية دون كلفة وقد نبغ في جميع فنون الشعر واشتهر بالحماسة والغزل · والمدح والهجاء · والمجون · وباقي العلوم · كالنحو · والصرف والاشتقاق والمنطق وهذه مزية ما امتاز بها احد من العلماء قبله · وله جملة قصائد في التطريز والتشطير والتخميس والتسميط وحبك الطرفين في غاية البلاغة والانسجام فضلاً عن انه كان في النثر كاتبًا لوذعيًا

هيهات ان ياتي الزمان بمثله ان الزمان بمثله لبخيل

بليغ العبارة فصيحها يكسب الالفاظ فخامة وطلاوة والمعاني دقة وانسجاما وقد كان

طويل الباع في احكام طرق الاخبار والتفنن في ضروب الحكاية وما من علم عرف في زمانه · حتى بذل فيه جهد امكانه · فجعله محور عمده · وقبلة قصده · فسهل حزنه · ووطأ متنه · وصاد شوارده · وقاد اوابده · وصفا موارده · ووفى مقاصده وفتح ابوابه · وراض صعابه · واكب على التاليف في الايام والليالي · متفننًا في الكلام ناظمًا منه عقودًا كاللآلىء · فيارحمة الله على رجل الفضل · وطود العلم · ونجم الادب الآفل · واليف المجد الراحل · فقد كان ريحانة العرب في مصر والشام · والغرب والعراق وسائر البلاد العربية · ولا بدع ان الشرق قد خسر بفقده اعظم عالم وافضل كاتب فباي لسان نفي حق رثائه · واي يراع يستطيع القيام بواجب تابينه · ام اي كاتب سريع الخاطر قوي التصور واسع الاطلاع ياهل الى رثاء (فارس الجوائب) · فليس من يستطيع على القيام بهذه المهمة الا من هبطت عليه اسرار بلاغته · واعطي منحة يراعه · وبرع في الترسل والانشاء · وفاق سواه في سائر الانحاء · ولكن هيهات ان يفي فقيدنا حقه (والهفاه عليه) خسرناه فخسرنا شخص حكمة ووقار · ورجل دراية واختبار · فلنبكه بكاء الخنساء وما استطعنا سبيلاً الى البكاء فليبكه الامراء والكبراء والعلماء والخطباء · فليبكه الشعراء والكتاب والبلغاء والفصحاء · فلتبكه الانسانية وبنوها فليبكه الافاضل والادباء فكان لهم عونًا كريمًا · ولنبكه بكاء مرًا كلما رددنا ذكر الفضل والادب · واسم الحسب والنسب · فعلى مثله يحق البكاء باستمطار دمع العين · وفي فقده يطلب الاثر بعد العين

وله فيه

(تتمة رثاء)

حتى مَ تمطر علينا الكروب · وبلاً مدرارًا · والى مَ تضرم في الاحشاء والقلوب نارا ونارا · (فواسفاه) ما هذه البلية · انها لبلية ضحوك · وشر البلية · ما يضحك (ووالهفاه) ما هذه الرزية · لا شك انها رزية سكوت وشر الرزية · ما يسكت اختطفت منا يابين من كانت تتفاخر به الاوطان · وتسير بذكره الركبان وهدمت فينا يا موت من شاد له في صروح العلوم ذكرًا وكان للمعارف والاداب ركنًا الا شلت يداك التي ثلت عرشه وقوضت ركنه والان اي قلب لا ينفطر على عرش البلاغة الذي اندك · واي دمع لا ينهمر على عقد الامل الذي انفك · فلا شك ان لا يوجد

قلب لا يتوجع وفؤاد لا يتفجع على زوال فارس الزمان الذي مضى فخلف لنا حرقة تذيب الفؤاد · ولوعة تفلذ الاكباد · فياعين استنزفي من جفنك الدموع · و يا بني الاداب الزموا النوح وهاجروا الهجوع · مات (فارس الفصاحة فبمن عدتم تقتدون ومضى قس البلاغة فاقوال من عدتم تقرأون · ذهب الفارس وقضى · وكان في علو الهمة ومضاء العزيمة · والتهالك على حب الانسانية مثالاً به يقتدى · فيافقيدنا المحبوب الذي عشت عزيزاً ومت كريمًا تودعك الاداب بطرف باك والعلوم بقلب شاك تودعك البلاغة بعبراتها والفصاحة بعبراتها · تودعك الموائد والمحابر تودعك الصحف والتآليف يودعك التحرير والتحبير تودعك الاقلام بصريرها وحزن نفثاتها

ومتى ذكرناك · نذكرك بحسن اثارك · ورقة طباعك وفصاحة الفاظك · وسحر بيانك · وعلو همتك ودماثة اخلاقك · وكرامة طبعك · وحسن خلقك واتضاعك ودعتك وسلامة طويتك

غير ان في القلب حسره · وهي انك مضيت ولم يعد مطمع في اقياك · فقل الصبر وضاعت الحيلة ولم يبق فيها مطمع · ولا في قوسها منزع

فيا رحمة الله اهطلي على رمسه · وصبي على قبره · و يارب اسكنه فسيح جنانك وتغمده برحمتك ورضوانك

تهانيء

١

« لسعيد افندي الشرتوني في تهنئة غبطة السيد يوحنا بطرس الحاج »

« بارتقائه المقام البطريركي على الامة المارونية سنة ١٨٩٠ »

الحمد لله الذي جبر الخواطر بعد انكسارها ورد الى القلوب الاطمئنان عقب اضطرابها وكفكف الدموع بعد انهمالها · انعم علينا وله الحمد بحبر حري ان يكون خلفاً للسلف الطيب الذكر الحميد الاثر · جدير ان يكون راس طائفة كبيرة · كفوء لان يجيء بما يوازن الاجماع على اختياره · وهذا الخلف الصالح هو من اشراقات

حكمة الفقيد بل صورة مشربه ومثال نزاهته الا وانه قد صحبه السنين الطويلة وشاركه في امور جليلة وهو ممن اتاهم الله فكرةً وقادةً وبصيرة ثاقبة نقادة وممن محصتهم حوادث الايام حتى صاروا خلاصة صافية وجردهم الزمان عن تغرير الخيالات حتى اصبحوا حقيقة محضة وحكمة بحتة ومن ثم تناعته الناس عوامهم وخواصهم باصالة الراي وتواصفه بشدة العزيمة لانه اراهم من الشهامة المكللة بالفوز في شؤون عديدة ما كتب له ذلك الوصف على الواح قلوبهم ونصب له تلك الصورة امام عيونهم · فحبذا هو من بطريرك يعد غرض مقامه العالي قاعدة اعماله ومرمى مساعيه ووجهة عنايته ومن عرف غبطة بطريركنا الجديد كما عرفته علم انه ممتلىء الارادة لاجابة دواعي المقام شديد الميل الى ان يلبي طلب الايام بل راى فيه رجلاً رسولياً احب ما اليه ان يتفانى في النهوض بما ينهض بلاده ويعزز شأنها ويجعل الصدق سيد اخلاق اهلها وهذا ماضيه في الاسقفية يشير الى منافع مستقبله في البطريركية · جعل الله عهده فيها طويلاً ذلك لان شغفه بتقدم العمران وهيامه بحب المملكة العثمانية يدعوه الى ان يفتح عيون قومه واهل بلاده على رعاية شرائع المملكة ونظامها ويبين لهم عظم النجاح المترتب على حفظها حفظاً صحيحاً لا حفظاً مموهاً فان سعادة كل مملكة انما هي ثمرة احترام شرائعها · ومما ينبغي ذكره بالشكر انعقاد قلوب السادات المطارنة الاجلاء على ايثار المصلحة واجتماع كلمتهم على معاونة غبطته وتاييد فكره في جميع ما يعود على الناس بالنجاح وكفى بهم عزًا وشرفاً انهم اعطوا العالم بهذا الانتخاب بينة قاطعة على انهم يصونون مشربهم العام ولا يتركون لاحد سبيلاً ان يغض منه وكان لسان حالهم ينادي ان بطريرك الموارنة ومطارنته انما هم اعوان مصلحة واحدة ورجال مشرب واحد وليس في مكنة اعظم دهاة الارض ان يفرق بين تلك القلوب المجتمعة على الخير المتالفة على تعزيز الحق · الملتئمة على خفض الباطل ومن هذه الجهة صار لكل منهم نفوذ رئيس الامة برمتها بل كان كلا منهم قد صار بطريركاً ولا غروَ فتلك ثمرة الاتحاد في الراي ونتيجة الاتفاق في المشرب وسيكون عهد هذا البطريرك الجديد ان شاء الله مظهر حكمة عالية ومشهد امور جليلة يحفظ لها التاريخ اشرف تذكار ويخلد لصاحبها واعوانه المطارنة اجل الاثار

فنهنيء مطارنة الطائفة الاجلاء واكابرها ووجهاءها وكل واحد منها · نهنيء افاق البلاد بهذا السيد المغبوط الذي يعرف من يستميل وكيف يميل · ثم نقول ابشر

ايها المقام العالي البطريركي فقد تصدر فيك من يحيي كرامتك و يبين علو نفوذك ويرشد الرعية الى طريق ما يبتغونه . ثم اهنئك ايها السيد البطريرك بانك قد وجدت مجالاً يسع همتك ومقاماً يكافىء نخوتك وطائفة كبيرة يتفاخر رجالها بائتمار امرك . اطال الله لخير البلاد ايامك وضرب على اهلها بدعائك سرادق الامان . في باحات الخصب مدى الزمان

٢

« وله في يوبيل سيادة المطران يوسف الدبس رئيس اساقفة »

« بيروت على الطائفة المارونية في ١٩ اذار سنة ١٨٩٧ »

« غلاء العمر ورخصه »

ليس لدى الخطباء في هذه الحفلة الشريفة الا موضوع واحد موضوع التهنئة لهذا الحبر الفاضل باليوبيل الفضي الاسقفي الذي اقترحته له علينا جلائل آثاره وتقاضته منا بواهر اعماله فلا تحسبن من ثم ان ما يقوله الواحد هو في معنى ما يقوله كل من عداه افتراض اننا نخرج الكلام بصورة واحدة او بصور متشابهة حتى اذا سمع السامع خطبة كان كأنه قد سمع سائر الخطب او أنشد قصيدة كان كانه قد انشد سائر القصائد فتاخذه السأمة سلفاً فيصير مثله بعد الخطبة الاولى مثل من نقص عليه قصة ثم تعادله مرة في اثر مرة او مثل من يجلس الى المطرب سحابة يومه ولا يسمع منه الا نغمة واحدة فان كانت في الحلاوة كالعسل تعود في المرارة كالصبر

ولكن ليس الامر يارعاكم الله بهذه المثابة بل نحن وهذا الموضوع كاصناف النبات في الارض كل نبت يأكل من ثراها و يشرب مما يقع عليها من ماء السماء او يجري اليها من مياه الينابيع لكن كل نبت يجيء مختلفاً عن الاخر ورقاً وثمراً وطعماً ذلك ان كلا يحيل غذاءه وشرابه الى طبيعته فكيف التفت ترى الشواهد ماثلة ناطقة بما قلت ترى التين والزيتون والصنوبر والورد والقلام والحنظل والعوسج في البقعة الواحدة وليس منها ما يشبه الاخر بل ترى لكل ما يميزه عما عداه كذلك الخطباء والشعراء اليوم كل منهم يجتذب هذا الموضوع الشائق بما فيه من الرفعة للعلم والفضل من الجهة التي يراها اشد تاثيراً في طبعه واقرب من سواها امتزاجاً بهواه واعلى من غيرها قيمة

في عينه واغلى مما عداها ثمناً في نظره وكفى بهذا سدّاً لباب الملل وان طال عليكم وقت الاحتفال بل ياحبذا هو من معرض فكري تعرض فيه على الاسماع بضائع الافكار وبدائع الاذهان فيكتب لشعر هذا العصر وخطبه حكم الفضل على ما كان يعرض في سوق عكاظ ومربد البصرة من قصائد المفاخرات بما هو دون ما نفاخر به في هذا اليوم من انتصار الفضل والعلم وابتسام ثغور المجد والجاه لهما واهتزاز المنابر وتهلل الكنائس شكرًا لله على ما آتى عبده الامين من النعمة حتى تقضى عليه ٢٥ سنة في رئاسة اسقفية بيروت منقطعاً للاشتغال بما يهذب الاخلاق و يصلح الاحوال ففعل بعون الله في هذه المدة ما ينفذ الزمان ولا تنفذ منافعه وجدد بهذا الصنيع تذكار ما لرجال الله من فضل السبق في كل محمدة ومأثرة وانطق الجميع بالترحم على حجة المورخين الطيب الذكر البطريرك بولس مسعد لتقليده اياه زمام هذه الاسقفية فانه اتم بل زاد كثيرًا على ما كان في نية سالفه الحميد الذكر والاثر المطران طوبيا عون الشهير رحمه الله عداد حسناته واجزل ثوابه على مقدار مبراته من المشروعات العظيمة وزاد في جمال ايام ذي الهمة العالية والعزيمة الماضية قطب احبارنا الاجلاء ابينا المغبوط البطريرك يوحنا الحاج الذي لا ريب انه اليوم يرتاح الى ما تقيمه ابرشية بيروت من شواهد التكريم للديانة الكاثوليكية والمآثر العلمية والادبية وزين عندنا ايام حبر الاحبار لاون الثالث عشر فريد هذا الزمان من حيث جرى في تعزيز الاداب والفضل والنضح عنهما على نحو ما صدعت به المناشير البابوية واقتضته الحكمة اللاونية

وبعدُ فلما طالبني حق الفضل ان انتظم في سلك المهنئين رأيت ان خطبة لا ينتفع بها بعض الجمهور انما هي خطبة يقتصر فيها على تعديد آثار سيدنا صاحب اليوبيل التي صارت في اشتهارها عند الخاص والعام اشهر من نار على علم ومتى كانت الخطبة من جمهور السامعين بهذه المنزلة كان الصمت بالخطيب احرى واجدر فتخيرت لي موضوعاً يحلو لاي من سمعه ويفيد اي من تامله بل تعزز الخيرات لكل من عرفه عقلاً وجرى عليه فعلاً وهو الامر الذي لاريب ان صاحب اليوبيل يراه كشفاً لما هو خفي من الاسباب الداعية له الى ما صنع و يصنع مما لا يطالبه به مقام الاسقفية فيرضى به رضى الملغز بحل لغزه هو الامر الذي تنبه له ايام صبائه وجرى ولم ينفك جاريًا عليه كما جرى الريكابيون على وصايا ابيهم يوناداب (١٨:٣٥) هو الامر

الذي استوجب له هذا العيد الفضي واجرى له فيه من غرر النثر والنظم سيولاً كذا قام في ذهني ولا بدع فمن احب شيئًا بالضرورة يكون قد رآه الحسن الجميل لكنه بعد ان يعرض عليه كثير من افراد ذلك النوع وانواع ذلك الجنس قد يرى اجود مما استجاد واحسن مما استحسن

فتقوا سادتي انه سيكون لبصائركم الوقادة اليوم من خطب الخطباء وقصائد الشعراء مع تواردها على موضوع واحد مشهد بديع هو في اختلاف وجوه المعاني وصور اداتها وتشعب طرق التشبيه والمجاز فيها بمثابة هذا المشهد الحافل في اختلاف وجوه شاهديه فتبدو لكم جنة مشتملة على افانين من ازاهير النثر والنظم طيبة العرف حسنة الالوان قد اهديت الى من رفع قدر الادب بادابه واكرم مقام الفضل بفضيلته فيحصل لكم بذلك لذة الاستماع وللشعر والخطابة حظ من الانتعاش بحيث يتميز الذهب من الشبه وصهباء البلاغة من درري التبالغ سنة الله في كل ما يقبل عليه اكابر العصر واصاغره

وان قلتم كفى فقد اطلت علينا كما اطال موسى على قومه قبل ان يدخلوا ارض الميعاد فقد عيل صبرنا اشرع فيما تخيرت الكلام فيه اما ترى الشعراء من حولك يتزاحمون نعم ارى منهم بقدر ما ارى من فضائل صاحب اليو بيل — واما قولكم ارض الميعاد فهو منطبق كل الانطباق على موضوعي لانه يدر لكم لبن الخير وعسل اللذة واسمحوا لي قبل ان اصرح باسمه الحلو ان اشير اليه ايضًا اشارة تريكم خطارة شانه وغزارة نفعه منشدًا بيت ابي العلاء المعري

واضيع اوقاتي بغير ندامة ويفوتني الشي اليسير فاندم

و بقول آخر

اليس من الخسران ان لياليًا تمر بلا نفع وتحسب من عمري

وقول آخر

اذا مر بي يومٌ ولم اتخذ يدًا ولم استفد علمًا فما ذاك من عمري

واما اسمه الحلو العذب فهو عمر الانسان اي مدة حياته في دار الدنيا

تعلمون رعاكم الله ان العمر ظرف بمظروفه يغلو و يرخص وبما وعى يطيب ويخبث وبما حوى يشفي و يمرض وبما القي فيه يهدي و يضل حتى يقال ما ارخص عمر عمرو وما اغلى عمر زيد وان كان من بلد واحد في عصر واحد في مقام واحد وما اطيبْ

حياة هذا وما اخبث حياة ذاك وما انفع حياة فلان وما اضر حياة فلان فاعلى الناس عمرًا واطيبهم فيه اثرًا واشفاهم لادواء الجهل واردهم للناس عن سبل الوبال انما هم الواقفون على منابر التعليم والتذكير آخر الدهر انما هم اولئك الذين بقوة ما ابقوا من غلات اعمارهم يسودون من على ظهر الارض وهم في بطنها ويرشدون سكان القصور وهم رهائن القبور الا قولوا اين سطوة الاسكندر اليوم من سطوة ارسطو واين غلة عمر الاسكندر من غلة عمر استاذه الفيلسوف قد ذهبت اثار ذي القرنين بذهاب حياته : واما اثار الفيلسوف فلم تذهب ولن تذهب بل تطاول الدهر عمرًا

قولوا لي يرعاكم الله هل من احد يعدل عمر المطران جرمانوس فرحات الذي اذكى مصباح العلوم العربية بين اهل النصرانية وزين الكتب البيعية بحلى الفصاحة بعمر من عاصره من الرهبان والاساقفة في خلال القرنين ١٧و١٨ وهل بقي من غلة حياة جميع معاصري علامتنا المشار اليه ما يذكر في جنا ما ترك من كنوزه العالمية ومصابيحه الادبية كلا كلهم ماتوا واندرست اثارهم وانطوت اخبارهم ولكن جرمانوس حي لا يموت ولا يبرح طائر الصيت في مشارق الارض ومغاربها

ثم اين اعمار معاصري سمعانينا امير العلماء شرقًا وغربًا من عمره خصبًا وطول امد وخلود فائدة

فاذا تقرر ذلك انكشف لكم الستار عما حمل حبرنا المفضال على الاشتغال في معظم ما يبقى له من الوقت بعد قضاء اشغال منصبه بالتعريب والتاليف وذلك من لدن كان في معية الطيب الذكر المطران بولس موسى مطران طرابلس الى ساعتنا هذه وعلمتهم ان الحامل له على ذلك امران احدهما معرفة ثمن الزمان الذي لا يسترد فائته مع النظر في عاقبة من تقدمه من اهل الفضل وارباب التاليف وما افاضوا به على الخلق من الفوائد التي لا تجف ينابيعها وما جلب لهم صنيعهم من علو المكانة في الصدور وحياة الذكر في الدنيا اذ خلفوا من نسل حكمتهم وذرية علومهم ما تنقرض امم ولا ينقرض والاخر اعتبار ان الامساك عن العمل محل في النفس ... موت فانما النفس عمل كما سماها الفلاسفة فهذان الامران هما اللذان قد صيرا هذا الحبر رجلا كبيرًا وعالمًا جليلًا اذا ثارت عليه ثائرة حملت عليها جيوش اثاره فاخمدت نارها . واطفات شرارها

ايها الحبر العلامة لك اقول الان قد احسنت معرفة قيمة الزمان حتى حرصت

على فضلاته ان تذهب سدىً فانقطعت فيها للتآليف تهدي الى الناس علماً ورشاداً او تجلب لنفسك عندهم فخراً وعند الله اجراً فها قد احسن الزمان معرفة قدرك واشهد على نفسه في هذا اليوم من في هذه المدينة الزهراء من ممثلي الدول العظيمة وممثل من له رعية في كل مملكة وجمهور الفضلاء والعلماء والادباء انه معترف بانك بيضت وجهه وطيبت ذكره واجزلت فوائده ونشرت اسمه وابعدت وصمة الخمول عنه اذ قبل

جهل الفتى عارٌ عليه لنفسه وخموله عار على الايام

وانه مقر بانك من اشح اهله به لتكون من اسخاهم على بني الانسان بما تجني يديه من ثمار العلم وتغرس من جناة الفضل فيا لله الزمان ما انصفه اذ كانما بما يصنع في هذا العيد يثيبك ايها الحبر الجليل على ما رفعت شأنه وميزته عن الوف من اقرانه بان يجعلك جوهرة في تاجه وقدوة لابنائه تعرفهم ان الزمان اغلى من كل كنز وان انفاقه فيما يرضي الله وينفع الخلق هو الفخر والخير وصرفه في نقض ذلك هو الهوان والشر — هذا وفي الختام اسال الله ان يعطيك من العمر على قدر معرفتك لقيمته ويجعل يوبيلك ايقاظاً للهمم النائمة واعظم صارف لادبائنا عن قضاء الزمان فيما لا ينفع الى قضائه فيما ينفع وان يرغب طلاب المدح في صنيع ما ينطق به الناس بمدحهم عفواً بلا طلب وصدقاً لا كذباً

٣

« لسليم افندي كساب في تهنئة الدكتور فانديك »

« في الاحتفال بسنة الخمسين من خدمته البلاد الشرقية في ٢ نيسان سنة ١٨٩٠ »

ايضاح العواطف في الاقرار بالعوارف

يمثل لنا هذا المقام الجليل . عرفان الوطنية السورية قدر الجميل ويشهد هذا المحفل الكريم . لسمو حياة العلم والتعليم . و يفصح بلسان الحال . عن ادراك قيمة الرجال . و ينطق بخير التهاني والبشائر . في تقديره حق العوارف والمآثر . وما انتظم عقد هذا المنتدى البديع . الا شهادة لنعم تمتع بها الرفيع والوضيع . فقد جمعتنا على اختلاف المراتب والملل والنحل . امتن الصلات المعربة عن فضل العلم والعمل . المعززة بالجامعة العثمانية . والعروة الوثقى الوطنية . تحت لواء سيدنا ومولانا وسلطاننا

الجليل (عبدالحميد) . الفاتح لتبعته الامينة جنان المعارف في العصر الجديد . الموجه قلبه الابوي لخير رعيته المخلصة الولاء . وترقية امورهم ورفاء احوالهم بلا استثناء . والاخذ بناصر العلوم والعلماء . ايد الله معقل ملكه الحصين . وايده بالنصر والظفر المبين . وادام دراري عدله السوافر شموساً تستضيء بها الاصاغر والاكابر . وصان وزرائه ورجال دولته . الفخام بيمين الحزم والعزم والاقدام . فنجني من حديقة مشوارتهم ثمار الترقي و بركات السلام

" فلقد قام هذا النهار شاهداً بافصح لسان . لاياد بيضاء يحجم عن وصفها قس ابن ساعده وشيشرون وسحبان . تلك اياد كست الاوطان باثمن المطارف . المنسوجة من ديباج المعارف والعوارف . و بنت في القلوب افسح المنازل فحل بها ممثل الافضال والفضائل . الفيلسوف العلامة . والدكتور الجهبذ الفهامة . كرنيليوس فانديك خليل سور يا الحميم وحبيبها وصفيها القديم . من نقضى عليه خمسون عاماً بين المدارس . يوزع من درر علومه النفائس . وبين المنابر . يلفظ بالخطب الجواهر . وبين بيوت الرحمة والمستشفيات . يعالج و يبذل اكرم الصلات ويغرس بالحمية والجد والمثابرة . اغراس علوم زاهرة ناضرة . اتت الوطن العزيز باينع الثمار فباتت ماثره جنات تجري من تحتها الانهار . فحيثما التفت رايت جنة تخلب الالباب . تزهو منابتها الغناء تحت طي محمدة له او كتاب . يستقطر منها الشيوخ والكهول والفتيان . اعذب الفوائد الراوية صدى العقول والاذهان تلك حدائق وفرت بها الاشجار والاغصان من كل فاكهة بها زوجان . تغرد بلابل فنونها اطرب الالحان وتلك خمائل تبرىء قاطفها من داء الجهل والخمول وفصائل اودعت كنوز الاصول والفصول . يضمخ عبير نصها الشائق البهيج . عقل قارئها باطيب الاريج تتدفق ينابيعها اندفاق السيول وتتشعب جداول تروي ظماء العقول . فلا نمثل تلك المآثر والفضائل بزهور الحدائق والخمائل لان الزهور تذوي وتذول . واما هذه فلا يعروها الذبول . ولا بالاثمار لان الفاكهة تقطف مرة في العام . واما هذه فجناها غير منقطع مدى الايام . ولا بالكنوز لانه قد يعروها النفاد . واما هذه بالانفاق تزداد . بل نمثلها بينابيع لا تزال تسيل لاحياء ميت الجهل وارواء الغليل وابراء العليل . فاي علم لم يودعه بطون الاوراق . ولم ينمقه بوشي معانيه الدقاق واي فن لم يصنف فيه خير تصنيف . يعود على دراسه بافضل المعرفة والتثقيف

فعلى اي مؤلفاتك نثني ايها الشهم الهمام . وبذكر اي كتبك نبدأ الكلام ابكيميائك ام بطبك النفيس . الذي فقت به ابن سينا الرئيس . ابعروضك يا خليل المنتظم انتظام اللآلىء في السموط . ام بهندستك المقومة عوج الدوائر والزوايا والخطوط . ابمرآتك الوضية منظر عجائب الاقطار وساكنيها . الجائبة بمطالعها بحار البسيطة وغياضها وبواديها . ام بكتابك الهيئة الفائق فضله شأو السماك . والمزيح النقاب عن اسرار النجوم والافلاك . ابمنطقك الموسس كل مقدمة ونتيجة وقياس على امتن الاسس الخالية من كل التباس ام بكتاب النقش في الحجر . الناقش في الالباب اجمل الصور . الدائمة الاثر المغنية بالخُبر عن الخَبر . خزانة العلوم الحاوية الجواهر الصحاح . واستاذ المدارس والعيال المتكفل بالنجاح والفلاح . فلا نعلم ايها اجدر باسمى النعوت والاوصاف لانها كالحلقة المفرغة الملتحمة الاطراف بان مجموعها اجل متحف انشاه اليراع الواحد . واثمن عقد حلى جيد الوطن بالدرر الفرائد . ذلك متحف كاف لان يشغل العمر الطويل . ولكن ما كان مهديه الفاضل ليكتفي بهذا القدر الجزيل . بل تعلمون سادتي ان من اعمال الشيخ الجليل . ترجمة اكثر اثار التورية والانجيل . وانشاء المرقب الاول بسورية . الراصد حركات الاجرام السموية . المتصل مع اشهر المراصد . والمراسلها والمراسلته بما فيه المنافع والفوائد . ولم يكتف عالمنا بهذه الاعمال . بل وقف حياته على نفع الوطن من سائر الوجوه والاحوال . فانفق القسم الاوفر من زمانه . في تدريس احداث الحمى وشبانه . دروساً حقها الرقم بماء الذهب . من علوم الدين والطب والطبيعة والفلك والادب . وها كم تلامذته المنتشرين انتشار الدرارىء في الافاق يشهدون لنعمائه البالغة السبع الطباق يتاجرون بكنوز علومه فيكسبون ويكسبون . ويتنافسون في مضمار السبق وينالسون بل اذا غضضنا النظر عن كل هذه المآثر والمحامد . تكفينا اعماله الطبية القائم لها في المستشفيات اقطع الشواهد . فله في كل شارع وحي . جود فاق جود حاتم طي . فلقد صدق عليه ما قاله عن نفسه ايوب الصديق في سالف الايام . بأنه عيون للعمي وارجل للعرج واب للفقراء والايتام . بل يصح عليه ما قاله احد الشعراء عن معن بن زائده . يصف مكارمه ومحامده

اذا حال حول لم يجد في دياره — من المال الا ذكره وجمائله
تراه اذا ما جئته متهللاً — كانك تعطيه الذي انت آمله

هو البحر من اي النواحي اتيته　　فلجته المعروف والبر ساحله
تعود بسط الكف حتى لو انه　　اراد انقباضاً لم تطعه انامله
فلو ان ما في كفه غير نفسه　　لجاد بها فليتقِ الله سائله

وزد على كل ما قيل · خلقه الفتان الجميل · واحاديثه المبتكرة الساحرة الخالبة لب كل من سامره وعاشره · وكلامه السكري الجامع كل منثور ومنظوم · در ياق كل من لسعته ارقام الهموم · ونصائحه السديدة وخطبه المفيدة العديدة · فبمثله تميد المنابر سكرا · وتصفق الايادي طرباً وشكراً · ويشمل النهى سروراً وبشرا · والى سماعه يتهافت كل خطيب مفلق · وتتكاثف الاقدام تكاثف السحاب المطبق · وزد على هذه الفضائل والصفات · معرفته الكاملة بانفع اللغات ولا سيما بلغتنا العربية الحسناء · حتى كانه من علماء العرب العرباء · ومحبته المخلصة لهذا الوطن واله وحسبانه نفسه في سلك ابنائه ورجاله فكذا تكون الحياة مثالاً ينسج عليه · وعرضاً يتسابق كل عاقل في البلوغ اليه · فالشكر كل الشكر للعالم الجديد · لاتحافه اوطاننا بهذا الكنز الفريد · المثري حمانا من كل طارف وتليد · فكم الف رجل عدوا بواحد عند من عقل · وواحد عد بالف وفدي بالمهج فضرب به المثل · فقد جمعت قلوب كل من نطق بالضاد · على محبتك وشكرك ايها الشيخ الجليل من صميم الفؤاد · فكنت اسبق من فاز بسورية بهذه المواهب · وعرف قدره الخلق على اختلاف الضروب والمذاهب وهذا المحفل الجديد · لاوضح شاهد واقطع دليل وتلبية كرام القوم مطالب لجنة هذا الاحتفال · اجلى بينة سامية المثال · واقبالهم على الاشتراك بتقدمة الشكر · خير برهان يحق له الذكر واجماع الاراء على السرور بهذا المشروع خير صلة في خير موضوع · وان قلت بالنسبة للاستحقاق · و بالنظر لعقود المنة المطوقة الاعناق · فباي افضالك وفضائلك نعترف ومن اي بحر من بحورها نغترف · وعلى ايها نثني ولايها نشكر · ام باي عوارفك نترنم ولايها نذكر

٩

« لنعمة افندي يافث في تهنئة لدكتور فانديك »

خلق الانسان سعيداً لا يعرف الشقاء تحفه الجنات الخصيبة والرياض الباهرة

يقطف شهي الاثمار ويشرب بارد الماء يتنفس نقي الهواء ويفترش وثير الرياض يمشي في الجنة الهوينا يتامل في محاسنها وسمو معاني تركيبها الى ان سولت له النفس اقتعاد غارب الشره فتطاول الى سعادة ارفع · وتطال الى مغنىً اوسع · فشمر عن ساعده وضرب في الارض فاتسعت لديه فجاجها فعمته مصاعبها وشملته متاعبها فجلس في الياس كليلاً ولا مناص له منه فجد في طلب الرزق يغالب الطبيعة العمياء وينازل الفيافي والبقاع الصماء فتسنى له بما اعطي من الحكمة ان يكاشف الطبيعة خباياها فتبوح له باسرارها فامتلك ناصيتها عظام الرجال وقادوها بازمتها وذللوها لتكون لهم خادمة امينة يستعينون بها على رفع اثقالها ودفع اضرارها ولا يفل الحديد الا الحديد

ولما كانت عقباتها صعاباً كان لا يرقاها الا ذوو الهمة القعساء ولا يتسنمها الا ذوو الحكمة النجداء ولما كان هؤلاء العظام رجال الانسانية حركتهم الشفقة ودفعهم الحنو وحثتهم عوامل الالفة لدفع اعباء الحياة عن كواهل اخوانهم في الانسانية واشقائهم في المدنية ليصلوا بهم الى اوج السعادة · ولذلك نرى عند نظرنا في اخبار الامم رجال العلم وابطال الصناعة يعطون الالقاب الشريفة ويوصفون بفضلاء الامة والمحسنين الى الهيئة الاجتماعية وتقام لهم الانصاب ويحتفل بهم في مراكز فضلهم اكراماً واجلالاً وايفاء لجزء من حقوقهم وتكثيراً لذوي الفضل وارباب النبل

ونحن قد اقام علينا الدهر بكلكله واخنانا بثقله فاقعدنا في مكان قصي نستشرف دواعي الفلاح واسباب السعادة ولكن الهمم قاصرة والطبائع فاترة والاذهان خامدة والشوق الى السعادة عظيم والتوق اليها جسيم لان الامة قديمة والعيش كان فيها رغيداً والسعادة فيها سائدة · ولكن الانسانية لا تعدم من نصير والفضيلة لا تحرم من ظهير فما عتمت ان اعدت لغوثها رجل العلم ومثال الفضل الفيلسوف الفاضل شيخ اطبائنا وعلمائنا وتاج ادبائنا ورحمائنا وسلك انتظامنا الدكتور كرنيليوس فان ديك الشهير من اضاء نور علمه امام الناس وراوا اعماله الصالحة ومجدوا الآب السماوي الذي اظهر حكمته فينا واحسانه للانسانية باقنومه الجليل · ان الانسانية شاكرة فضلك لانك مجلى بادئها العظيم ان الاحسان يفتخر بك لانك ملجاؤه المتين وركنه الجسيم فاي عمل يؤول لخير الانسانية لم تعضده · واي فضل لم يكن لك فيه الشان الارفع · واي حكمة عرفت في شخصك الكلال · واي عمل لم يرفع له نشاطك وثقوب ذهنك

وحدة بصيرتك الأعلام الخافقة . واي عين لا ترى الان نشاط الشباب في شخصك الجليل كأن القوة رحمة بهذه الامة جلببتك بنشاطها وارسلتك بشبابها تنمي بك العلم وتعزز البر وتثمر الفضل. أليست مؤلفاتك مثالاً لصدق المقال الم تضرب الامثال بشهرتها وكثرتها وغزارة مادتها وتباين مباحثها . الا نراك تارة تجوب الفلوات وتقطع الفيافي وتخرق الجبال وتمخر البحار وتستبطن الارض وتتكبد السماء فترى السدام والشموس والسيارات والاقمار وتمجد اباك السماوي مظهر الحكمة في هذا النظام البديع

وطوراً تلج بنا الى دقائق المادة فتكشف لنا عن جواهرها المتباينة المرتبطة بالالفة العجيبة التي تشرك بينها على تباين الطباع واختلاف الاقدار وتفرق المبادىء ذلك كله مقرون بسمو مبادئك وشرف غاياتك ان ارتباط الجواهر العمياء على تباين طباعها دليل على وجوب الارتباط المتين بين افراد الهيئة الانسانية ولو اختلفت الجنسية وضعفت العصبية واونة تكشف لنا الجسم الانساني وتظهر فيه بدائع الصنعة وغرائب البنية وعجائب الارتباط بين كرياته المستقلة بالحياة بنفسها الخاضعة لقانون الجسم العام لكي يحيا بهذا الارتباط العظيم المقرون بالخضوع . كل ذلك مقرون بتعاليمك السامية بوجوب الائتلاف ليحيا جسم الامة بالخضوع الى قانون الالفة العام

واحياناً تميل بنا الى مؤاساة الفقراء وتعزية المحزونين وغوث المظلومين وازالة الام المصابين بالعلل الوبيلة والنسج الضئيلة عملاً بتعاليمك السامية وتتميماً للقول الكريم كل من علم وعلم يدعى عظيماً في ملكوت السماوات واي شاهد ادل على الفضل وابين للنبل واظهر للغاية من اقامتك بين ظهرانينا خمسين عاماً تبتدع الغرائب وتكتشف العجائب وترسل المعارف بيننا ارسال الرياح الغيث على الاراضي الصادية . فالعلم فينا يعترف لك بالابوة والخير والاحسان واللطف والشفقة والرحمة وحب الفقراء وازاحة اعباء الحياة بكلامك الجزل كلها تقر لك بالامومة فانت اب وام لكل عاطفة شريفة وانت مصدر لكل مثال سام وغاية حميدة . فاذا رمنا ان نجد نموذجاً للعلم رجلاً قضى الاعوام الطوال بين المحابر والدفاتر الا نراك خير مثال لعلماء سورية واذا طلبنا مثالاً للعمل رجلاً قرن كل علم بعمل يليق به وغاية تشرفه الا نرى ذلك المثال الوحيد في اقنومكم الشريف . فلساني جدير بان يلقبك بفيلسوف العصر وعلامة الدهر وفريد النبل ووحيد الفضل . وهذا البناء وهاته المرضى شاهدة على متابعتك الفضل ومثابرتك على الخير لا تبغي اجر الناس ولا اطراءهم بل تعد كل ذلك من واجباتك

نحو الانسانية · فالانسانية عموماً والطائفة الارثوذكسية خصوصاً التي غمرتها بعوارفك واغرقتها في بحار فضائلك وفواضلك تعترف بفضلك وتعتبر عظيم قدرك وتجل مقامك وتحفظ اجلالك

وانتم يارجال الانسانية اوجه اليكم هذه الكليمات الاخيرة فاعيروها اذاناً صاغية وقلوباً واعية · نظرتم في خلال الخمسين الماضية في شيخنا الفيلسوف الجليل رجل العلم والعمل وشخص الانسانية والفضيلة وكلكم تعلمون ان التعليم بالمثل الحسية من ابين طرق التفهيم والسيد المسيح كان يودي مقاصده وتعاليمه الى تلاميذه بالامثال لتنجلي لهم وترسخ في ضمائرهم فتشب في قلوبهم حمية العمل بموجبها · فاي تعليم ادبي لم يقرنه هذا الفيلسوف بعمل يشرفه · اراد ان يعلمنا عمل الخير فاقام من ماله الخاص اول قاعة في هذا البناء الخيري فتلاه في هذا العمل المبرور اصحاب الحمية مقتدين به · اراد ان يعلمنا مؤاساة المرضى وتعزية المصابين فعين من اوقاته قسماً مهماً يشغله في تسليتهم وازالة ثقل امراضهم بكلام اشهى من السلسبيل والطف من النسيم · وكلكم افصح منا في تبيان فضله وغزارة نبله وشرف غايته ونزاهة قصده · اراد ان يعلمنا نشر المعارف بين الكبار فاشغل القسم الاوفر من العمر في تاليف الكتب الضخام ولا حاجة لي في تعدادها لانها اشهر من ان تذكر · ثم انبرى لبث محبة العلم في الصغار فالف لهم النقش في الحجر فنقش في افئدتهم اسمى المبادىء العلمية التي لا تقوى على محوها كرور السنين ومرور الايام

فاتخذوا سادتي اقامة هذا الشيخ الجليل والفيلسوف النبيل خير مثال واقيموا له الانصاب في قلوبكم لكي تهيج فينا العواطف السامية عند خمودها وتحرك عوامل العمل عند سكونها ووطنوا النفس على الجد وثابروا على العمل واعلموا ان السعادة الانسانية بنت الحق والفضيلة بنت العمل فاطلبوا الحق في مباحثكم واعملوا بموجبه تنالوا السعادة والفضيلة اسمى غايات الانسانية واشرفها

فدم يا فريد العصر دعامة الحلم · وركن العلم ونصير الفضيلة · وظهير الانسانية ·

رسائل

« للشيخ ابرهيم اليازجي كتب الى بعض اصدقائه »

ما زلت ادافع النفس فيما تتقاضاني من شكوى اشواقها وفي الشكوى شفاء واستنزال اثر من لدنك تتعلل به مسافة البين الى ان يمن الله باللقاء ومن دون اجابتها مشاده قد شغلت الذرع وشواغل قد فرغ من دونها الوسع الى ان غلب جيش الوجد على معاقل الصبر وزاحم مناكب المدواء حتى ضرب اطنابه بين الحجاب والصدر فاتخذت هذه الرقعة ازجيها اليك وفيها من وقر الشوق ما ينوء برسولها ومن رقة الصبابة ما يكاد يطير بها او يخلفها فيصافح الاعتاب قبل وصولها راجياً لها ان تتلقى بما عهد في سيدي من الطلاقة والبشر وان لا يضن عليها بما عودني من تمهيد العذر ويصلني من بعدها بانبائه الطيبة عائدة عنه بما يكون للناظر قرة وللخاطر مسرة ان شاء الله

« وله ايضاً »

وافاني كتابك العزيز والنفس نازعة الى ما يزيل نفارها والقريحة تائقة الى ما يشحذ غرارها فكان روضة باسمة الكمائم فائحة النسائم قد ردت على النفس انبساطها واحيت البادرة فاستانفت نشاطها فانا منه ما بين وشي يخجل طراز العبقرية وزخرف دونه نضرة السابرية تناجيني منه رشاقة الفاظ تفضح قدود الحسان وغضاضة انفاس يغار منها ورد الجنان ورقة خطاب يشف عن ود صفي ولطف خفي وكرم وفي وعتب اعذب من الماء القراح وارق من نسمات الصبا في الصباح حتى لقد حبب الي تقصيري وشفع عند نفسي في قبول معاذيري على ان ما عندي من الولاء لا يعتريه معاذ الله وهن ولا يخلقه تمادي زمن او ترامي وطن ولكن صروف الاحداث قد قصرت الجهد وصرفت جواد العزيمة عن القصد والله يعلم اني لو نزلت على حكم نوازل الدهر ولم ادافع طلائعها بما بقي من ساقة الصبر لما كان في همتي الا كسر اليراع وهجر المحابر والرقاع وحسبي من العذر ما اعرفه من حلمك المالوف وما الفته من

كرمك المعروف والله اسأل ان يبقيك لي من الدهر نصيباً ويمتعني بلقائك قريباً بمنه وكرمه

« وله ايضاً »

بمَ يعتذر اليك من لا يرى لنفسه عذراً وكيف يستتر من عتبك من لا يستطيع لذنبه ستراً بل كفاني من العتب تعنيف نفسي على ما القيت عليها من تبعة تقصيري وما حلت به متي التفريط بينها وبين معاذريـ والله يعلم ما كان تقصيري شيئاً اردته ولا كان تفريطي امراً قصدته ولكنها الايام ان صاحبتها لم تصحب وان عاتبتها لم تعتب فلقد عبرت بي هذه البرهة كلها وانا بين شواغل لا يشغلها عني شاغل وبلابل قد اختلط حابلها بالنابل فنازعتها هذه النهزة اليسيرة اجدد فيها صلة التذكرة الى ان يمن الله بصلة الحبل واجتماع الشمل واستنزل احرفاً من خطك يكتحل بها الناظر ويانس اليها الخاطر متوقعاً بعد ذلك ان ابقى بين يديـ مودتك مذكوراً وان لا يكون عجزي لديك شيئاً منظوراً وان تجري بيعلى عادة حلمك الى ان يجمع الله الشتيتين ويغني المين عن الاثر بالعين ان شاء الله تعالى

« وله يعزي احد اصدقائه بنـيب له توفي ايام الوباء »

اشباح تروح وتجي وآجال تمسي وتغتدى وانفاس تنقطع من دونها حزناً واسفاً وعبرات تنقطر وجداً ولهفاً وما عمدت الاقدار الى استنزاف مدمع ولا ارادت الايام ايلام موجع انما هي سنة الخلق كون يليه زوال وعقد يسبقه انحلال وان لكل شيء اجلاً موقوتاً وان لكل اجل سبباً مقدوراً وان الانسان لفي كل ذلك شاهد يسمع لاهياً ويبصر ساهياً وليس في يده ان يسترد ماضياً ولا ان يرد اتياً ولقد وددت ان اعزيك لولا ما يغالبني على العزاء من كبد حرى ومقلة شكرى وزفرة تترى ثم وددت ان استبكيك لولا اني بكيت حتى لم ادع في البكاء من واد واحييت ليالي بالنوح حتى ما بالنجم سهاد ثم لم يزدني البكاء على سقم جسديـ ولم يزدني النوح على صفر يديـ الا من كبدي فان الاقدار سهام اذا انطلقت لم ترد وان المتطلع الى الفائت لطويل شقة الكمد وان الخطوب لهي هي وانما تتفاوت عند الجلد

وان الحصى عند الجزوع ثقيلة ... وضخم الصفا عند الصبور خفيف

واني لارجو في عقلك وحلمك انك قد صرت من جانب العزاء ثم احمد الله على نجاتك ان لنا في بقائك العوض والتأساء فلقد قلبت القلوب على جمرات لا تدري ايها اذكى ضراماً ثم اوردتها من سلامتك ما رأت الشكوى بعده ظلماً والتظلم حراماً والحمد لله لا معقب لحكمه وهو المسؤول في اطالة بقائك قرة للعيون وجبراً لخاطر المحزون بمنه وكرمه

وكتب الى صديق له جواباً عن كتاب ينعي اليه فيه احد انسبائه ويعزيه بنسيب له

ورد كتابك يتجاذبه طرفان من نعي وتعزية ويضرب عليه لونان من شجو وتسلية فمن لي بعبرتين تجري احداهما وترقأ الاخرى ومن لي بقلبين يذوب احدهما حزناً ويجمد الاخر صبراً بل كيف يصبر جريح ضربه الدهر بسيفين وجرعه البلوى بكأسين فمزج عبرة بعبرة وتابع حسرة اثر حسرة وبات لا يجد الى الصبر دليلاً ولا يهتدي الى العزاء سبيلاً ولكن الامر فوق ما تجري الجفون وما تثير الشجون وامر الله واقع لا يدفعه دافع والدمع لا يسيغ غصة والوجد لا يزيل كربه

واذا حصلت من السلاح على البكا فحشاك رعت به وخدك تقرع

فما لنا الا السعي وراء ما ند من الصبر نكره عليه النفس وان كان احد المرَّين والاتجاه الى الرضى بالمكتوب نداوي به القلب وان كان احد الداءين وحسبنا الله وكيلاً

وكتب الى صديق معزياً

من علم ان القضاء واقع وان الاعمار رهائن المصارع فلم يصحب دهره على غرة ولم يغتر من الاقدار بفترة لم تكبر عليه الرزيئة اذا اغتالت ولم يطمئن الى السلامة وان طالت فان للدهر رقدة وهبة وان لليالي كمنة ووثبة ومثلك من ادرك مبادىء الامور ومصايرها وعرف موارد الحياة ومصادرها وانما الموت طور من اطوار الوجود واخر اعمال الحياة في الموجود ولا ازيدك علماً بالكون وشرائعه والكائن وطبائعه انما هي ذكرى لمن فجئه الرزء فشغله وحل بساحته القضاء فاذهله وحسبي من التعزية علمي بما عندك من موارد الحلم المباح ومن التاسية ما تعلمه من حال من يخاطبك وهو سائل الجراح وما اخلقني بان اقول ان رزءك هذا قد زادني شجناً على اشجاني ونكأ ما تماثل من قرحة احزاني ولكني قد صيرني الدهر الى حال لا تعمل فيها حال ولا ابالي معها بسلم ولا قتال فكانما اياي عني ابو الطيب حيث قال

رماني الدهر بالارزاء حتى　　فؤادي في غشاء من نبال
فصرت اذا اصابتني سهام　　تكسرت النصال على النصال

على ان المرء اذا لم يكن له من نفسه معز لم يزده كلام المعزين على ان اذكار مصابه وتجديد لوعته واكتئابه ۰ وههنا امتحان الرجال وموطن الصبر والاحتمال والمرء باعز ما لديه يمتحن والصبر على مقدار الهمم والفطن وان الاحزان معقودة اطرافها بالعزاء موصولة اواخرها بالتاساء فاجعل الاخرة الاولى ولا تبلغ الدهر من نفسك مامولاً والله اسال ان يقيض لنا بسلامتك عوضاً كريماً و يصون بيتكم وآله من كل كارثة سليماً و يفرغ على قلوبكم صبرًا جميلاً وعلى من فقدتم عفوًا عميماً برحمته ولطفه

لاذيب بك اسحق

« كتب الى الامير عبد القادر الجزائري »

كتابنا ايد الله الامير الاعز ونحن عصبة تذكر ليس منا من لم يرحم صغيرنا و يامر بالمعروف و ينه عن المنكر

راينا ما الم بهذه الاقطار من الاضرار ناشئة عن تخالف القلوب وتنافر الافكار حتى صار الود مداجاة والحب عدوانًا فقلنا ياقوم لا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانًا ورأينا بوادر البلاء وطلائع الشقاء نخفنا المصاب الاعظم ينقلب به الخير الى الضير والمغنم الى المغرم و يزول بهاء الامة ثم تغضب الارض التي سقاها السلف الكرام بالدم فنهضنا نروم حفظ الباقيات الصالحات بوسائل السلم والسلم اسلم وذكرنا خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم

ورأينا فقيرنا يتعثر باذيال نافته وعظيمنا لا يامن على راحته او على ما في راحته ومثل ذلك سائر اخوان الوطن الذي ولدنا فيه او نزلنا بساحته فنزعت انفسنا الى اعانتهم ومن كان في حاجة اخيه كان الله في حاجته

ورأينا انوار فضل الامير على ظهور تجلي الحكمة توقظ الراقد وتنبه الغافل من هانه الامة فتكشف عنها كل ملمة فعلمنا ان لا بد من التماس مساعدته في هذه المهمة فرفعنا اليه الصحيفة التي هي لسان حالنا لتنوب لديه عن لسان مقالنا امل الحصول على قبول شأن الامير في معاملة من امه ورجاء ورود الجواب بما يراه في امر هذه الخدمة

وله في تشريفنا بذلك رايه العالي مسددًا وامره الكريم مؤيدًا ان شاء الله

وكتب الى سلطان باشا

سيدي وعمادي وسندي وعتادي

كتابي اطال الله بقاء سيدي الاوحد وانا اذرف دمع الامتنان والشكر على ما اظهر لرسولي من الانعطاف اليّ والشفقة عليّ والرغبة في كشف ظلامتي والميل الى اعادة كرامتي حتى لو بذلت بقية الشباب في سبيل خدمته ووقفت سائر العمر على شكر نعمته واوتيت مع ذلك عزيمة الاقوياء ومنحت بلاغة الفصحاء لما سلمت في الواجب من التقصير ولا ادركت منه غير النزر اليسير على انني القيت بباب مولاي القلب رهن اخلاص وولاء وقليل تحت سمائنا قلوب الاصفياء

ولقد بشرني الرسول بكتاب من السيد السند يجبر الخاطر ويقر الناظر ويشرح الصدر فيصفح عن هفوات الدهر فاعتقلت باسباب الاماني والامال ورجوت لسوء الحال حسن المآل ثم رددت النفس عن هاوية الياس فالحمد لله ما خلت الارض من الفضل والحمد لله ما عفت في مصر آثار العدل ويمين الله ان غاية الامل رضي السيد عن عبده ونهاية الرجاء حسن ظنه بحافظ عهده فان رضي فليغضب الانام وان احسن الظن فما على الدنيا ملام

وعلمت من كتاب رسولي اسباب الابعاد وما تخلل الامر من دسيسة وفساد فما عجبت لتصديق التهمة كما اني لم اندم على صدق الخدمة او ليس ان السيد اعزه الله يذكر ذلك مني ولا ينساه وكفى بهذا جزاء وشكورا وكفى به قبلاً موفورا ولا ازيدوان كان المحال فسيحًا والحق ظاهرًا صريحًا فالنتائج معقودة بمقدماتها والامور مرهونة باوقاتها ولسوف ينكشف الغطاء و يبرح الخفاء و يعلم الشك من يقين و يغلب امر الحق ولو بعد حين والله ولي الصادق الامين

هذا وقد بعثت الى مصر من يبيع اثاث المنزل بما يتيسر واتاني ان السيد حفظ الله معاليه قد رسم بتاخير ذلك الى اجل غير معلوم ولكن الحاجة ملزمة والضرورة مبرمة وللخادم على ذلك البيع باعثان الاول سد الحاجة بما يحصل منه وان قل والثاني رفع اجرة المنزل عن كاهله المثقل ومع ذلك فالامر للسيد في كل حال وما على الخادم سوى الامتثال

ثم اني اني مشتغل في هذه العطلة بتاريخ المسألة المصرية على ما رأته العين ووعاه الذهن وسمعته الاذن وحققه الخبر وايده الاثر مبيناً احوالها مفصلاً اجمالها كاشفاً اسرارها واصفاً اثارها ذاكراً كل امرء بما استحق منصرفاً في كل ذلك عما يخالف الحق ليعلم منه فضل ذوي الشهامة واهل الكرامة كما يعلم نقص ارباب السفالة واهل النذالة ممن غرهم الجهل فطغوا ودعاهم الجبن فاطاعوا ثم اضاعوا البلاد واي نفيس اضاعوا وساقدم لمولاي ما ابيض من هذا الكتاب ليرى فيه رأيه الموفق للصواب ان شاء الله حفظ الله السيد السند ورعاه وادام مجده وعلاه وابقى للخادم عنايته ورضاه ·

وكتب الى صديقه عبد السلام بك المويلحي

وقد انقطعت عنه رسائله

لولا دلالة القلب على صفاء الوفاء وهداية النفس الى بقاء الاخاء لغالبت الشوق في استطلاع اخبارك منك ووقفت القلم عن شكوى هجرك اليك مخافة املالك بما انت غني عنه وكراهة اعناتك بما انت زاهد فيه ولكني عهدت بين جنبيك قلباً لا يحوله تغير الاحوال ولا يبدله كرور الايام والاحوال فانا مخاطبه بما يمليه الشوق عليّ رضيت ام غضبت وسكت ام اجبت

اي قلب من نحب ونكرم ونجل ونعظم لقد انصلنا منك باسباب مودة واعتلقنا فيك باهداب صداقة فهل انت ذاكر معاهدنا بذات الوفاء ليالي هجرنا الرقاد اليك وقصرنا الوداد عليك ورضيناك من الدنيا نصيباً واخترناك من العالمين حبيباً كيف لا وقد لازمك الصفاء وصافاك الوفاء فصفوت على كدورة الايام ووفيت على خيانة الانام فان عدلت وما عدلت فعلى الدنيا السلام

وكتب الى علي باشا مبارك يتقاضاه وعد الحكومة له بانشاء جريدتين باسم العصر الجديد والمحروسة

اتجرأ على فضل الوزير غير جاهل ان وقته اثمن من ان يضاع في مثل موضوعي الحقير ولكن جرت عادة امثالي بقصد اولي الفضل وما اولو الفضل في الدنيا بكثير فعساه ان يكون لضعفي نصيراً فاقول نعم المولى ونعم النصير

ولقد صار العصر الجديد قديماً بما مر عليه من مؤثرات الانتظار واصبحت المحروسة على قدم الياس تستجير بالاولياء والانصار وتتلو وهي في عالم القوة بين

المخاوف والاخطار اذا ما الفكر حار واذا ما الزمان جار اتنسى مصر مزية البر بالجار ام لا يسمع بين براياها صدى نداء المستجير

بل اعيذ مصران تخني بها الايام على البررة الصادقين وان لا يلبي موعودها تاليًا آتنا بما تعدنا انك من الصادقين اقول هذا وما كنت معرضًا بسوء وما كنت من المعترضين ولكني اسأل النجدة احسانًا ولا سبيل على المحسنين والله له ملك السموات والارض وهو على كل شيء قدير

فلا ينسَ مولاي امر الجريدة موعودًا فقد اجتاز الخادم في هذه العطلة عقبة كؤودًا وعالج الصبر جهده ثم عاد عنه مجهودًا افيلوذ باليأس وقد امَّ قومًا جؤودًا ام ترد اليه اشارة الفوز ورودًا عتيدا فتسر وليًا حفيًا وتسوءُ عدوًّا لدودا· اجل ترد فيشكر الخادم صدرًا كما شكر ورودا ثم يحمد الله الى المولى الوزير

وكتب توطئة رسالة في مدح احد الصادقين من عمال الدولة

اذا انا لم امدح على الخير اهله ولم اذم الوغد اللئيم المذمما
ففيمَ عرفت الخير والشر باسمه وشق لي الله المسامع والفما

اجل فما تحرك بنان ولا جرى قلم ولا نطق لسان باحسن من الثناء الحق على نصراء الحق فهو سبيل الوفاء ومنهج الاقتداء تجزى به الانفس الطاهرة بما كسبت من الخير فيحسن اجتهادها و يدوم في الفضل ارتيادها ثم تكون قدوة في الحسنات يسلك الناس بما تنهج سراطًا مستقيماً فيحصل النفع كاملاً عميماً

ولقد تأثرت المحسنين كشفًا واستعلامًا وما آليت المجتهدين عناية بشأنهم واهتمامًا فلم ارَ فيمن رايت احق بالشكر واولى بالثناء واخلق بالحمد واجدر بالاطراء من مصلح في زمان فساد ومسدد في مقام اختلال ومقوم في حالة اعواج وممن تدوم عفته اليوسفية بين اسباب المفاسد وتثبت نزاهة نفسه الابية بين انواع المكائد تراوده الدنيا عن نفسه فيدرأ شيطانها و يقطع بسيف العفاف اشطانها وممن تعرض له الدنيا فيعرض عن بهارجها و ينكب عن مناهجها فانه لا فضل في العفة لمن يعف اضطرارًا وانما الفاضل من استطاع الرغيبة ثم عافها اختيارًا

فكيف لا ينطق اللسان وكيف لا ينطلق البنان بمدح من استكمل تلك الصفات واستجمع هاتيك الحسنات فاستحوذ على البابنا حبًا وامتلكنا قالبًا وقلبًا الا وهو الخبير

بشؤون السياسية البصير بامور الرئاسة النبيه الذي عرف صاحب الامر قدره فاعزه واعلاه وتبين فضله فقربه وادناه فلان ايده الله فقد ولي هذا الامر فاخذ زمام بالحكم فعدل وسار في مسلك الحكمة فهدى حتى صار البلد به كمدينة الحكماء متآلف السكان على العلم والعدل والاخاء ثم صان فيه النعمة ودرأ عنه النقمة واجتلب اليه النافعات واجتنب فيه الشبهات وكان حكماً عدلاً لا يلين حتى يطمع المسيء ولا يخشن حتى يجزع البري فتآلفت القلوب على ولائه واجتمعت الالسنة على ثنائه والسنة الخلق اقلام الحق

وكتب الى احد امراء مصر

جعلت وسيلتي الى اعتاب ولي النعمة وباب السيد السند كتاباً رفعته اثر الحادثة الى حضرة المولى فلان ثم جاءني ان المولى المشار اليه منحرف المزاج فجروت بنفسي على باب السيد الامير احمد الله اليه مؤدياً واجب الثناء عليه ثم استمنحه نعمة الجواب عما اذا كنت اصلح لشيء من خدمة ولي النعمة في اويقات هذه الغمة فقد رأيت أَلسنة الكاذبين طائلة بما يقصر هم الصادقين ولم اجد من مضاء في سيوف من رايت من المدافعين فهزني واجب الخدمة لهز صمصامة الذود عن الحق فطرقت باب المولى مستاذناً فيما دعاني الواجب اليه فان راى له محلاً وراني له اهلاً فله في الامر بذلك رأيه العالي والا فحسبي منه انعطافة رضى والتفاتة اهتمام وكلمة تنبيء بوصول عريضتي اليه وان تفضل سيدي اعزه الله بذكر الخادم في الحضرة العلية داعياً بتاييد الاريكة السنية كان ذلك تمام الفضل وله الامر وعليّ الشكر في كل حال

وكتب الى صديقه يوسف افندي جباره بالاسكندرية

جاءني كتابك مذكراً منبهاً لحفظ ودك فما اذكر ناسياً ولا نبه غافلاً ولا زادني شوقاً لامتناع المزيد ولكنه اتاني من انفاسك بما نفس الكربة ومن اثارك ما تمثلت به العين فلله انت من صديق في القرب والبعد والصفو والكدر والسراء والضراء

وبعد فاني مرسل اليك رسمي تذكرة وداد وتقدمة فؤاد يتمنى لو كان حقيقة في ذلك الرسم على انه لديك من قبله ومن بعده

ثم اسالك يا خليل الوفاء ووفي الاخلاء تقديم شعائر سلامي وواجبات اكرامي لآلك جميعاً صفوة الكرام وان تتقبل مني مثل ذلك جعلني الله فداك ولا زلت

خادمك واخاك

وكتب لصديقه اديب افندي نظمي بدمشق

اشكو اليك سعة فضلك عن ان يحيط به بياني وعظم منتك عن ان يلم بشكرها قلمي او لساني فاجعل رقتك شفيعي لديك وعفوك وكيلي في الثناء عليك

وبعد فقد وصلنا بيروت لاهجين بذكر محامدك هازجين بحديث محاسنك فلم تنلنا مشقة ولم نشعر بطول الشقة ثم لقينا الاهل والاخوان فكانت حفلتنا مجلس انس نديرفيه من احاديث فضلك مداماً ونتخذ من معالي كمالك ندامى ثم لا نلهو بسكرها عن شكرها ولا نذهل بعدها عن حمدها

فاجعل ايدك الله ضعف الشكر في جنب قوة العذر وتفضل بعرض هاته السطور في مجلس سادتي فلان وفلان وفلان تحسب صادرة اليهم بما تقصد به جنابك الكريم من الشكر والثناء فقد اتحدتم حباً وتالفتم قالباً وقلباً حتى امتنع الاختصاص فيما به تخاطبون لا زلتم عصابة فضل تعقد على مدحكم الخناصر وتختم على حبكم السرائر

وارسل اليه جواباً على كتاب

ياسيدي بل يا اخي فالاخاء واجب عرفناه والسيادة حكم ما اعترفناه والادب رحم تقطعها الكلفة والكلفة لبسة تمنعها الالفة والالفة بيننا معقودة اسبابها بالصفاء عالقة اهدابها بالوفاء

فيا الف اخي خطاباً لا امل لفظه ولا اهمل حفظه لقد سمتني بكتابك ما لا اطيق واستعبدتني بحر كلامك الرقيق فمن لي بالرقة التي حويت والمزية التي ملكت والفضل الذي اصبت والكمال الذي ادركت لاخاطبك بلسانك واكاتبك بمثل بيانك ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله ولكل درجات مما عملوا

فما تجود يد الا بما وجدت ولا تكلف نفس غير ما وسعت

ولست اعتذر اليك فيما كان ظهوره منك ولكن الوذ بحلمك من حكم علمك واعوذ بفضلك من سهم عذلك

اما الصديق فلان فقد جعلت صحيفته البيضاء ميثاقاً عليه انه اتخذ محبته صديقاً ورضي به خليلاً لا يمله ولا يروم عنه عدولاً ثم سجلته في محكمة الوفاء تسجيلاً واشهدت

عليه من اهل العهد شهوداً عدولاً (١)

واما الصديق فلان فقد عددت سكوته خطاباً يكون لكتابي السابق جواباً لا يواخذني فيه على ان وحدة ثالوثكم وما افردت لاقنومه كتاباً بل يعد ما صدر عن واحد منبثقاً عن الكل بالاتفاق وان لم يكن من القائلين بكلية الانيثاق (٢)

فتفضلوا جميعاً بقبول سلام يمتزج به القلب وتتحد به النفس شوقاً اليكم يا احب الناس الينا و يا اكرم الخلق على الله

وكتب من باريس الى يوسف افندي فارس بالاسكندرية

الى الله اشكو لظىً في الفؤاد   يسمى اصطلاحاً عذاب البعاد
وما للبلاد اشتياق الفؤاد   فعهد الوداد لاهل البلاد

اجل ولكن كيف انسى مرابع انسي ومراتع نفسي في مجالس صفو وهناء بين معاشر فضل ووفاء ام كيف لا اذكر اياماً مرت بنا كالاحلام فان لم تعد فلا كانت الايام وعلى الدنيا السلام

فيا رسالة الود ان وقفتِ بباب الصديق مسلمة عليه مبينة بعض شوقي اليه فانشدي عني بين يديه

قالوا التباعد يوجب الهجرا   كذبوا ومن ذاق النوى ادرى
فالحب ذكر والمحب اذا   عز اللقا لم يعدم الذكرا

وكتب الى عزتلو خليل افندي الخوري بدمشق

ان الذي سوّده الفضل وميزه الادب قبل ان تعليه الرتبة ويرفعه اللقب اغنيّ عن التلقيب في الخطاب وصدور الكتاب فان الرفعة قائمة بذاته والعزة صفة من صفاته والسيادة لفظ وفضله معناه والسعادة مآل سعيه ان شاء الله

وبعد فقد وصل من حضرة سيدي كتابه الذي اثبت له المزية واوجب عليّ

---

(١) المكنى عنه بفلان في هذه الفقرة نعمان افندي الشرابي وسر الصحيفة البيضاء المشار اليه في الكلام عنه انه بعث الى دمشق بكتاب لا يتضمن سوى اسمه في مكان التوقيع

(٢) المقصود بهذه الفقرة جبران افندي لويس والنكتة فيها ان الفقيد ارسل له ولنعمان افندي واديب افندي كتاباً مشتركاً فاجابه الاخيران وامسك هو عن الجواب

الشكر وكنت في امر الجواب عنه على انتظار رقيم الولاية يرد فانهي بوصوله وانهض بواجب الثناء ولكنه تاخر حتى اوجست ان يكون تاخير جوابي مظنة اهمال ومحل مؤاخذة فكتبت هذا على نية الاعتذار وقصد الاذكار ملتمساً من عناية سيدي اتمام ما بدأ من المساعدة بتعجيل ذلك الرقيم وله في تحقيق الرجاء كرم الخلق موفقاً به للمأثرة تذكر في كل مكان والمحمدة تشكر بكل لسان

للشيخ سعيد افندي الشرتوني

صورة كتاب تهنئة لوالد بعيد راس السنة

اطال الله بقاء سيدي الوالد المحترم

وبعد فلا يخفى على احد ان اعلى سعادة الاولاد في دار الدنيا ان يعمر اباوهم تحت رواق العز والسعد والعافية كما يعلم سيدي ان اسنى المطالب ٠ واعلى الرغائب ٠ عند الاولاد ان تظلهم السنون والاعياد ٠ وكبير البيت في ذروة عزه وثوب عافيته قرير العين بسلامة عياله ٠ مسرور القلب بان بنيه من اصحاب الجد ٠ والمضاء في الاعمال ٠ كانهم اعضاء صحيحة ٠ تدبرها عقول ذكية ٠ فلذلك فرحت في هذا اليوم فرحاً لا يعادله فرح ٠ حتى لقد رايت الدنيا كانما تعاطيني كاس الصفاء ٠ وخلت ما انهل من ماء الغمام يومئذٍ شراب الهناء ٠ حتى حسبت قصف الرعود تهديداً لاحداث الدهر ٠ ان لا تفتح الحاظها على عمود سعدنا وظننت ان وجه السماء ما اكفهر الا انذاراً للمحنة ٠ ان لا تداني من هو اساس راحتنا ورغدنا ٠ جعل الله ظني قسماً ٠ وفألي صحيحاً ٠ وان كنت ممن لا يتفاءل ولا يتشاءم ٠ وابقى سيدي في كنف امنه ٠ وظل حمايته ٠ ممتعاً برؤية اولاده كحلقة نجوم بينها البدر بمنه ان شاء الله

وله تهنئة في وزير انتصر في معركة

دولتلو افندم حضرتلري

ما وجد السرور سبيلاً الى قلوب الرعايا اوسع من الظفر بالخارجين على السلطان المناصبين الدولة الحرب العوان ٠ وذلك لما في الغلبة من قطع عرق الخوف والاضطراب وقشع غمائم الكروب عن الالباب ٠ بل لما في الانتصار من كسر عادية المعتدين ٠ وقمع الظالمين ٠ وكبح العادين ٠ على قوم مطمئنين ٠ ولو كان الامر بحيث يلوح عليه

خيال الشك لاقمت ما اجرت المملكة من آثار الفرح بل من آثار الافتخار بالانتصار يوم هزم العدو مولانا الوزير الهمام · بل ليث الصدام · ومزقهم في الصحراء · وبددهم في الفضاء · شهودًا الوفا · و براهين صنوفًا وحيث ذلك من اكبر الواجبات على الكتاب والشعراء · ان يركضوا قرائحهم في مضمار التهنئة لمن كفاهم شر العدو ومكنهم من ناصية العلاء فهذا اشرف موضوع تخدمه الاقلام · بل ارفع موضوع يعلو به مقام الكلام · بل احب موضوع الى جميع الانام · حتى الجبناء الطغام · لا زال النصر معقودًا براية مولانا · ولا برح الانكسار ملازمًا عدانا · ولا فتئت هيبته واقعة في قلوب الاعداء · وسيوف جنوده قاطعة دابر الثائرين واهل الشحناء · في ظل الملك الاعظم والامام الاكرم · مبيد الظلم ومستاصل شأفة اهله · ومحيي العدل ومكرم آله بمن الله الذي لا نصر الا من عنده بنده

وله في لوم صديق على طعنه في مخدومه بعد ترك خدمته

انهي الى جناب الاخ العزيز وفقه الله الى ما به الخير

بعد الاستعلام عن صحته · واهداء السلام مع الشوق الى رؤيته · انه جرى في بعض منازل الافاضل ذكر خروج الصديق من خدمة التاجر فلان الى خدمة تاجر اخر براتب اكثر من راتبه عند التاجر الاول فحصل لي بهذا الخبر سرور عظيم لكن قد ذكر انك تطعن عليه وتذمه في مجالس الناس ومحاضرهم فساءني ذلك من وجوه · احدها ان الطعن لا يليق بمثلك من ذوي الاخلاق المهذبة والطباع الكريمة والثاني انه لا يجمل بالرجل ان يقع فيمن رأى الخير على يده ونقلب في نعمته لئلا تكون عليه عهدة الآية (اكل خبزي ورفع عليّ عقبه) والثالث ان هذا يغض من قدرك عند مخدومك الجديد لما هو قائم في النفوس من ان المغتاب لا يرعى حرمة والكنود لا يشكر نعمة · فمن اغتاب زيدًا وكند نعمته فلا يكون عمروٌ بمامن من غيبته وكنوده · وبالنتيجة ان ذلك يقبض نفسه عنك حتى لا يرتاح ان يمهد لك سبيل النجاح وهكذا تكون بهذا السهم صرعت اثنين وحملت وزرين فالراي اذًا ان تعدل عن هذه الطريقة انها سيئة المصير قبيحة العاقبة وما هي بالخطة التي يرضاها اللبيب لنفسه وانما هي خطة تفسد عليك تدبيرك فما يفوت علمك ان من لم يسلم الناس من لسانه لا يسلم من السنتهم · ومن وقع فيهم وقعوا فيه · ومن ظن انه بري

من الذام فقد كذبه ظنه فلكل انسان عيوب يسعى في سترها كما ان كل فرد من الناس يبتغي حسن الاحدوثـة لكن من ابتغاها مع تجريد لسانه على تمزيق الاعراض فقد طلب عنقاء مغرب ومثل الصديق تكفيه الاشارة والسلام الداعي

خاتمة

هذا ما رايت اثباته الآن من نفثات اقلام الادباء · وبنات افكار الكتبة الفضلاء · وقـد عقدت النية على اصداره اجزاء متعددة من نثر وشعر · كما المعت الى ذلك في المقدمة · ذلك اذا راق في اعين اصحاب النهضة العلمية ورؤساء المعاهد الادبية

على انني ارجو المعذرة من بعض كتبتنا الافاضل الذين اتحفوني بنفيس اقوالهم بعد ان كنت قد مثلت الكتاب للطبع فلم اتمكن من نظم درهم في سلك هذا الجزء ولكنني اعدهم انني سادرج ما اتحفت بـه في الاجزاء التالية معترفاً بطول باعهم وشدة غيرتهم على تعزيز المبادىء الوطنية

ولي الامل بذوي الفضل الذين لم يتكرموا عليَّ حتى الآن بمقالاتهم الشائقة ان لا يضنوا عليَّ بها فيما بعد لادرجها في محلاتها راجياً غض الطرف عما فرط من الخطا وطالباً من الله ان يجعل خدمتي هذه مدرجة لاكتساب الرضى ووفاء للخدمة الوطنية وذلك خير ختام

فهرست

صفحة

تآبين

صفحة

للشيخ سعيد افندي الشرتوني